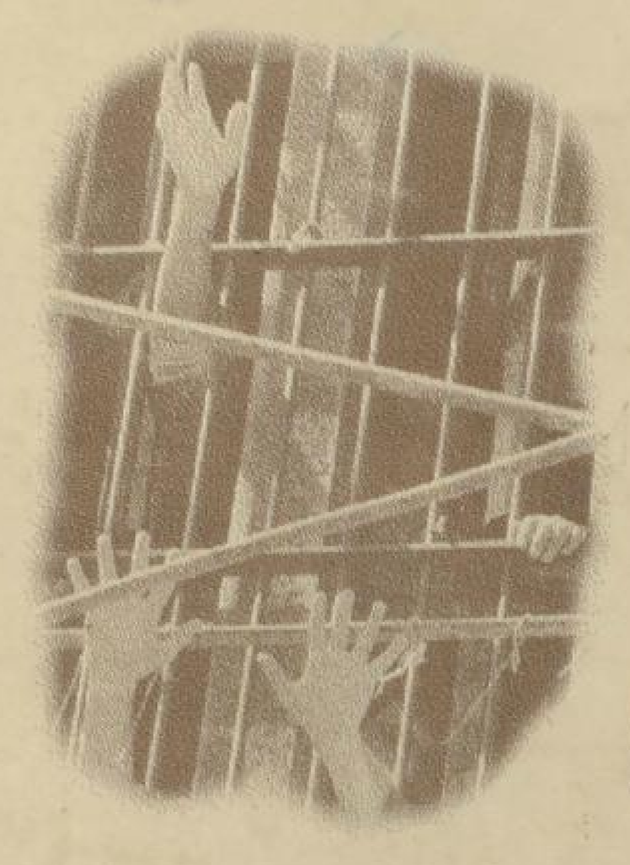
منى فيّاض



السجن مجتمع بَرّي

شهادات
النهار

تمّ إنجاز هذا البحث بدعم من مؤسسة «فورد فونديشن»

منى فيّاض

السجن مجتمع برّي



الطبعة الأولى، شباط ١٩٩٩
ص.ب. ٢٢٦-١١، بيروت ـ لبنان
فاكس ٩٦١-١-٧٣٨١٥٩
ISBN 2-84289-115-5

أشكر جميع من ساعدني في انجاز هذا العمل وهم كثر.

لكن أشكر بوجه خاص الدوائر الادارية القضائية والأمنية في مديرية الأمن الداخلي ومديرية السجون ومدراء وموظفي السجون التي زرتها، وقاموا جميعهم مشكورين، بتسهيل مهمتي.

أما شكري الخاص والعميق فيعود أيضاً الى السجناء الذين فتحوا قلوبهم وأطلعوني على أفكارهم ومشاكلهم الحميمة.

دون أن أنسى أصدقائي وصديقاتي خاصة الذين قرأوا بعض ما كتبت وشجّعوني على المتابعة.

أخيراً أشكر أفراد أسرتي الصغيرة الذين احتملوني خلال القيام بهذا العمل ويتحملوني دائماً.



المحتويات

تمهيد

علّق ذات مرة «سليدج هامر» بطل أحد المسلسلات البوليسية الساخرة، في محاولة منه لإقناع بعض المراهقين من أفراد العصابات التي تمارس السرقة والعنف، أن في إمكانهم القيام بالأعمال نفسها تقريباً وبدون أن يعاقبهم القانون لو أكملوا تعليمهم وانخرطوا في سلك البوليس. إذ سوف يكون في وسعهم أن يطلقوا النار ويمارسوا العنف نفسه لكن من الجهة المقابلة.

يجعلنا ذلك نطرح مسألة نسبية العنف وحدود مشروعية ممارسته. ومسألة العنف المبرر والعنف غير المبرر وذلك المشروع وغير المشروع. أي ما هي الحدود بين الفعل الذي نعتبره جانحاً وذلك الذي نعتبره عملاً بطولياً، ذلك الذي نُعاقَب عليه وذلك الذي نُمدح من أجله. كما يجعلني ذلك أيضاً أسأل نفسي عن سبب قيامنا بدراسة مواضيع معينة من دون أخرى. وما علاقة ذلك بظروفنا الخاصة وبتجاربنا الماضية: أي بعبارة أخرى هل يتصل اهتمامي بموضوع السجن والسجناء بالفترة التي قضاها والدي نفسه في السجن لمدة سنتين بسبب خلافات عائلية؟

يتهيأ لي أحياناً أن أول ذكرى بصرية أعيها هي لمياه رقراقة يتلاعب فوقها الظل والضوء بشكل متناوب، وتكشف تحتها عن حجارة وحصى تتخذ ألواناً متلألئة خضراء مفضضة تعبرها أسماك صغيرة. ولا أدري كيف توصلت لأن أعرف أن هذا المكان هو أحد مقاهي صيدا خلال إحدى زياراتي لوالدي السجين بصحبة أمي.

صورة ثانية تعلق بمخيلتي، وهي صورة حشد من رجال درك مسلّحين على أحصنتهم، يختلطون بشكل مستفز مع وجوه أعرفها أمام بيتنا في القرية. تتبعها صورة لأبي يخبئ لفافات كبيرة من التبغ في بدن أمي فتبدو كأنها حامل تكاد أن تضع مولوداً. تتبعها صورة رجل أمن يرمي بامرأة أعرفها، أعتقد أنها كانت تدعى «ميلاء»، على الحجارة التي تحاذي البيدر

أمام بيتنا وتشكل حافته. فتلبث مرميّة هناك غير قادرة على القيام بحيث اعتقدت أنها ماتت.

هل لذلك علاقة برغبتي في القيام بهذه الدراسة وفي عدم انزعاجي من دخول السجن ولفترات طويلة نسبياً ورغم اندهاش رجال الأمن من مواظبتي تلك بدل محاولة قضاء وقتي في أمور أكثر متعة أو حتى فائدة!؟

هل لذلك علاقة بمحاولة معرفة من هم في السجن ولماذا سجنوا؟

أم أن ذلك يتعلق بالأحرى بمحاولاتنا الدؤوب وشبه اليائسة لفهم أنفسنا وتفسير بعض نواحينا المغلقة حتى على ذواتنا؟ أم برصد اختلافنا أو تشابهنا مع من اعتبروا مخالفين للمعايير الاجتماعية السائدة؟

أذكر أني عندما اصطحبت طلابي إلى السجن وإلى الاصلاحية، فوجئوا (كما فوجئت من قبلهم) بأنّ المساجين كائنات إنسانية وضعيفة أيضاً، تحتاج هي نفسها إلى المساعدة، رغم السلوك الصلف أحياناً للبعض منها. من حينها، بدأ هؤلاء الطلاب يغيرون نظرتهم إلى المساجين.

لكل منا آراؤه المسبقة، وفي ما يتعلق بالسجناء تكون هذه الآراء قوية وكأن مدى قوتها يعطينا الدعم النفسي اللازم كي نحافظ على ذواتنا «البريئة» إذا أمكن القول: السجناء مختلفون عنا، إنهم من طينة أخرى. فلو كانوا مشابهين لنا فعلاً، لجعل ذلك كل واحد منا عرضة لأن يقوم بما قاموا به تماماً في أوضاع معينة، مما قد يهزّ طمأنينتنا الراقدة والراكدة أيضاً.

لذا يعيش الواحد منا في طمأنينته تلك، ويجعل نفسه «خارج» هذا الحقل الخطر والمقلق الذي يشكله السجن: عالم الضد، المغاير والمظلم، المخيف والخطر.

هذا الكتاب محاولة للدخول إلى هذا العالم.

القسم الأول

نسيج العنكبوت



إلفة البري

«نقتل رجلاً واحداً، فنصبح مجرمين.
نقتل ملايين الرجال فنصبح ابطالاً. نقتل
الجميع، فنصبح آلهة».

جان روستان (Jean Rostand)

في رحاب العمل الميداني

الحرب

إذا كان لكلّ منا دواعيه العميقة التي تعود إلى أسباب متنوعة منها الواعي ومنها اللاواعي لبحث مثل هذا الموضوع، فلا بد أن للحرب المديدة التي وجدنا أنفسنا في خضمها العاتي فجأة، أثراً مباشراً على خياراتنا البحثية وغير البحثية، مثل صحوتنا فجأة بعد زمن غفلة طال كي نسأل أنفسنا كيف أمضينا هذا العمر ومتى انتهت الحرب وماذا فعلت بنا؟

أول ما لفتت نظري موضوعة السجن، كان ذلك عند صدور قانون العفو لأسباب سياسية كما هو معلوم، وهو طال مجرمين محترفين، خرج بعضهم طليقاً مسروراً، معترفاً بجرائمه قائلاً: «الحمدلله، طالني قانون العفو!»[١].

بالاضافة الى ذلك، لفت نظري الاجتهاد الذي أصدره القاضي حجار بتاريخ ١٦/١٠/١٩٩١[٢]، والذي قضى بالتفريق بين الجريمة السياسية وجريمة الثأر، فبموجب ذلك يعفى المتهم بالنسبة إلى الجريمة الاولى التي حصلت بناء على أمرٍ من مسؤول ويحاكم صاحب الجريمة الأخرى التي حصلت كانتقام وثأر شخصيين!

---

١. انظر النهار، ٦ كانون الثاني ١٩٩٢.
٢. انظر النهار، ١٦ تشرين الثاني ١٩٩١.

السؤال البديهي هنا: لماذا ؟

لماذا يعدم من قام بجريمة فردية ويطلق سراح آخر قام بسلسلة جرائم قضت على أرواح العديدين؟

لماذا يسجن طفل (قابلت في الإصلاحية طفلين في الحادية عشرة وفي الثانية عشرة من العمر، كنت التقيت الأخير في سجن رومية) بينما مجرم حرب يظل طليقاً أو يصير مسؤولاً كبيراً أو يقضي عقوبة بسيطة بعد الاستفادة من قانون العفو؟ لماذا في بلدان العالم الأخرى يتابع حتى الآن ويلاحق بعض مجرمي الحرب النازيين وغير النازيين، بينما بعضهم عندنا يتبوأ أعلى المناصب؟[1] موضوع شائك يدخلنا في السياسي المباشر والفج، لذلك اكتفيت بمعالجته من الجهة التي تهم الباحث النفس–إجتماعي، وذلك ما دعاني إلى محاولة معرفة: من هم في السجن ولماذا هم في السجن؟ وذلك من ضمن محاولة الإجابة عن تساؤل: ما الذي يدفع الانسان إلى ارتكاب جريمة ما أو جنحة؟ أو ما هي الظروف المباشرة وغير المباشرة التي تدفع بأحدهم إلى كسر المعايير ومن ثم تقوده إلى السجن؟ رغم أن في الامكان كسر هذه المعايير دون دخول السجن، ولهذا بحث آخر سوف نعالجه في ما يتبع.

باحثة في السجن

شكّل دخولي السجن خطوة غير مألوفة، وشعرت في البداية ببعض الحرج على عدة مستويات. الحرج الأول هو ذلك الذي تشعر به المرأة، أي امرأة عندما تدخل السجن، أي المكان المقصود منه المعاقبة على مستويات عدة وليس أقلها العقاب على المستوى الإنساني والحسي. لذا كان عليّ الحرص على أن تكون ملابسي على قدر كبير من الاحتشام والبساطة، والانتباه لسلوكي كي لا أثير أي ردة فعلٍ غير مناسبة لي أو للسجين نفسه. أي كان عليّ ان أسلك بطريقة تحصنني من أي تحرش جنسي محتمل، عبر استخدام أواليات عدة: الخجل أو عدم الفهم لمعاني بعض الكلمات المزدوجة أو الابتعاد وحفظ مسافة نفسية وجسدية. ونجحت في ذلك نجاحاً نسبياً لا بأس به. وكنت أظل على راحتي إلى أن

---

١ - *Evénement*، العدد٥٥٥، حزيران ١٩٩٥.

يبدأ البعض (من رجال الأمن) بالسؤال عني، وكما هي العادة في لبنان، من أين أنتِ؟ وهو سؤال مخصص للموضعة المناطقية والطائفية (ومن الافضل أن تتضمن المذهبية أيضاً) للمزيد من الدقة. يلي ذلك الاستفسار عن فلان وعلان وعما إذا كان من الأسرة نفسها. مما يعني موضعتي إجتماعياً بالإضافة إلى ما سبق من معلومات. أخيراً، وبعد الاستفسارات العامة يأتي دور «الخاص»، والخاص هنا يتعلق بوضعي المدني: عزباء أو متزوجة، وإذا كنت متزوجة فممن!

يحيلني ذلك كله إلى «موضوع» ويشعرني بارتباطاتي كلها التي من المفترض «نظرياً» ألا تلعب دوراً عند القيام ببحث ما، فذلك يساعدنا على أن نكون «موضوعيين»، بمعنى الابتعاد، واتخاذ مسافة قدر الامكان. وهنا كنت أشعر ببعض الحرج تجاه الآراء المسبقة التي تكون أُلصقت بي، ويتشرب موقفي هنا (لا بد) ببعض السلوك الدفاعي؛ الذي ما كان ليحصل لولا تلك الاسئلة الدقيقة التي تنزع عني صفات الفرد وتحيلني إلى انتماءاتي الجمعيّة كلها.

بالإضافة إلى ما سبق، كانت هناك خصوصية وضعي الأسري كأم لأبناء في مراحل عمرية ومدرسية مختلفة. والاسئلة المتعلقة بأولادي والمترافقة أحياناً بنظرة أو تعليق أو هزّة رأس، تجعلني أقدر أو أحدس تفكير الآخر: هل تهتم بأسرتها قدر اهتمامها بعملها، الاختياري فوق ذلك، بالسجن وبالسجناء! ماذا يتبقى لأسرتها من الوقت بعد مهام عملها الجامعي وعملها البحثي؟ وما كان لأسئلة من هذا النوع ان تطال الباحث الرجل.

يطرح ذلك مشكلة المرأة الباحثة التي تجد نفسها خارج النماذج الاجتماعية التقليدية السائدة وعلى أكثر من مستوى: إذ هي تخرج عن السائد النسبي بعملها نفسه في الاصل، وهي إذ لا تكتفي بعملها التدريسي المعتبر كذي قيمة اجتماعية رفيعة، تقتحم ميدان بحث على قدر من القسوة أو لنقل الجفاف أو الصعوبة. فما الذي يدعوها الى ذلك كله، وفي إمكانها البقاء «معززة مكرّمة» في منزلها ؟

راودتني أحياناً مشاعر أثقلت عليّ وجعلتني أتساءل عن مدى جدوى ما أقوم به، ما دام هناك من يتساءل عن مدى صلاحيتي للاضطلاع بهذه الأدوار جميعها! وكان وجودي في السجن يكتسب حينها هشاشة كبيرة، لكنها لا تدوم طويلاً (لحسن الحظ او لسوئه) وأحاول السيطرة

مجدداً على نفسي وأعطي شرعية لاهتماماتي بالرغم من جنسي «الضعيف»، وأتصرف من ضمن إطار عام، وأعاود اكتساب صورتي الأولى: المستقلة والمتخففة من الأدوار الاجتماعية في محاولة لمواءمتها وحملها جميعها بجدارة. يتطلب هذا الأمر أيضا أن أفرض نفسي كشخص يمتلك، بالاضافة إلى الصفات الأنثوية المفروغ من أمرها، أي العاطفة والانفعال، صفات أخرى كانت لا تزال معتبرة إلى فترة قريبة محض ذكورية، وهي الذكاء والقدرة على التفكير.

وكان ذلك كله تمارين عملية على مسلمات «غوفمان» التي تؤكد أن كيفية معاملة الناس لنا تتعلق بما يفكرون به عنا، كما أن تعاملهم معنا متعلق بانطباعاتهم عنا. ولكننا لا نقف تجاه ذلك مكتوفي الأيدي بل نحاول أن نؤثر على كيفية تفكيرهم بنا وذلك عبر سلوكنا الذي نجعلهم من خلاله يستنتجون ما نريد منهم أن يفكروه حول من نكون. وكان عملي في السجن مناسبة ممتازة لاختبار ذلك في وضعية أشبه ما تكون بالتجريبية.

من أنا بالنسبة الى السجين؟

قبل دخولي السجن، قمت بالعديد من القراءات النظرية كي أهيئ نفسي، وأقرر عيّنتي التي سأعمل عليها والأسئلة التي سوف تفيدني في التوصل إلى معرفة الخلفية الاجتماعية للسجين.

كان تساؤلي الأساسي بيني وبين نفسي: ما الذي سوف يدفع السجين لأن يجيب عن أسئلتي؟ أي سلطة أمثلها في هذه الحالة؟ وما مدى ارتباطي شخصياً بها بنظرهم ؟ وماذا تعني لهم هذه السلطة ؟

اذ انتبهت خلال عملي معهم، أنني بطلبي الدخول إلى السجن بواسطة إذن إداري ورسمي، أستخدم السلطة نفسها التي تحاسبهم وتسجنهم؛ وشكّل ذلك المفارقة الأولى في عملي.

وجدت نفسي إذن، أستخدم أداة سرعان ما تكشفت عن تناقض أساسي في هذه العلاقة: كنت أجلس في الغرفة التي تخصص لي، أنا التي أهتم بمعرفة أحوال السجين ومعاناته ووضعيته كإنسان وأحاول فهم الاجحاف الأولي الذي يؤدي به إلى هنا، أجلس إذن، جنباً إلى جنب مع رجل الأمن الذي يمثّل الجهة نفسها التي تعني القمع والتسلط بالنسبة الى هذا السجين.

ساهم ذلك عملياً في المرحلة الاولى بقمع بعض ردود الفعل العفوية، وجعل البعض في منتهى الحذر. لكن يبدو أن السجناء قرروا بعد تداولهم في أمري، أنني لست في جانب السلطة أو لنقل الإدارة، وصاروا يحدثونني في مواضيع تهمهم فعلاً. لكن للأسف لم أكن في وضعية تسمح لي بأي مساعدة سوى الإصغاء. وهكذا أحضر أحدهم صوراً لأولاده كي يريني إياها، وكان هذا مؤثراً.

ما الذي يريده السجين؟

حول نظرة السجين إليّ وإلى نفسه وإلى الشرطي أو السجان، برزت هذه النقطة بوضوح أثناء إحدى المقابلات. أطلّ سجين برأسه وطلب مني أن أجري معه هو أيضاً مقابلة موسعة. سألته لماذا وما هي تهمته فأجابني: تفجيرات. وقبلت بالطبع.

قابلت هذا السجين مرة واحدة، رفض بعدها مقابلتي مرة أخرى ولم ألحّ عليه. ذلك أنه أراد استخدامي كأداة لإيصال صوته إلى الخارج ولاتهام جهات معينة انشق عنها في فترة ما ولم يتورع عن ذكر أسماء كبيرة وتنظيمات معتقداً أنني أقوم بنوع من التحقيق الصحفي. لذلك أراد أن يظهر أنه أدخل السجن عنوة وبداعي الانتقام. وهو إذ يعترف بما قام به إلا أنه لا يعدّ نفسه مسؤولاً بمفرده. وجد هذا السجين نفسه يتكلم بحرية وطلاقة إلى ان تدخل أحد الحراس سائلاً إياه عن بعض التفاصيل التي تتعلق بشخصية ذكرها في سياق الحديث. عندئذ تغيّر صوته فجأة وتعدلت نبرته واعتدل في وقفته، ضابطاً نفسه متذكراً وضعيته الدونية وقال للشرطي، نصف مداهن نصف جاد، لكن ثابت الحذر: نحن كلابكم يا أفندي، نحن كلاب في السجن وباستطاعتكم دعسنا تحت أقدامكم!

في مناسبات عديدة شعرت بالإحراج من جراء هذا الالتباس في وضعيتي. أذهب لإجراء عمل استقصائي في السجن، متأبطة أوراقي ومحشوة بمعرفة مفترضة حيادية وعلمية، كي أقوم ببحث قد يفيد لاحقاً في معالجة، أو على الأقل في محاولة فهم أسباب الجريمة. وأجدني بمواجهة أفراد ينظرون إليّ أحياناً على أنني أمثّل الجهة الأخرى، أو أنني فاترة على الأقل ومحايدة بشكل مقلق. فأجدني بمواجهة أفراد ينظرون

إليّ متسائلين بما يشبه الإدانة: أنظري إلى وضعنا البائس، ما الذي سوف تفيدينا به هنا والآن؟ ما الذي سوف يقدمه لنا بحثك؟ وكيف سوف يساعدنا في تحسين أوضاعنا الحالية المزرية؟ عارضين في كل آن أوضاعاً كنت أبدي حذري تجاهها أحياناً، كي لا .أتورط على مستوى مشاعر الشفقة وكي لا أُستغل بسببها. إذ لا بد أن تثير أوضاعهم مشاعر تعاطف قوية: شروط سجنهم أو أسبابها أو وضع الأسرة التي تركت بدون معيل أو الأولاد الذين اضطروا إلى ترك المدرسة بسبب سجن الوالد أو الزوجة الشابة التي طلبت الطلاق وهكذا...

ذلك كله كان يحيلني إلى مشاعر الحرج والعجز. إنها أسئلة بديهية وهم يحتاجون إلى الكثير من المساعدة في أمور حياتية عاجلة وملحّة ومن الممكن تفادي حصولها لو توفرت للسجن بعض الشروط الإدارية (موظفون مدنيون ومساعدات اجتماعيات ومحامون متطوعون وجمعيات خيريّة فاعلة...) ولكنني عاجزة عن تلبية أي منها. وأحد شروط السماح لي بدخول السجن الاكتفاء «بالعمل الاكاديمي».

مع ذلك وبالرغم من «حياديّتي»، بدأ بعضهم بنقاشي منطقياً وبدأوا بتطوير «طلبهم» أثناء المقابلات، بالرغم من حدسهم الضمني لعجزي. لكن ذلك يفضح حاجتهم النفسية إلى التواصل والتعبير عما يشغلهم وعما يهجسون به. هذا بالرغم من ضيق الوقت ومن الفوضى النسبية التي كان يوقعها دخولي إلى السجن. فخلال الأوقات التي كنت أمضيها هناك، كان يغلب على السجن طابع «العيد» أو على الأقل طابع «الاستثنائي» الذي يخرجهم من الروتين المملّ. وعندما كنت أعتذر عن اقتحامي لعالمهم كنت أجد دائماً من يشد أزري، رغم وجود من يتذمّر من حضوري أيضاً.

إذن حسّن السجناء مع الوقت أداءهم، وكانوا بعدما يجيبون عن أسئلة الاستمارة يسألونني بدورهم هل باستطاعتنا النقاش معك في الأمر! وأقبل بالطبع. وكان طلبهم دائماً يتعلق بنقد لأداء الجهاز الإداري والقضائي، وبالتأخر في البتّ بقضاياهم والبطء وعدم حفظ الحقوق البديهية للسجين في الحصول على محام. إلى جانب اعتراضهم الأساسي ومرارتهم تجاه حق بديهي ساري المفعول حتى في البلدان المجاورة (على حد تعبير أحدهم): وهو توقيف المتهم بناء على مجرد اتهام من شخص ما

ودون أنْ تثبت التهمة عليه. ترددت هذه الشكوى مراراً، وشكا العديد من السجناء بقاءهم فيه لسنوات أحياناً من دون محاكمة، وقد تكون التهمة السرقة وأحياناً أخرى القتل، لكن في كل الاحوال لا تكون التهمة مثبتة، وقد يخرج المتهم منها بريئاً.

وجدت نفسي في السجن في حقل بكر، يحتاج الى كل أنواع الدراسات، واستغربت عدم تحرك لجان حقوق الإنسان على هذا المستوى، لحفظ الحقوق البديهية من مثل حق المتهم في الدفاع عن نفسه أو حقه في أن يظل خارج السجن ما لم تثبت التهمة عليه. تبين لي أنه ميدان خام، وان العمل فيه يتطلب معرفة قانونية وملاحقة للنشاطات القضائية والادارية. وتبين أن المشكلة الأولى تكمن في التأكيد على أن السجين هوَ إنسان قبل أن يكون سجيناً وأن وضعيته تلك لا تلغي صفته الإنسانية هذه.

ناقشت مرة مع مسؤول عن السجون حول مسألة ضرب الموقوفين وتعذيبهم والذي يتم الاعتراف به في أحوال كثيرة. فأجابني بأنه شخصياً لا يحبذ استخدام هذه الأساليب. لكنه لفت نظري الى أنهم «ليسوا مثلي ومثلك» وأنهم مختلفون عنا! وكان في ذهنه نموذج الخدم الذين لا يعترفون بسرقة مستخدميهم إلا بالضرب وباستخدام أساليب القسوة.

السجن مكان للقسوة والعنف

إن أحد أهم مصادر المعلومات المتوافرة عن شخصيتنا في أي وضعية نتقابل فيها وجهاً لوجه، هي: مظهرنا وتصرفاتنا وطريقة انوجادنا والجندر (الجنس/النوع) الذي ننتمي إليه والعمر، كما أيضاً مدى جاذبيتنا الجسدية، فهي كلها توفر مصدراً للاستدلال عن شخصيتنا.

ونحن نبحث لأن نؤثر على الآخرين أثناء مقابلة ما، فنحاول إعطاء انطباع ما للشخص المعني بأنا نمتلك الصفات التي يتوقع أن نتمتع بها. لكن لا شك في أن للوضعيات نفسها أثرها ايضاً. إن طبيعة الوضعية تتعلق بالهوية الاجتماعية للأطراف المعنيين. ومسألة الهوية مسألة دقيقة من ناحية، كما أنها مسألة شكلية من ناحية أخرى. ففي وضعية اجتماعية معينة علينا أن نلعب دوراً اجتماعياً محدداً، وهناك أكثر من تورط شكلي في الموضوع، هناك عقد ضمني يتصرف المتورطون في هذه الوضعية على أساسه. إنه نوع

من «عمل توافقي» بحسب تعابير غوفمان وقد يصعب إظهار أهمية هذا العمل للعيان لأننا نقوم به طوال الوقت ولا نكون ابداً خارجه.

أقيمت تجربة معينة، (تجربة zimbardo)[1] لمحاولة معرفة أسباب العنف في السجن بغض النظر عن الأسباب المعدة كموضوعية للعنف من مثل: السادية عند الحراس وكون المساجين ليسوا أناساً شديدي اللطف. لكن تبين أن هناك أسباباً أخرى مولدة للعنف، ففي ظروف تجريبية ولدى إعادة خلق الظروف نفسها الموجودة في السجون الحقيقية: فقد السجناء معنوياتهم وأصبح الحراس أكثر عنفاً على نحو تدريجي؛ وتبين أن الظروف المحطّة والنابعة داخلياً من السجن، تولد المزيد من العنف والانحطاط.

كلنا نعلم أننا لا نستطيع استخدام القوة في العالم الحقيقي، لكن في السجن كما في المستشفيات العقلية، ليست الأمور بهذه البساطة. الحراس مدعوون في السجن لاستخدام السلطة، وهم يعرفون ذلك. وإذا كانت القاعدة تقول باستخدام القليل من القوة، الا أنها لا تمنعها. يبقى من الصعب أن نعرف مقدار القوة الضروري ليكون كافياً؟

باستطاعة كل حارس أن يسأل نفسه إلى أي حد يمكن له أن يذهب في عملية تهذيب المساجين وتأديبهم. وإذا ما برهنت التجربة على انزلاق الحراس إلى استخدام القسوة في فرض النظام في ظروف تجريبية، فكيف يكون عليه الامر في ظروف عادية؟

لاحظت أثناء وجودي في السجن ميل الحراس إلى استخدام السلطة لمجرد استخدامها، فكان بعضهم ينهر السجين إذا ما لاحظه يتصرف بحرية أو بعفوية، كأن يدخن سيجارة أو ان يقف بشكل متراخ ويديه في جيبه. ينهره الحارس عندها ويطلب منه الوقوف جيداً أو إطفاء السيجارة، مع أن التدخين مسموح به في السجن.

في لبنان يزداد الإحساس بالسلطة بسبب تنظيم السجون ونوعية العلاقات التي تفرض نفسها، خاصة أن الأمر داخل السجون منوط برجال الأمن. وهذا من الأمور التي تدعو الى النقاش، ويرى العديد من

---

(١) Sabini, J: *Social Psychology*, (W.W.Norton & Company, New York - London), 1992, pp. 62-64.

الشخصيات الأمنية الكبيرة ضرورة تسليم السجون إلى إدارات مدنية واكتفاء رجال الأمن بأعمال الحراسة. ذلك أن السلطة الموجودة الآن هي سلطة مزدوجة، مرة بسبب دور الحراسة المنوط بهم، ومرة أخرى بسبب دورهم في المجتمع عامة وهو دور ضابط وقامع.

عندما قرأت في الصحف عن كيفية توقيف الدكتور وائل خير[1] وكيف فتشوا منزله: «...ثم انطلقنا، وكانوا كبّلوا يديّ عند مدخل البناية. الأمر الذي استهجنته، وخصوصاً أنني فهمت أنهم يقتادونني للاستماع إلى أقوالي فحسب. هل اعترضت على التكبيل؟ كلا، لأني وجدت أن لا جدوى من الاعتراض. والأصعب أن يديّ كانتا وراء ظهري، مما صعّب عليّ دخول الجيب. عندها كبّل الضابط يديّ من الأمام هذه المرة (...) ورغم أن خمسة أيام فصلت بين الاستجواب وموعد الإطلاق، فقد شعرت بمرور مئتي عام (...) بالطبع، السجن هو عزلة عن العالم وعقوبة في ذاته ويتسبب بشعور مزعج (...)». بالنسبة لكيفية إطلاقه أشار الدكتور خير: «لم يطلعني أحد على شيء... خرجت معهم وعرفت فوراً أن الأجواء ليست سيئة لأنهم لم يعصبوا عيني... »

يرينا ذلك كيف أن وضعية السجين بحد ذاتها مزعجة ومحطّة. ويتم التعامل مع السجين بنوع من الاحتقار مهما علا شأنه، وكفاقد لأهليته أو لحقوقه المدنية، ولا يعود يحق له «معرفة» ما الذي سوف يحصل له، ويعامل وكأنه قاصر، ولا يتم إعلامه حتى عندما تثبت براءته ليفرج عنه.

أول الأمور التي تحدث عند الاعتقال وفي السجن هي الانحطاط. فنحن كبشر نملك أن نعامل بطريقة محتشمة وعقلانية، لكن هناك فرقاً بين أن نملك هذا الحق وبين أن نكون قادرين على جعل الآخرين يعاملوننا تبعاً له. حينما يتم تحقير الشخص فمن السهل أن نجعله يقوم بما نطلبه منه حينئذٍ، فيتجاهل إنسانيته وحقوقه الإنسانية البديهية والأساسية.

لا نعي في حياتنا اليومية والعادية كم أن معاملتنا كبشر وكمتحضرين، محتشمين ومستقلين تتعلق بقدرتنا على أن ننظر إلى أنفسنا ونتصرف على أساس هذه العوامل. أي عامل يجعل الآخرين غير قادرين على أن ينظروا إلينا على هذا النحو، يسهل عليهم أن يعاملونا كأقل من بشر.

---

(١) ليل ٢٣و٢٤ كانون اول ١٩٩٦ ، بحسب النهار، ٣١ ك١، ١٩٩٧.

السجن : فقدان العزلة والصمت

قبل أن أدخل السجن لأول مرة، اعتقدت، ولا أدري لماذا، أن السجين هناك يعاني العزلة والصمت. ذلك أن كلمة سجن تحيلنا دائماً إلى الحبس الذي يعني الحجز. والحجز يرتبط بذهني بالانفراد والعزلة، ربما بسبب الأفلام التي لا تظهر لنا ضجة السجن بما فيه الكفاية.

لذلك فوجئت عند أول زيارة لي الى السجن، وكانت لسجن رومية الذي كان يضم أكثر من ألف سجين، فوجئت بالضجة وعلمت أن ما يعاني منه السجين حقاً هو غياب العزلة وافتقاد الصمت، أو ببساطة، الازدحام والتجاور إلى حد التلاصق، وليس العكس. التلاصق الدائم ووجود الآخر والتعرض لنظرته طوال الوقت، مما يعني فقدان الحميمية والخصوصية. أن يكون السجين مكشوفاً وعارياً ولا يملك أشياءه الخاصة إلا في ما ندر. لذلك تكتسب الملكية أهمية مطلقة في السجن وتكتسب الأشياء الصغيرة وزناً لا يُقدَّر ويصبح امتلاك ولاّعة امتيازاً يتم التوسط من أجله ويعدّ لفتة رعائية كبيرة.

عبّر الأحداث الذين قابلتهم في الإصلاحية، بعد أن نقلوا إليها من السجن، عن شعور الارتياح العارم من الضجة، إذ إن أول تعليق لهم عن حسنات الإصلاحية كان: «أفف... ارتحنا من الضجة». ظهر أثر الضجة بوضوح عند تفريغ الأشرطة من الأحاديث التي أُجريت في السجن، بعد أن كانت صفعتني عند تخطي الباب الحديدي الذي يؤدي إلى الساحة الداخلية حيث يتنزه المساجين.

كذلك أشار إلى هذا الأمر سجين كان قد نقل من سجن رومية إلى سجن بيروت عندما قابلته. أفادتني مقابلة هذا السجين على مستويات عدة، فهو نقل من السجن الاول تأديبياً بسبب تعاركه مع السجان وضربه له، واكتشف هدوء سجن بيروت النسبي والقرب من الآخرين على مستوى العلاقات الإنسانية. أما أسباب عقابه فتعود إلى اعتراضه وردة فعله الرافضة للتفتيش في أغراضه على شكل غزوات ليلية متأخرة فيما بعد الساعة العاشرة والحادية عشرة ليلاً، بالرغم من أن قوانين السجن تحرّم هذا السلوك وتمنعه، فهي تنص على إغلاق باب الزنزانات عند الخامسة مساء. مع ذلك كان السجان (أحدهم) يدخل ويبعثر الأغراض ويقلّبها ويفتش فيها، وعندما يتم اعتراضه يكيل الشتائم والسباب.

إشتكى السجين بواسطة الرسائل المقفلة إلى آمر السجن، ولكنها لم تصل أو لم تؤد مفعولها المفترض. وواصل السجان إزعاج السجين وأخيه (وهما من القوات اللبنانية)، فكان أن تعارك معه وأحيل الملف إلى المحكمة العسكرية، فحكم على السجان شهر سجن بسبب خرقه قوانين السجن ونقل السجين تأديبياً من سجن رومية إلى سجن بيروت.

إعترض السجين على نوع العقاب هذا لأنه طال أهله وأسرته أكثر مما طاله شخصياً، فهو يرى أن السجن سجن، لكن من ظُلم فعلاً هم الأهل المتوجب عليهم قطع مسافات أبعد وأكثر مشقة لزيارته أسبوعياً؛ وتساءل: لماذا يعاقبون أسرتي؟ لماذا يعذبونهم؟ يكفي أنني أشعر أني أعذبهم بسجني أكثر مما أتعذب أنا!

حجم السجن وشخصيته

يتبين إذن من خلال العمل الميداني أن العلاقات داخل السجن تختلف باختلاف حجمه أو تنظيمه الداخلي أو شاغليه، (كما سوف يتبين معنا في تجربتنا في سجن النساء). يتمتع سجن رومية بشروط أكثر صحية إذ تدخله الشمس، فقد بني كسجن في بداية السبعينات، ويشغل الغرفة الواحدة فيه ٥ سجناء (أو أكثر) مع أنها معدة لسجين واحد في الأصل. حجمه الكبير يجعل العلاقات داخله مغفلة وأقل إنسانية. ويظل السجين فيه فرداً مجهولاً. أما سجن الرمل فقد بني منذ أيام الفرنسيين، ربما منذ العام ١٩٢٠ حيث كان ثكنة ثم تحول إلى مستشفى وبعد ذلك إلى سجن. خصص في البداية للنساء، لكنه تحول في بدايات الحرب (١٩٧٨) إلى سجن للرجال، وذلك بعد أن هدم سجن الرمل في منطقة طريق الجديدة وبيعت أرضه وضمت إلى ممتلكات الجامعة العربية. أما سجن النساء فقد نقل إلى بعبدا واحتل مكان المستشفى العسكري الصغير ذي الطبقتين.

يعاني سجن بيروت من الرطوبة والحر صيفاً والرطوبة والبرد شتاءً والعتمة دائماً. ولم يعد ممكناً إدخال تحسينات عليه، بل يجب هدمه (تم إقفاله الآن). وقد كان مصدر شكوى حتى من رجال الأمن الذين يؤدون خدمتهم فيه. تميّزت العلاقات فيه بأنها أكثر انسانية، مقارنة مع سجن رومية. فمدير السجن يعرف السجناء شخصياً ويعرف مشاكلهم ومطالبهم

الفردية. والسجناء أيضاً يعرفون بعضهم ويتواجدون في غرف واسعة تضم ٣٥ سجيناً (السجن يضم عدداً يتراوح بين ٢٥٠ و٣٠٠ سجين).

أما سجن النساء في بعبدا، فله خصوصيته أيضاً. يتكون هذا السجن من شقة صغيرة (٤ أو ٥ غرف) وهو كان في الأصل مستوصفاً ملحقاً بمستشفى بعبدا الحكومي وحول إلى سجن للنساء للضرورة، كما ذكرنا. يضم بشكل متوسط حوالي ٧٥ سجينة، تديره سيدة غير متزوجة تتواجد فيه معظم الاوقات وهو حيزها الحياتي الاساسي. تقوم المديرة بإدارة هذا السجن بحس رعائي لا يتوفر في السجون الأخرى، وتهتم بالسجينات وبراحتهن بما يشبه الحس الأمومي. إنها قريبة منهن وتعرفهن واحدة واحدة وتعرف قصصهن ومشاكلهن وتبذل ما تستطيعه لمساعدتهن، وتحاول تحسين وضعهن المادي عن طريق الاهتمام الشخصي من قبلها بتأمين التبرعات من القطاع الاهلي. فتوفر لهن المحارم الورقية والسجائر والصابون المعطر، وجميعها غير متوفرة للسجينات. أي تحاول توفير كل ما يسهل احتمال حياة السجن التي لا تحتمل.

حجم السجن هذا وشخصية مديره يؤثران على نوعية العلاقات الداخلية، كما لاحظت أن لسجن النساء شخصية شديدة الخصوصية، ربما لأنّ قاطناته من النساء، ولذا نجدهن ينظرن إلى أنفسهن كضحايا بامتياز (نظراً لجدة تواجد سجينات بهذه الاعداد). وربما بسبب استبطانهن لمقولة أن «السجن للرجال»، لذلك وجدت أنهن كن أكثر جرأة في سلوكهن حيالنا وأكثر استقلالية. ربما كان لطريقة إدخالنا إلى السجن أثرها على كيفية سير المقابلات أيضاً. إذ تم ذلك دون تمهيد مما جعل منا لقمة سائغة للسجينات اللواتي تكتّلن بمواجهتنا وأحسسن أنفسهن في مركز قوة حيالنا (كنت مع ثلاثة من طلابي، فتاتان وشاب). ذلك أنه تم إدخالنا الى غرفتهن بشكل مفاجئ، فما كان منهن إلا أن أمطرننا بأسئلتهن المحرجة: ما الذي سوف نستفيده منكم؟ هل سوف تقومون بتحريك قضايانا للإسراع في محاكماتنا، أو برفع الظلم عنا؟ هل سوف تكتبون عنا في الصحف؟ وإلا فما الفائدة من الكلام معكم؟

ولم نستطع تعبئة الإستمارة إلا بعد تدخل من المديرة التي أقنعتهن «بضرورة» الإجابة على الإستمارة ومع ذلك رفض عدد كبير منهن التجاوب الفعلي، وقد حصلت هذه الزيارات في ربيع ١٩٩٥.

كان الأمر مختلفاً في سجن بيروت الذي دخلته على مرحلتين تفصل بينهما عدة اشهر. وكان أن تغيرت الادارة أيضاً خلال الفترة الفاصلة: كانت المرة الأولى في شتاء وربيع عام ١٩٩٥، أما المرة الثانية فكانت في شتاء وربيع ١٩٩٦.

في المرة الاولى لعملي كان المدير قد عيّن حديثاً بعد التطهير الإداري الذي تعرض له المدير السابق الذي اتهم بالفساد والرشوة وسوء استخدام الوظيفة وسجن بسبب ذلك. كان دور المدير الجديد إذن ضبط السجن وإعادة الامور إلى نصابها والتشدد تجاه الممارسات المتفلتة السابقة، وشرح لي استراتيجيته للعمل كما يلي: «فرّق تسد». ومن أجل ذلك كان قد عين الجواسيس والمراقبين من السجناء (وهي وسيلة مستخدمة في السجون، ومتعارف عليها، لكن تتغير صلاحيات هؤلاء الأشخاص بحسب نوعية الادارة، فهي قد تكون واسعة أم لا، بحسب الرقابة عليهم هم أيضاً). وكان هذا المدير يتلقى بريداً يومياً ضخماً يتم فيه عرض كافة المشاكل التي يتعرض لها السجناء. وكان يمارس الرقابة على هذه الشكاوى بواسطة التقارير الكتابية والشفهية التي يقدمها له من كلفهم بذلك. وكان يقابل من يرغب من السجناء في مكتبه ولا يكثر من هذه المقابلات كي لا «يكسر هيبته».

عند دخولي السجن وإبراز الإذن الرسمي الذي يسمح لي بالقيام ببحثي، وكانت قد وصلته برقية عنه أيضاً. أعطى المدير أوامره بإحضار السجناء وتطبيق الإستمارة. وكان مرناً ومتفهماً، ولم ألحظ حينها أي تململ من قبلهم، ربما لانها كانت المرة الاولى التي يخضعون فيها لمثل هذا الامر.

في المرة الثانية كانت شخصية المدير الجديد حازمة ولكنها أكثر هدوءاً وأكثر تدقيقاً في تطلّب التقيد بالقوانين والخوف من الانزلاق في ما لا تحمد عقباه. وتطلّب الأمر تجديد الإذن والاتصال الهاتفي به من قبل الإدارة، بعدها سمح لي بالعمل. وسرعان ما تململ السجناء هذه المرة، لا بقوة لكنهم سألوا عن جدوى العمل والفائدة منه. وعند الانتهاء من تطبيق الاستمارات اكتشفت وجود ٢٤٠ واحدة فقط، مع أن عدد السجناء حينها كان ٢٧٥. بعد الاستفسار تم إحضار الباقين وبلغوا عندها فقط ٢٥١ سجيناً، بسبب «زوغان» البعض على ما يبدو والإفراج عن البعض الآخر كما أخبرت.

هكذا تتغير ظروف العمل وسلوك السجناء من سجن إلى آخر ومن مرحلة إلى أخرى، تبعاً للإدارة، العدد، الجندر (جنس السجين)...

في المنهج والطريقة

العيّنة

وقع اختياري على سجن بيروت كي أجري دراستي على نزلائه فشكلوا بذلك عينة البحث، وذلك بسبب موقعه في قلب بيروت الغربية وبسبب حجمه المعتدل. ولافتراض ضمني في أن نزلاءه يمثلون عينة لا بأس بتمثيلها وتنوعها. ذلك يعني أن جماعة البحث هي السجناء بمجملهم والبالغ عددهم حالياً حوالي الخمسة آلاف.

كان هذا السجن في فترة ما قبل الحرب مخصصاً للنساء وعرف لذلك باسم «سجن النساء»، لكنه بعد أن حوّل في بداية الحرب إلى سجن للرجال عرف بسجن بيروت. وهو مخصص للسجناء ذوي الاحكام القصيرة والمتوسطة وللسجين الذي يناسبه موقع هذا السجن (قرب سكنه الدائم). وهو يقع قرب القصر الحكومي، أي في منطقة سكنية جيدة ومكتظة. ويضم عدداً من السجناء يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ سجين. ومن الملاحظ هنا أن استيعاب السجون يتم تعديله دورياً منذ انتهاء الحرب واستتباب الأمن وعودة سلطة الدولة. ما يعني بالتالي تزايد عدد السجناء، نظراً لضيق الأمكنة في السجون (أنظر الجدول رقم ٦ حول السجون واستيعابها). ورست العينة على ٢٥١ سجيناً ويشكل هذا العدد نسبة ٦,٥٪ من السجناء الذين كانوا حين إجراء البحث حوالي أربعة آلاف سجين.

يضم هذا السجن إحدى عشرة غرفة متوسطة الحجم ويتراوح عدد السجناء في كل واحدة منها بين ٢٠ و٣٠ سجيناً وقد يصل أحياناً إلى ٣٥ سجيناً. بني هذا السجن في النصف الأول لهذا القرن وهو مكون من طابق أرضي وطابق آخر سفلي، ربما كان بناؤه وتنظيمه نموذجين في الفترة التي بني فيها، لكنه فقد هذه الصفات الآن وأصبح من أقدم السجون وأسوأها بالنسبة الى الشروط الصحية على الأقل.

سجن بيروت، ككل السجون، يضم السجناء المحكومين إلى جانب الموقوفين ومناصفة تقريباً، بالإضافة إلى ٥٠ حالة كانت تجمع الوضعين معاً عندما طبقت الاستمارة في شتاء ١٩٩٦. يبدو أن سجن بيروت يتمتع الآن بسمعة طيبة، كما يردد المسؤولون عنه، إذ يعد إرسال السجين إلى سجن طرابلس أو سجن زحلة نوعاً من العقاب على ما تم تأكيده لي من مصادره الإدارية.

الاستمارة والمقابلات

حاولت هذه الدراسة التعرف الى خصائص السجين: من هو وما هو وضعه الأسري، الثقافي، المهني والاجتماعي...

هدفت محاولتنا هذه إلى الابتعاد عن الالتماس التقليدي للانحراف بقطبيه البيولوجي والنفسانوي (liska 1987). إذ يموضع واحدهما المشكلة على مستوى الجينات والكروموزومات، أما الآخر فيولي الحياة الداخلية للفرد وبنيته النفسية ونمط شخصيته أهمية كبرى. كما يحصر اهتمامه بتشابك علاقاته الوالدية، ما يعني التركيز على ماضي الفرد مما يجعل من الظروف الاجتماعية الراهنة أو التي نشأ فيها الفرد، كذات أثر ضعيف نسبياً وتصبح مجرد وسيط لإظهار صفات الشخصية (المرضيّة في غالب الأحيان) ومميزاتها. وهنا لا بد من التذكير بالنقد الجارح الذي قام به العالم النفساني الايطالي (Basaglia 1980) لمثل هذا الالتماس الوحيد الجانب: «فأن يكون الفرد من البروليتاريا الرثة في المأوى أو السجن بسبب عقدة أوديب ما، فهو شيء يدعو إلى السخرية عندكافر». المطلوب إذن معرفة أكثر انفتاحاً للسجين، معرفة شروط وجوده الأسري والاجتماعي ومعرفة الوضعية الخاصة التي أدخلته السجن، وربط ذلك بالبنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية، في نوع من الاسترشاد بنظرية Merton البنيوية والتي ترى أن الانحراف ينتج عن الانقطاع بين الأهداف الثقافية التي يتلقاها الناس اجتماعياً وبين البنى المناسبة لإنجاز هذه الاهداف.

للقيام بذلك يصعب اعتماد منهج صارم لا حياد عنه. فكما أن الاتجاه ينحو الآن نحو تداخل العلوم، كذلك من المفيد الاستفادة من مناهج عدة. ذلك يعني أنه بالإضافة للطريقة التجريبية المعتمدة على المسح

الاحصائي وطريقة الوصف، سوف يتم اللجوء إلى التحليل في الوقت نفسه. قمنا من أجل ذلك بتطبيق استمارة على ٢٥١ سجيناً وفي الوقت نفسه أجرينا مقابلات مطولة مع ١٥ سجيناً تم فيها تسجيل رواية كل سجين منهم لسيرته الشخصية. وذلك مع اعتماد الملاحظة، (أنظر الاستمارة كملحق). ومن خلال خبرتي السابقة في العمل الميداني تركت السجين يتكلم بحرية كلما كان ذلك ممكناً ومن دون مقاطعة، ووجدت أنه من المفيد البدء بأسئلة صغيرة محددة، تكون بمثابة مشجع على البدء وهي تشكل في الوقت نفسه نقاط ارتكاز من أجل إجراء مقارنة، ولو ضمنية، فيما بينهم. وتم الاعتماد على المحاور التالية:

- لماذا أنت في السجن بحسب رأيك؟ من هو المسؤول؟
- ماذا تعلمت من السجن؟
- هل وجود رقابة بوليسية أكبر تساعد على التقليل من أعداد السجناء؟
- هل استفدت من السجن؟
- هل السجن أفضل أم العقاب الجسدي أفضل؟
- كيف نشأت؟
- كيف هي علاقة والديك بعضهما البعض (أو كيف كانت)؟
- كيف هي علاقتهما بك؟
- كيف كنت تعاقب؟
- ما هي برامجك التلفزيونية المفضلة؟
- ما هو الوضع الحياتي العام: المنزل – الأسرة – الأقارب – الإشراف الوالدي – الهوايات – الكحول – المخدرات ...

حول الأسئلة والأجوبة

عند تطبيق الاستمارة في المرة الأولى، احترت هل أسأل السجين مباشرة عن انتمائه لحزب سياسي أو تنظيم مسلح أم لا؟ وهل أسأله هل سجن من قبل أم لا؟ ذلك أن الأمر قد يعد نوعاً من التطفل الخطر سياسياً واجتماعياً. في المرة الثانية قررت توجيه السؤالين، وقلت في نفسي لنر النتيجة: وتبين لي أن معظم المساجين زعموا أنها المرة الاولى التي يسجنون فيها. أما في ما يتعلق بالسؤال عن التنظيم السياسي أو المسلح،

كانت الاجابات حذرة مترددة أحياناً وكانت واثقة وقوية أحياناً أخرى عندما يتعلق الأمر بإظهار موقف مبدئي أو انتماء عقائدي. وبالتالي لا أدري مدى صحة الاجابات التي حصلت عليها.

ناقش معي هذا الامر أحد السجناء، وهو شخصية اجتماعية مرموقة (مدير بنك مسجون بتهمة مالية)، وتحداني متسائلاً إن كنت أعتقد حقاً أنني حصلت على إجابات صحيحة عن أسئلتي؟ مبدياً رأيه في مقابلة كنت أجريها عندما دخل إلى الغرفة التي أعمل فيها (وهي غرفة المستوصف)، قائلاً لي: فلان الذي قال لك إنها المرة الاولى له في السجن، كذب عليك، إنها المرة الرابعة، هكذا أخبر رفاقه في الغرفة! تدخل هنا الشاويش (رجل الأمن) قائلاً إنها فعلاً المرة الأولى وإنه ادعى سجنه لأكثر من مرة لإعطاء نفسه أهمية أمام رفاقه في الغرفة وليس أكثر من ذلك!

دار نقاش بيننا حول مدى «صدق الإجابات»، فانقسم الرأي بين رجال الدرك: منهم من قال إن ما حصلت عليه من إجابات صادق وصحيح، وإن السجناء لا يجرؤون على الكذب. ومنهم من قال إنهم قد يكذبون في ما يتعلق بعدد مرات السجن وبالانتماء الحزبي. لكنهم لا يرون الداعي لأن يكذب السجين في ما يتعلق بالمعلومات المتعلقة بوضعه الأسري والقابل للتحقق منه بسهولة من قبل الإدارة أو القضاء.

هذه عينة عن التساؤلات والاشكالات التي يمكن أن تحصل والتي لا يمكن حلها بسهولة في أي عمل ميداني.

في خيارات الصياغة وتقديم المعلومات

كثيرة هي الصعوبات التي تصادف الباحث أثناء قيامه بعمله البحثي. منها الصعوبة التي صادفتني في اختيار طريقة عرض الحالات، فإمكانية الكتابة متعددة وقد تتخذ أشكالاً عديدة ومفتوحة. إنتابتني الحيرة بين عرض السير كل واحدة على حدة مما قد يجعلها مملة وغير ذات فائدة، أو تقديمها بحسب تيمات وترتيبها بعد تجميع المعلومات المتجانسة مما قد يضيّع ملامح الاشخاص لكنه يبرز الصفات المشتركة لتجربة من هم في السجن. فكرت من أجل التخفيف من أثر خياري الذي قمت به أن ألجأ بالإضافة إلى إعادة قراءة الحالات بحسب تيمات، أن الجأ إلى اختيار بعض الحالات ذات الخاصية التي تجمع تيمات متعددة وأن أقوم بعرضها؛ لكنني

وجدت أن ذلك قد يوقع ايضاً في التكرار وبـ déjà vue. لذلك اكتفيت بما قمت به وحرصت على أن أشير إلى الحالات بأرقام. وهكذا باستطاعة من يريد إعادة تكوين سيرة متابعة لسجين معين أن يقوم بتتبعها بحسب رقمها وسوف يتوصل إلى نوع من إعادة تكوين الحالة.

تجدر الاشارة هنا إلى أننا بعد قيامنا بالعمل وبفرز السير والحالات وعرضها لا بد من أن يبقى معنا كمية لا بأس بها من المعلومات التي لم نجد من المناسب للسياق العام الذي تطور عبره العرض أن نقدمها. أي أن هناك دائماً كمية من المعلومات المترسبة التي لم يتم استخدامها. وسوف أعطي مثلاً على ذلك عبر المقابلة رقم ٩ أو السجين السيد «ط»، الذي أفاض في عرض تجربته التعيسة مع الطبابة والأطباء والتي يمكن أن تشكل المعلومات التي سردها لي مدخلاً ممتازاً لنقاش محور حول الطب والطبابة في لبنان، ولكن ليس من المناسب بالطبع الاستطراد خارج هم البحث مهما كانت المعلومات مهمة ومفيدة. لذا علينا دائماً إهمال بعض المعلومات.

منهجية التحليل الاحصائي:

تم على هذا المستوى اعتماد برنامج (SPSS 7.5) لمعالجة البيانات الإحصائية وتم تقسيمها إلى قسمين، الأول يتعلق بخلفية السجين ووصف لأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية ومستوى التعليم له ولأسرته. أما القسم الثاني فيتمحور حول إيجاد علاقات إحصائية بين العوامل المؤثرة عند السجين.

بعض المراجع الأساسية التي استخدمت وكيفية استخدامها:

يصعب كثيراً حصر المراجع الأساسية والمهمة التي تداخلت لإنضاج عمل ما. كما يصعب أحياناً تحديد المعرفة أو الحساسية التي حملها لنا مؤلف معين. وذلك لكثرة ما نقرأ ولتداخل الافكار بين الكتّاب من جهة، ولتعلق الأمر في ما نبحث عنه نحن أنفسنا من جهة أخرى.

وذلك تبعاً لتصوراتنا الذهنية في كل الاحوال. مع ذلك سوف أحاول الاشارة إلى أهم المراجع التي أعتقد أنها ساعدتني في بلورة رؤيتي للموضوع، والتي لا بد أنها تظل خاضعة للتحول وللتغير.

أكثر من أثّر بي فوكو في كتابه *Surveiller et Punir*، بحيث أعتقد أن هذا الكتاب كان من المراجع الأساسية التي وجّهت رؤيتي للموضوع. وكان فوكو قد أثّر بي أول الأمر عبر كتابه «تاريخ الجنون» اثناء تحضيري لعملي الأول عن الإعاقة العقلية. تجدر الإشارة هنا إلى وجود تداخل بين هذين الموضوعين عند كل من غوفمان وبازاغليا أيضاً. وهذا ما أسهم في توجيه رؤيتي الشخصية إلى الموضوع.

ما حمله مؤلّف فوكو عن السجن، جعلني ألتفت إلى التغير الذي طرأ على وظيفة العقاب، واستبدال الموقف من التعذيب الجسدي وبروز الحساسية الجديدة ضد العنف وإرادة جعل العدالة منزّهة عن العنف؛ وارتباط ذلك كله بتغير النظرة إلى الجسد وإلى النفس. ومن هنا بروز السجن كعقاب بديل عن التعذيب الجسدي الذي كان شائعاً من قبل، وبروز مشاريع الإصلاح مع بروز مؤسسة السجن.

لكن عند قراءتي لنيتشه في كتابه *La généalogie de la morale*، وهي قراءة أتت بعد قراءتي لفوكو زمنياً، وجدت أن أصل أفكار فوكو عند نيتشه. يتوضح ذلك من خلال الاهتمام الكبير الذي يبديه نيتشه في البحث عن المعنى الجوهري لمعاني الكلمات والمفاهيم وتتبعه لتغيرها عبر أمثلة تاريخية حيث كان العقاب والتعذيب من المحاور الرئيسية فيها. فهو تتبع حس العدالة واكتشف جدته وجدة بروز فكرة الخجل من القسوة؛ مرجعاً ذلك إلى الاختلاف بين العالم القديم والعالم الحديث. إذن استفدت من نيتشه ومن فوكو بشكل متكامل؛ فنيتشه يرى أن كل شيء يعاد تأويله ويعاد استخدامه بطريقة جديدة. وهذا ما ارتكز عليه عمل فوكو الاساسي.

استفدت كثيراً، وأستفيد دائماً، من عمل فيليب آريس المؤرخ النفس-إجتماعي بشكل ممتاز ومن أكثر المهتمين بالتأريخ للحياة الخاصة. وهو من أوائل المؤرخين الذين اهتموا بتتبع التغيرات النفسية انطلاقاً من التغيرات الاجتماعية عبر التاريخ. واستفدت من عمله عن الطفولة من قبل، والآن أستفيد من المؤلف الضخم الذي أشرف عليه بالاشتراك مع جورج دوبي وهو «تاريخ الحياة الخاصة». ويشكل هذا العمل مع مؤلف Van Ussel حول «تاريخ القمع الجنسي» الخلفية التي تساعدني في تتبع تحول السياقات النفسية الداخلية عند الإنسان المعاصر. هذا بالإضافة إلى المؤرخ جاك لوغوف من مدرسة الحوليات التي ينتمي إليها جورج دوبي أيضاً.

أما عن غوفمان فهو يعدّ من أهمّ من اشتغل على دور المؤسسات العقابية ووظيفتها مثل المستشفى العقلي والسجن أيضاً. ولقد استفدت كثيراً من معالجته للموضوع في كتابيه *Stigmates* و*Asiles* ومن وصفه الدقيق للعلاقات داخل هذه المؤسسات. كما اطلعت بامتاع على كتاب *Les Criminels de paix* (الذي لفت نظري إليه الصديق المرحوم رالف رزق الله) وقد جمع بين دفتيه كلاً من غوفمان وفوكو وبازاغليا في أجمل مقالات لهم. مقالات مكثفة وشديدة الأهمية حول موضوعتي السجناء والمرضى العقليين. تميز عمل غوفمان هنا في وصف الأدوار والوضعية وأثرهما على السلوك الإنساني.

أما في ما يتعلق ببازاغليا فهو من أوائل الذين وضعوا المؤسسات العقابية موضع التساؤل منذ نهاية الستينات وكان عمله المهم الذي اطلعت عليه باكراً جداً *L'institution en négation* قد وضع المستشفى العقلي موضع تساؤل منذ ذلك الحين.

ساعدني مؤلف دوركهايم *Les règles de la méthode sociologique* في وعي وبلورة مفهوم «الشيء الاجتماعي» وكون الظواهر الاجتماعية تحصل خارج الأفراد. ساعدني خاصة في تحديده لدور العقاب في معرفة الجريمة أو تعريفها وفي نسبية السواء الاجتماعي. أما بالنسبة لموضوعة نسبية السواء واللاسواء، فكان كانغيلام أول من جعلني ألتفت إلى هذه المسألة وهو على كل حال من أهم (إذا لم نقل من أوائل) من بلور هذه المسألة عبر مؤلفه الذي لا يزال يعتبر من أهم المراجع في هذه المسألة: *Le normal et le pathologique*. أما كتاب بيزيت بعنوان *Sociologie du crime* فلقد ساعدني في بلورة أسئلة الاستمارة لتحديد الوضعية الاجتماعية للسجين.

كما ساعدتني قراءتي لكتاب بورديو *La misère du monde* على ان أسمح لنفسي بنقل احاديث السجناء واعترافاتهم ومعاناتهم بعفويتها، وان يتدرج ذلك في باب «العلمي».

هذه أهم المراجع التي ساعدتني في الاحاطة بموضوعي. لكن لا بد أنني أغفلت الكثير من المراجع التي استخدمتها ضمنياً، إذ يصعب ذكر كل شيء هنا أو تذكره. وعلى كل حال تكمل لائحة المراجع في نهاية الكتاب بعض ما أغفلت ذكره هنا.

إحتواء القسوة

في تطور أشكال العقاب
من التعذيب إلى السجن

هذا الفصل هو نوع من تتبع سريع لتطور أشكال العقاب. لذا لا يهدف سوى إلى إظهار تغير هذه الممارسة والانتقال بها من العقاب الجسدي إلى العقاب الذي يطال نفس المذنب أو روحه؛ وذلك عبر حرمانه من ملكية تعتبر جوهرية وبديهية في حقبتنا هذه وهي الحرية. يشير ذلك إلى أن العقاب هدف دائماً إلى حرمان المعاقَب من ملكية تعتبر جوهرية وبديهية خاصة في اللحظة التاريخية المأخوذة بعين الاعتبار.

لا علاقة هنا لما هو أفضل أو أسوأ، لكن فقط تبيان أن لكل زمن تفضيلاته ومخاطره المختلفة، وهذه كلها تعاني من لامساواة ما، ومن مفارقات يوجبها التطبيق بحد ذاته. وأن هذه الاشكال تعبر عن أذواق الافراد وميولهم في زمن معين.

العقاب الجسدي أم السجن

في مقابلاتي مع السجناء، سألتهم هل يفضلون العقاب الجسدي كبديل عن السجن؟ فوجئت بالعديد منهم يجيبون بتفضيلهم هذا العقاب الجسدي على السجن.

حاولت فهم سبب هذا التفضيل الآن، ووجدت صعوبة في ذلك: هل يعود تفضيلهم للعقاب الجسدي إلى ظروف السجن السيئة؟ هل يفضلونه لأنه عقاب متخيل ليس أكثر أو هو غير واقعي في لبنان وبالتالي يسمح لهم بإمكانية تفلت وهمية لعقاب ممارس واقعياً؟ أم أن الأمر عبارة عن تعبير (كما في بعض الحالات الملتزمة إسلامياً) عن الالتزام الحرفي بمرجعية دينية وثقافية، ولو أنهم يفضلون السجن بينهم وبين أنفسهم؟ وهو ما اتضح لي بعد الاستفسار الملح. أحياناً عنى ذلك التزاماً ضمنياً أو غير واع لهذا

النموذج أو المثال الذي يعين القصاص الجسدي كجزاء على خرق القوانين الاجتماعية ـ الدينية. لذا لا بد من موضعة السجن في التاريخ.

عُرفت هذه المؤسسة في العالم العربي الاسلامي وكانت مألوفة، وورد ذكرها في القرآن، بحسب روزنثال[١]، وكان السجن يعرف بالحبس الذي عنى في البداية الحجز فقط ومن هنا استخدام تعبير ـ مات ابن سينا بالحبس، أي حبيس منزله بسبب المرض[٢]ـ. ويرى روزنثال أن السبب في ذلك يعود إلى البيئة البدوية، حيث تعد عقوبة السجن، عقوبة على من ينفذها أكثر منها عقوبة على من تطبق عليه. لذلك كان على الأغلب يتم توقيف المتهم بارتكاب جريمة ما حتى تثبت براءته أو إدانته. وكان الحجّاج مثلاً يعتبر السجن عقوبة خفيفة الوقع، وكان ينزل عقوبات شديدة الصرامة، تطال الجسد. لذلك كانت سجونه شبه خالية. لكن كل الدلائل تشير إلى أن هذه العقوبة لم تكن أساسية بحسب النظرية القانونية الاسلامية[٣].

كانت العقوبة الجسدية هي السائدة إذن في العالم العربي[٤]، وتحوّل الأمر تدريجياً نحو شيوع مؤسسة السجن، كما في كل أنحاء العالم. فالعقاب الجسدي لم يكن حكراً على الثقافة العربية، اذ يبدأ فوكو كتابه «المراقبة والعقاب»[٥]، بوصف موسع لكيفية تعذيب أحد المحكومين في منتصف القرن الثامن عشر، وعلى امتداد ثلاث صفحات. وهو يعرض في الكتاب نفسه، رسومات تمثل بعض الآلات التي ابتدعت من أجل التعذيب.

لكن يمكن اعتبار سنوات ١٨٣٠-١٨٤٨ سنوات بدء اختفاء التعذيب[٦]. ويعتبر الباحثون عامة أن نهايات القرن الثامن عشر عرفت

---

(١) روزنثال، ف: **مفهوم الحرية في الاسلام**، ترجمة وتقديم زيادة، م. والسيد، ر. معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٧٨، ص٤٣.

(٢) المرجع نفسه: ص ٥٢.

(٣) المرجع نفسه: ص ٤٦-٤٧.

(٤) العوجي، م: **التأهيل الاجتماعي في المؤسسات العقابية**، بحسون للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، ص ٤٣.

(٥) FOUCAULT, M: *Surveiller et punir, Naissance de la prison*, Gallimard, Paris, 1975 - pp. 9-10-11.

(٦) *Ibid:* p. 20

مشاريع الاصلاح المتعلقة بالسجن بشكل متتابع ومتزامن في العديد من الأقطار الأوروبية وأميركا. وذلك مع بروز التيار الانساني، والذي يعتبر كلافال[٧] أنه يولد في اللحظة التي يعتبر فيها العهد القديم كمكان بعيد ومختلف حيث من الممكن اغتراف نماذجه لاختلافه. ذلك يعني ضمناً النظر إلى التجربة المعاشة الآن كمغايرة عن تجارب الحقب السابقة وليست مجرد امتداد لها.

الجديد الذي حملته هذه المشاريع إذن، كان الاشمئزاز من التعذيب، ذلك أن مشهد التنكيل بالمحكوم لم يعد مقبولاً، بعد أن كان يشكل مصدر لذة عظيمة ولقرون طويلة، منذ روما التي كانت تجعل المحكومين أو المجرمين يتصارعون حتى الموت، وقد عالج بول فاين[٨] سبب اختفاء هذا النوع من المشاهد.

وإذا أردنا أن نعرف أسباب هذا التعذيب، الأرجح أننا لن نجد إجابة شافية بحسب رأي نيتشه الذي يكتب: «ان كل تاريخ العقاب الماضي، أي تاريخ استخدامه وغاياته المتنوعة، انتهت بأن حجرته بنوع من الوحدة التي يصعب تحليلها، ومن المستحيل تعريفها، بحيث أنه لا يمكن اليوم القول بثقة لماذا نعاقب؟ أو لماذا يتم العقاب بشكل معين؟ إن تاريخ التعذيب الساحق القدم والمثقل يجعله عصياً على التفسير»... بحيث يستنتج نيتشه ان كل المفاهيم التي تتلخص بشكل له دلالته وعبر سيرورات طويلة تعصى على التعريف، «إذ ليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما ليس له تاريخ»[٩].

إذن منذ منتصف القرن التاسع عشر لم يعد التعذيب أو العقاب الجسدي علامة على وجود العدالة، صار علامة على عنف العدالة نفسها: إنها تقتل وتضرب وتعذب أيضاً. ذلك يعني أن مشهد التعذيب اتسع ولم يعد يقتصر على المحكوم فقط، صار يلف الجلاد والضحية. وصار تنفيذ حكم الاعدام يشكل عاراً إضافياً تخشى العدالة من إظهاره على الملأ[١٠].

---

(٧) CLAVAL, P: *Les Mythes fondateurs des sciences sociales*, PUF, Paris, 1980. p. 26.

(٨) VEYNE, P. *Comment on écrit l'histoire*, Seuil, Paris, 1978, pp. 204-205.

(٩) NIETZSCHE: *La génealogie de la morale*, Gallimard, Paris, 1971, pp. 88-89-66.

(١٠) FOUCAULT, M: *Ibidem*, pp. 14-16.

من هنا نلاحظ في لبنان التباس الموقف امام تنفيذ حكم الاعدام، فهو يتم بما يشبه الخجل وفي أوقات تجعل من تجمع حشود من الناس امراً صعباً (الرابعة صباحاً)، مع ذلك هناك من يتكبد مشقة الحضور للتلذذ بالمشهد حسب شهود عيان.

بحسب نيتشه إن شعور العدالة أو تطلب تحقيقها، شكل متأخر ولبق من الحكم والتفكير الانسانيين. تاريخياً لم يتم التعذيب أو العقاب لأن المذنب مسؤول عن فعله؛ كان العقاب يحصل بسبب الغضب الذي سببته الخسارة، ومن أجل الحصول على تعويض بواسطة الألم المفروض على فاعله. كما أنه يرجع هذه العلاقة إلى الأشكال الجوهرية للبيع والشراء للتبادل والتجارة، إذ إن المفهوم الجوهري للخطأ schuld على صعيد الأخلاق يعود برأيه إلى مفهوم دين Schulden المادي جداً(١١).

إذ للحصول على الثقة لاجراء عملية الدّين، يجب إعطاء ضمان جدي له طابع الوعد المقدس، لذلك يحق للدائن استيفاء مقابل الدّين الذي لم يسدد، عبر أي شيء يملكه المَدين: زوجته، حريته أوحياته.

يمكن للدائن هكذا أن يفرض علي جسد المدين أي نوع من أنواع التحقير أوالتعذيب، كأن يقتطع جزءاً من جسده يبدو وكأنه يعادل حجم الدّين. فلكل شيء ثمنه ومن لا يملك الثمن يدفعه من جسمه. التعويض هنا يتمثل بالحق بالقسوة، الايذاء من أجل اللذة المتحصلة عنه. حينها لم تكن القسوة تخجل البشر، بينما يعدّ العذاب اليوم ذريعة ضد الوجود نفسه.

لقد بذل الانسان جهداً هائلاً على الأرض كي ينتقل من أنظمته الجزائية القديمة التي كانت قائمة على التعذيب والايذاء الجسديين، إلى السجن أو حجز الحرية بما يعنيه من عقاب للروح أو للنفس، ويصبح موضوعها ليس التعذيب لكن فقدان حق أو ملكية.

إنتهت مشاهد العنف التي شكلت الذاكرة الانسانية، والتي طالما التجأت إلى السيطرة على الغرائز الشعبوية من خلال القسوة والغلظة. إنتهت إلى جعل الانسان يحتفظ في ذاكرته بخمس أو ست «لا أريد»، أعطى الانسان بفضلها وعده بالاستفادة من محاسن المجتمع، وانتهى الأمر بأن استرد «العقل»، بفضل هذه الذاكرة وسيطر جدياً على شغفه وغرائزه وغلظته(١٢).

---

(١١) NIETZSCHE: *Ibidem*, pp.: 67-69.

(١٢) *Ibid.* p. 65.

وهكذا صار الحكم وحده من الآن وصاعداً، يشكل الدلالة على الجنحة، من هنا الاهتمام المتصاعد بالتلاوات التي تسبق الحكم والاهتمام بالحكم نفسه، وليس بالعقاب الجسدي الناتج عنهما والتلذذ بممارسته(١٣).

يعبر ذلك كله عن حساسية جديدة تبرز ضد امتهان الجسد الانساني، صار القصد أن تنال النفس العقاب، لذلك لم يعد عقاب الجسد مقبولاً، بل يكفي حرمان الشخص من حريته، المعتبرة حديثاً كحق وكملكية خاصة في الوقت نفسه.

يكتب فوكو أن بداهة السجن هذه والتي نفكها بصعوبة، تتأسس على شكل حرمان بسيط من الحرية. كيف لا يصبح السجن الجزاء بامتياز في مجتمع تشكل فيه الحرية ملكية تخص الجميع بالطريقة ذاتها، والتي يتعلق بها كل واحد بشعور كوني ثابت؟ إن فقدانها يعني الثمن ذاته للجميع(١٤).

يرجع «هوشمان» ذلك إلى تعريف المجتمع الحديث نفسه، إذ إن قيمه متمحورة حول النجاح الفردي الخصوصية (privé) والحميمية (intimité)، لذلك يصبح العام (publique) ونظرة الآخر، هما «الشر»(١٥).

من هنا النظرة التحقيرية لكل الأمكنة العامة: السوق العمومي، الفتاة العمومية، وحتى المدرسة العامة تحمل النظرة التحقيرية نفسها. ربما يرمز الجانح أو المذنب هنا، على الأقل في جزء من المسألة، إلى هذا العالم العام، فليست الجنحة غير المكتشفة جنحة. الفضيحة لا تحصل إلا عندما يتحول الفعل إلى فعل عام غير سري: العقاب هو في جزء منه التعرض إلى نظرة الآخر الذي يراقب أخص خصوصيات المعاقَب (هنا السجين)، يحصيها ويعدها ويقننها. يتحول المكان هكذا إلى مساحة مقطعة، ثابتة، جامدة، حيث كل واحد في مكانه، إذا تحرك تعلق الأمر بتنظيم وجوده، من أجل ضبطه.

السجن هو المكان الذي تجهد فيه أواليات السلطة لتأطير الأفراد، مكان للاءمة وتنقية الأجهزة التي تأخذ على عاتقها وتضع تحت المراقبة: سلوك

---

(١٣) من هنا استغلال بعض أقنية التلفزيون الاميركية لهذا الاهتمام وتخصيصها قناة خاصة لنقل المحاكمات.

(١٤) HOCMANN, J: *Pour une psychiatrie communautaire*, Seuil, Paris, 1971, p. 235.

(١٥) DURKHEIM, E :*Les règles de la méthode sociologique*, PUF, Paris, 1956, p. 84.

الافراد اليومي، هويتهم، نشاطهم، حركتهم. تسييج جزائي متشدد للجسد الاجتماعي للسجين.

من هنا لم يعد القاضي ليقبل أن يحصر دوره بالحكم بالعقاب على المحكوم، بل هو يبحث عن الاصلاح وإعادة التربية والشفاء.

هذا ما حدد وأطّر السجن بوظيفته التي عرفت له منذ ما يقرب المائتي عام؛ أي حجز حرية الشخص من أجل إصلاحه. لكن فكرة أن السجن للاصلاح أيضاً وليس للعقاب فقط، قديمة وعرفت منذ أفلاطون، لكنها لم تطبق (نظرياً على كل حال) إلا في الحقبة الراهنة.

بعد ممارسة السجن لمهامه بشكله الراهن، لم يُثبت جدارته بالقيام بمهمة الاصلاح، الأمر الذي تجمع عليه العديد من الدراسات.

وظيفة السجن

كان اميل دوركهايم من أوائل الذين أشاروا إلى أن العقاب لا يُصلح المذنب أو مقلديه المحتملين، فهو يرى أن وظيفة السجن من هذه الزاوية مشكوك فيها أو على الأقل ضئيلة، إن الوظيفة الحقيقية للسجن هي في الحفاظ على التلاحم الاجتماعي تاماً، وللحفاظ على حيوية الضمير العام. هذا الضمير الذي عليه أن يؤكد نفسه كي يعبر عن نفور بالاجماع، من الجريمة التي تواصل على الايحاء به (أي النفور). ولا يتم ذلك إلا عبر الألم الذي يخضع له الفاعل.

يستنتج دوركهايم[١٦] أن هدف العقاب التأثير على الناس الشرفاء لأنه يخدم في شفاء الجراحات التي طالت المشاعر الجماعية، وهو لا يملأ هذا الدور الا حيث توجد هذه المشاعر وحيث تكون حيوية. الجديد الذي أثاره دوركهايم، أن الجريمة تتحدد من خلال رد الفعل الاجتماعي «أي أننا نطلق اسم جريمة على كل فعل معاقب». أي أن الفعل نفسه عندما لا يكون معاقباً لا يعود جريمة. تكون هكذا العقوبة الاجتماعية هي التي تحدد الجريمة وليس الفعل الاجتماعي بحد ذاته. لذلك يرى دوركهايم أنه لا يمكننا القول إن الفعل يؤذي الضمير العام لأنه إجرامي، بل هو إجرامي

---

(١٦) DURKHEIM, E : *De la division du travail social*, Alcan, 1902, p. 52.

لأنه يؤذي الضمير العام. بمعنى آخر الضمير العام هو الذي يحدد جرمية الفعل ولا وجود إذن لفعل إجرامي بالمطلق. وبالتالي لا يُشجب الفعل لأنه جريمة ولكنه جريمة لأنه يشجب(١٧).

وهكذا لاحظ دوركهايم أن العقاب يخف كلما تم المرور من مجتمعات دنيا إلى مجتمعات أكثر تعقيداً. وكان سبق لنيتشه أن أورد ملاحظة شبيهة، فهو وجد أن تعاظم قدرة الجماعة يخفف من أهمية جنح أعضائها، وكلما تم وعي هذه القدرة كلما صار القانون الجزائي أكثر لطفاً. وبحسبه أيضاً، كلما صار الدائن أغنى كلما أصبح أكثر رحمة (ما دام أنه يرجع الأمر إلى مسألة الدين أصلاً). لكن ذلك لا يعني أن الأفعال المعاقبة تنحو إلى التضاؤل والاضمحلال، بل على العكس، من الملاحظ أن لائحة الافعال الموصوفة كجرمية تتطاول. وأن أنظمة جزائية قمعية جديدة تتبلور مع كونها أقل عنفاً وقسوة.

السجن مؤسسة توتاليتارية

السجن مؤسسة، والمؤسسة بحسب غوفمان(١٨) تستولي على جزء من وقت واهتمامات من ينتمون إليها وتعطيهم نوعاً من العالم الخاص الذي يغلفهم. لكن عندما تضع المؤسسة حواجز للتبادل الاجتماعي مع الخارج، كذلك للخروج وللدخول، وحواجز مادية: مثل الأبواب والأقفال والجدران العالية والأسلاك الشائكة؛ تكون عندها مؤسسة توتاليتارية.

السجن إذن مؤسسة عقابية توتاليتارية، وهومخصص لحماية الطائفة بمعنى الجماعة (communauté) من تهديدات معتبرة كقصدية (من قبل المحجوزين طبعاً)، دون أن تكون مصلحة الاشخاص المحجوزين هي الهدف الأول المأخوذ بعين الاعتبار(١٩). إنه المكان حيث هناك مجموعة من الأشخاص مشرّطة من قبل أشخاص آخرين، لا يملكون أدنى إمكانية في اختيار نمط حياتهم(٢٠).

---

(١٧) GOFFMAN, E: *Asiles*, Ed. de Minuit, Paris, 1968, p. 45.

(١٨) *Ibid*: p. 46.

(١٩) *Ibid*: pp. 47-48.

(٢٠) *Ibid*: p. 51.

الانتماء إلى مؤسسة توتاليتارية يعني البقاء تحت رحمة الضبط والحكم التقويمي للآخرين ومشاريعهم، دون أن يستطيع المعنيّ التدخل لتغيير سير المؤسسة ومعناها. إن كل مجموعة من هاتين المجموعتين تميل إلى اعتبار الأخرى بتعابير منمّطة وضيقة ومعادية. الجهاز الوظيفي يرى في المحجورين أفراداً يعانون من المرارة، كتومين وغير جديرين بالثقة؛ بينما ينظر هؤلاء الى الموظفين كأفراد خبثاء وذوي قدرة ومتعجرفين. يميل الموظفون إلى الشعور بأنهم متفوقون والمحجورون بأنهم أدنى مرتبة، ضعاف ومذنبون وقابلون للوم. تتسم الحركة الاجتماعية بين الفريقين بأنها من الأكثر تحديداً وضيقاً والمسافة الاجتماعية غالباً ما تكون محددة سلفاً، حتى الحوار من جهة لأخرى يتوجب القيام به بنبرة صوت خاصة، إذ إن إحدى وظائف الحراسة «ضبط الاتصال».

عالمان مختلفان ثقافياً واجتماعياً، ينمو وأحدهما إلى جنب الآخر، مع احتكاك رسمي، لكن مع القليل فقط من التأويل. يتميز المحجور عليهم بالعيش في الداخل والقيام باحتكاك محدود مع العالم الموجود خارج الأسوار. أما الموظفون الذين يعملون ثماني ساعات يومياً، فهم مندمجون مع العالم الخارجي اجتماعياً. وعندما يضطرون للعيش في الداخل يشعرون بسوء وضعيتهم، ومن يبقى منهم في هذه الوظيفة لأعوام متلاحقة يشعر بأنه سيئ الحظ أو مفتقر إلى الدعم.

يتطلب هذا منهم إذاً اندماجاً مع العالم الخارجي المتجانس والذي يشكل وحدة تامة «صالحة» ومتمايزة عمن هم في الداخل، والذين يشكلون كسراً لقواعد السلوك والأعراف والأخلاق.

يطلق غوفمان على هذه العلاقة، علاقة «نحن» و«هم» التي تعني قيام حاجز غير قابل للتخطي بين الفريقين. وهكذا مع أن المسؤولة في سجن النساء عبرت عن أسفها للوصمة التي تتعرض لها السجينات حتى ولو تبينت براءة واحدتهن فيما بعد، ولكن عندما سألتها هل توافق على أن يتزوج أحد أقربائها من سجينة سابقة تبينت براءتها، أجابت بالنفي.

إن العلاقة هذه نحن / هم، هي شكل كاريكاتوري للعلاقة أنا/ أنت. ولا شك أنها علاقة مثلثة يتداخل فيها نحن /هم/ المؤسسة، لكنها علاقة ترغب بنفسها أن تكون جامدة. فالسجن يحمل كسراً جوهرياً بين مجموعة كبيرة محكومة هي المحجورون وبين مجموعة صغيرة تحكمهم،

والمطلوب من هذه الأخيرة حفظ المجرم في جرمه للحفاظ على الاختلاف. في أمكنة الحجر يجب أن يتم التبادل دون إحداث تغيير(٢١).

إن أهم مبادئ المؤسسة إذن، هي الحراسة مع تحديد الاتصال إلى حده الادنى، واختزاله إلى تبادل مؤشر وغير فردي ما أمكن. يمكن القول إذن ان ميكانيكية المؤسسة الجوهرية تكمن في سحق الرغبة الفردية، فيوم السجين مخطط له بالكامل من قبل الآخرين، وجميع حاجاته مأخوذة على عاتق المؤسسة والمسؤولين عنها. لا وجود في السجن لمحرك أو دافع خاصين، تتوالى الأيام متشابهة، رتيبة، مملة وكثيراً ما تجد السجناء نائمين نهاراً. ويتم في السجن أيضاً استئصال للأنا لمصلحة الـ «نحن» والـ «هم» المبهمتين، بحيث لا يعود هناك إدراك للذات أو للوقت ويتم افتقاد معنى الشخصية والملكية، بحيث لا يعود لها علاقة بما هو عليه الحال خارج السجن.

هناك إذن تعارض جوهري بين بنية المجتمع الخارجي، القائم على العمل وعلى العلاقة مع الأسرة وبين بنية السجن الذي يفتقد إلى هذه العلاقات بشكل جوهري. أو أن السجن هو إفقاد السجين لهذه العلاقات بالذات.

من يُعاقَب ولماذا؟

السجن هو المؤسسة العقابية لمن يعتدي على المعايير الاجتماعية، وظيفته إذن حماية المعيار، وجعل المخالف موضوعاً بحثياً (في أحسن الأحوال وفي أحسن البلدان) للعلماء الذين توصلوا في الكثير من الأحيان إلى عوامل بيولوجية كأصل للسلوك اللاسوي. وهذا المنحى الذي بدأ به عالم الجريمة الايطالي لامبروزو، يعرف الآن دفعاً جديداً غير منتظر مع اكتشاف العيوب الكروموزومية والجينية عند بعض الجانحين. وهذا ما يحصل أيضاً مع الامراض النفسية، بما فيها الفصام.

يقرب هذا مفهوم الجنحة من مفهوم المرض العقلي مرة أخرى، وتقترب هكذا وظيفة السجن من وظيفة المستشفى، وهذا ما يقوم به غوفمان في كتابه السابق الذكر، فالسجون في الغرب لم تفعل أكثر من

(٢١) BASGLIA, F: *Les Criminels de Paix*, PUF, 1980, pp. 11-16.

أن تكون مرساة ثقيلة[٢٢] لسفينة المجانين التائهة التي عرفتها القرون الوسطى والتي كانت تأخذ بعيداً حملها اللاسوي واللامرغوب[٢٣].

جزر للنبذ، حيث الجنح على أنواعها تجد أمكنتها: الجنحة المريضة [مذنب - مسؤولية = مريض عقلي] والجنحة الصحية [مذنب + مسؤولية = جانح][٢٤]. ولقد أظهر فوكو في كتابه عن الجنون تجاور المجانين والمثليين الجنسين والكحوليين والسارقين واللاأسوياء والمومسات وتقاسمهم للأمكنة نفسها في العصر الكلاسيكي.

يضعهم هذا في فئة واحدة، فئة «اللاإجتماعي»، ويتم استخدام هذا التعبير هنا بمعنى وصفي فقط، أي ككائن غير مندمج اجتماعياً. لكن هذا الأمر مرتبط بالسجل الاجتماعي، وله أحياناً طابع قضائي مصطنع، إذ يتحول هكذا المتسكع إلى جانح عندما يزداد قمع التسكع لأسباب سياحية مثلاً.

كما تم البرهان على وجود علاقة إرتباط عكسية أكيدة بين أعداد المرضى العقليين وبين الجانحين، مما يعني تحول الافراد من فئة إلى أخرى، بحسب تغير الحقبة. ففي الحروب تقل أعداد المرضى العقليين بشكل كبير، وتزداد نسبة الدعارة مع ازدياد أعداد المهاجرين ومع الأزمات الاقتصادية والاجتماعية[٢٥].

يستتبع ذلك أن من المحاذير المتعلقة بدراسة الجريمة، صعوبة تأطير ميدان علم الجريمة وحدوده.

لم تعد كافية معرفة أسباب الجريمة، السمة التي غلبت على دراسات القرن التاسع عشر، أو دراسة العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومعرفة أثرها مجتمعة على الجناح. فالجريمة نفسها تعتبر الآن كأحد ثلاثة ميادين تشمل الظاهرة الجرمية عامة. اذ يعرف كل مجتمع إنساني ثلاث مراحل أو أطوار زمنية لنفس الأوالية التي قد تكون مرتبطة ببنية المجموعات الانسانية نفسها[٢٦]:

---

(٢٢) FOUCAULT, M : *Histoire de la folie à l'âge classique*, Gallimard, Paris, 1972.

(٢٣) BASAGLIA , F: *Ibid*, p. 86 .

(٢٤) PEQUIGNOT ,F: *Encyclopædia Universalis*, pp. 919,-921.

(٢٥) LEAUTE , E: *Ibid*, pp. 696-706 .

(٢٦) LES CAHIERS DE VAUCRESSON : *La prison autrement*, n° 45-46.

• المرحلة الاولى تشمل وضع القوانين الجزائية (أكانت على شكل تقاليد عرفية أو كانت مكتوبة)، والمتغيرة بحسب درجة تطور الحضارة المأخوذة بعين الاعتبار. فكل جماعة إنسانية تنص معايير السلوك المفروضة التي تلائمها، تحت طائلة العقوبة الجزائية لمخالفيها.

• لا تعود الجريمة من هذا المنظور سوى الطور الثاني لسيرورة اجتماعية عالمية. إن السبب الأساسي لهذا الطور هو تشريع القوانين دون شك، والذي يؤدي بدوره إلى الاعتداء عليها في كل مكان ومن قبل جزء من المجموعة الانسانية متمرد على تأحيد القاعدة العامة المفروضة من قبل أغلبية الأعضاء أو من قبل زعيمها. يطلق هذا الزمن الثاني مرحلة الزمن الثالث.

• وهو رد الفعل الاجتماعي، الذي تطور من العقاب الجسدي إلى السجن عبر النطق بالحكم وتطبيقه بأشكال إدارية. وهو لا يزال خاضعاً للتطور على كل حال، لمرحلة لم تتبلور بعد وتظهر بداياتها في السويد حيث تطرح فكرة «السجن البديل»(٢٧).

إن تداخل هذه الأزمنة الثلاثة للظاهرة هو السبب في توسع علم الجريمة، اذ لو لم توجد معايير سلوك قابلة للانتهاك لما كان هناك مخالف. كذلك لن يكون لرد الفعل الاجتماعي من وجود دون جنحة وجانحين. إن التداخل حميم لدرجة أن ظاهرة الجرمية تتسارع مع تسارع درجة نمو المجتمع.

السجن هو أحد الأشكال الأساسية لرد الفعل الاجتماعي وهو يسبب العدوى بين الأشقياء في داخله، ويقدم مناسبة لتشكل جناح أكثر مهنية ويثير مشكلة العودة مجدداً إليه. وهذا يؤدي بدوره إلى إيجاد أسباب جديدة للجريمة. بالمقابل يؤدي القلق المتصاعد على المستوى الاجتماعي إلى مضاعفة القوانين الجزائية، وهذه بدورها تزيد من مناسبات خرقها، وهكذا ...

مفارقات السجن ووظيفته

وظيفة السجن نظرياً هي إعادة التأهيل والاصلاح. لكنه عملياً لم يكن يوماً كذلك (وفي أرقى البلدان فكيف في الفقيرة منها!).

---

(٢٧) PEQUINOT, F: op. cit.

تجمع الدراسات والأبحاث حول السجن أنه يخرّج من الجانحين أكثر مما يستقبل، يعني أن من يدخل السجن يصبح موسوماً ويتعرض فيه لممارسة الضبط والعقاب. على السجين أن يكفر عن ذنبه لأنه مذنب، لكن ذلك يتم عبر تجاهل الطبيعة الانسانية للسجناء، بحيث يتم الاعتراف النظري والمجرد بكرامتهم الانسانية، لكن عملياً لا يعود الجانح في السجن بشراً، يفقد هناك حقوقه وحاجاته الانسانية، يفتقد عندها للحنان وللعاطفة وللاختلاط وللحسية (إلا مواربة وشذوذاً). لا يعود الكائن بشراً من لحم ودم، إذ يصبح رقماً ينتمي إلى مجموعة أخرى من الأرقام ويعرفون بحسب انتمائهم إلى زنزانة (أو قاووش). وإذ يأتي السجين إلى سجنه حاملاً معه ثقافته الخاصة أو «الجاهزة» التي اكتسبها من محيطه الأسري، أي من نمط حياته.ومن مجموع النشاطات المعتبرة كذات قيمة حتى لحظة دخوله السجن، مشكِّلة جزءاً من تنظيم شخصيته النفسي والمتوافق مع محيطه الاجتماعي ومبررة التمثل المقبول الذي يكوّنه الفرد عن نفسه، سامحاً له بمجابهة النزاعات والاعتداءات والفشل، بواسطة عدد من الدفاعات المتروك له أمر انتقائها.

يتعرض الفرد في السجن إلى نوع من سياق محدود من المثاقفة، وإلى بعض التغيرات الثقافية من جراء إلغاء إمكانية تحقيق بعض أنواع السلوك (من مثل المشاركة النشطة مثلاً تجاه العدوان الاسرائيلي على قانا، أو متابعته على التلفزيون على الأقل)، أو جهل التغيرات الحاصلة حديثاً في المحيط الخارجي، مما قد يسبب له صعوبة في التأقلم على الوضعيات المتعلقة بالحياة اليومية، عندما يضطر إلى مواجهتها مجدداً.

يتعرض الواصل حديثاً إلى السجن، إلى اهتزاز تمثّله الخاص لنفسه والذي اكتسبه من بعض الشروط الدائمة التي يضمنها له محيطه. إلى إفقاده الدعم المتوفر من تلك الشروط. فمنذ وصوله يفقد تدريجياً اليقينيات التي كان يغذيها تجاه نفسه، ويجد نفسه محروماً من أدواره التي كان يعرفها في العالم الخارجي، ويختزل وجوده إلى دور وحيد: أن يكون سجيناً. ومع أن السجين قد يستعيد بعد عودته إلى الحياة العادية بعضاً من أدواره التي فقدها بدخوله إلى السجن، إلا أن بعض الخسارات قد تكون دائمة ومؤلمة من جراء ذلك، إن على الصعيد الأسري (طلاق، انفصال، موت، الخ)، أم على صعيد الوظيفة أو العمل. وأشير هنا إلى

ما يسمى بالموت المدني، أي فقدان الحقوق في إعطاء الشيكات مثلاً أو الاهتمام بالثروة أو توريثها أو القيام بالانتخاب. وفي لبنان يطلب من كل طالب وظيفة رسمية إبراز نسخة جديدة ونظيفة من السجل العدلي، ما يعني منع السجين عن العمل في المجال الحكومي، والأمر ليس بأفضل كثيراً في المجال الخاص. كما أن السجين يخضع دوماً في السجن إلى امتحان خضوع وطاعة وأحياناً إلى امتحان قوة لكسر إرادته (الطلب منه في أن يقف وأن يتكلم بطريقة معينة، أو يرفض إعطاءه الاذن بالتدخين مثلاً). ومنذ أن يدخل السجين السجن ينتزع منه كل ما يساعده في المحافظة على سمات شخصيته: ملابسه، أدوات زينته أو أي مستحضرات تخصه، بحيث ينظر إلى نفسه من تلك اللحظة وصاعداً كشخص منتقص القيمة وخاضع لنوع من التشوه. في السجن يصبح للقلم الرصاص، للدفتر أو الولاعة أو أي شيء مشابه قيمة كبيرة، إذ تكتسب الملكية بعداً مبالغاً فيه.

تكمن المفارقة هنا في أن هذا العقاب اللاإنساني بالذات، عليه أن يعيد إليه إنسانيته المشكوك بأمرها لقيامه بما يخالف المعايير الاجتماعية. أي أنه يمارس عليه كل ما هو مطلوب منه تغييره في نفسه وفي ذاته.

المفارقة الأخرى، هي أن الوصم بالجناح يتسبب في جعل من يظهر الميل لسلوك جانح وغير سوي محطاً للأنظار، ويتطلب منه عندها حياة مثالية وكاملة، لأن من يوسم مرة يصبح مختلفاً وقابلاً للتعرف اليه بسهولة في كل مرة. نعرفه مباشرة ونحرص على اختلافنا عنه. وهو عادة ما يكون الأضعف والأكثر هشاشة. وضعيته عارضة، وليس لديه القوة الاقتصادية والاجتماعية أو الثقافية التي تساعده على مداراة جناحه. إنه من أولئك الذين لا دور إيجابي لهم يلعبونه، والذين لا يمتلكون دائرة خاصة لعيش جناحهم على حدة وبمأمن. إنهم الذين يتعرضون للجزاء وللعقوبة الأكثر صرامة. معظم هؤلاء من الطبقة الفقيرة والهامشية، وفي أحيان قليلة من الفئات الاجتماعية العليا، الذين نجد أنهم (على أي حال) سرعان ما ينجحون في إيجاد وسيلة تجنبهم العقاب أو تقلل من آثاره السيئة المحتملة.

المحذور الآخر، إن من يدخلون السجن لا يشكلون على الأرجح سوى جزء ضئيل فقط من الجزء الأكبر الباقي في الظل، والمكوّن من

الجانحين الذين «يجرون طليقين». إن دائرة المجرمين المحجوزين تختلف ولا شك عن أولئك الأكثر مهارة أو الأكثر ذكاء الذين استطاعوا التهرب من ملاحقة البوليس. إن أكثر من نصف المخالفين يظلون خارج الملاحقة. يكتب Pequignot: «إن كنا نصادف في السجن هذا القدر من المتخلفين والشاذين والمجانين، وهذا الكم من المنتمين إلى الطبقات الفقيرة ومن اللامتعلمين والمهنيين غير المهرة، فذلك لأن الآخرين يعرفون تجنب المزالق والتغلب على الصعوبات، ولذلك نادراً ما تسنح الفرصة لاجراء أبحاث معمقة عنهم.

لا يزال السجن من أكثر المؤسسات إثارة للجدل، ولا تزال الظروف المعيشية التي يخضع البشر لها فيه محطة لكينونتهم الانسانية»[٢٨]. من هنا إبعاد هذه المؤسسة من قبل القائمين بها عن الاعلام قدر الامكان، والاحتفاظ بها خلف جدار من الصمت.

من هنا أيضاً التساؤل الدائم حول وظيفة السجن: هل هو للاصلاح أم للعقاب؟ وهل للسجن من ضرورة؟ لا يكتفي ناقدو السجن بنفي قدرته على إنقاص الجريمة، بل هم يجدون أنه لا يتورع عن فبركة الجانحين داخله. إلى جانب إعادة فبركتهم بطريقة غير مباشرة وذلك برميه أسرة السجين في البؤس. أخيراً عندما لا يكون السجن خطراً فهو بدون فائدة.

مع ذلك يشكل السجن الحل الكريه الذي لا بد منه ولا نستطيع «اقتصاده». لذلك من الملاحظ أن خطط إصلاح السجن معاصرة لبروزه تقريباً.

---

(٢٨) BADINTER, R : *La prison républicaine*, Fayard, Paris. 1992.

في الطريق إلى السجن

إحدى الأواليات المؤدية إلى السجن:

لا وجود «لطريق» تؤدي إلى السجن، فلو امتلكنا تصوراً لطريق مؤداه السجن، لما سلكه أحد. يبدو أن الأمر يحصل كما لو أن الادراك لا يمكن أن يتشكّل إلا بوجود تنظيم اجتماعي يحدد معاييره وأساليبه. وإذا أمكن إدراك تجربة الفوضى ذاتياً، فذلك لا يعني إمكانية المحافظة عليها في الزمن.

حدثني السجين السيد «ع» (المقابلة رقم ١٥) عن «طريقه» الذي أوصله إلى السجن، وكيف وصل إليه. السيد «ع» ضابط سابق في أحد الأجهزة التابعة لمنظمة فلسطينية. وجد نفسه بعد أن نزل الجيش اللبناني إلى صيدا يتعرض للكثير من المشاكل: «إذ اشتدت النعرات وكثر الحديث عن أن «هذا لبناني وهذا فلسطيني»، وبما أنني أذكى من أن أضيّع نفسي (يقول)، انسحبت من التنظيم المسلح وجئت إلى بيروت حيث فتحت محلاً للعمل في ميكانيك السيارات في منطقة الجميزة. تعرفت من خلال عملي في ميكانيك السيارات على أفراد من العصابات الذين صاروا يعرضون علي بضائع مسروقة لشرائها، وسيارات مسروقة كي أفككها وأبيعها. كنت قد تعرفت في هذه الأثناء أيضاً على رجل يعمل في أمن الدولة، كان ذلك في العام ١٩٩٠-١٩٩١. صار رجل الأمن يتردد علي ويسألني إن كان هناك شيء يزعجني وعرّفني على شخص آخر يعمل تحرياً في استقصاء بيروت. فتح لي رجلا الأمن المجال كي آخذ حريتي. وبعد المعرفة التي تمت بيننا صار هناك نوع من الأخذ والرد، وصار رجل الأمن يسألني إن كنت أعرف عصابات أو ما شابه، على أساس أن أساعد في الحفاظ على الأمن. أردت أن أساعد الدولة في القبض على العصابات وأردت أن أتعاون معه بسبب من إحساسي بالكرامة. إنه بلدي وكنت أرى السرقة وأكره كل ما يسبب الضرر وخاصة المخدرات. كما كنت

صرت أعرف كيفية جمع المعلومات وترتيبها وكيفية التعامل مع الأشخاص، كل أنواع الأشخاص، من خلال خبرتي في المنظمات المسلحة الفلسطينية. قلت في نفسي إن التعاون مع الدولة قد يفيدني في المستقبل وقد يساعد أولادي عن طريق الحكومة أو الوزارة. أي فكرت بنوع من حماية لعائلتي، والنتيجة أنني علقت.

توصلت إلى العصابة عن طريق شخص كان معي في نفس الموقع في عملي التنظيمي السابق. وكان لا يزال يثق بي بعض الشيء، فصار يخبرني عن السرقات. وعلمت منه عن أشخاص كبار ومحميين. قلت لرجل الأمن أن هناك عصابات كبيرة لكنها خطيرة، وعليّ أن أحمي نفسي لأن حجمهم أكبر من حجمي بكثير، ويجب أخذهم بطول البال كي أتوصل إلى الرأس، فقال لا بأس. عملت مع العصابة لفترة واضطررت أن أشترك معهم في أربع عمليات سرقة. كانت سرقات ضخمة لمؤسسات كبيرة الحجم وكان يتم نقل محتوياتها بواسطة شاحنات ضخمة. كانت تتم عدة سرقات في اليوم الواحد، وكان يحدث ذلك في الجنوب. لكن تخطيط العمليات كان يتم في بيروت. عندما تم القبض عليهم اعترفوا عليّ كشريك لهم وعندما أخبرت رجل الأمن بذلك قال لي لا تخف وابق في البيت. وفعلاً بقيت في البيت خلال عام ونصف العام.

عندما قبض عليّ للمرة الأولى كان ذلك بسبب مشكلة حصلت بيني وبين جندي في الجيش. بعد أن دخلت السجن وفكرت بالأمر تبين لي أن رجال الأمن كانوا أكثر ذكاء مني بقليل (حدد لي ذلك بقوله: أذكى «بشوي»، لم يقبل أن يكونوا أذكى منه بكثير) إذ لم أشعر طوال العام ونصف العام اللذين قضيتهما في البيت بعد أن تم القبض على العصابة، بأي قلق. قال لي رجل الأمن لا تخف، وفعلاً لم يقترب مني أحد خلال تلك المدة، مع أنني معروف وبيتي معروف. لكن الأمر حصل (ويحصل عادة) على الشكل التالي (لم أعرف ذلك سوى مؤخراً كما أخبرتك): عندما طُلِبت من منطقة أخرى غير المنطقة التي أسكن فيها، أتى أحد رجال التحري بطلب للقبض عليّ، وهو إذ لا يستطيع الوصول إليّ دون المرور على التحري المسؤول عن منطقتي، يقول له نريد فلاناً من منطقة نفوذكم، يأخذ التحري المسؤول عن منطقتي البرقية أو ما شابه، ويقول له سوف نحضره، و«يطنّش» كي لا يلحق به الضرر ولا يقول لي شيئاً

كي لا أشعر أنني مطلوب. خلال هذا الوقت كنت قد غيّرت نوع عملي وضمنت فرناً وشغلته.

أصل المشكل، أنني كمشت ذات يوم حرامياً في منزلي، أمسكته من شعره مسكة عسكرية منعته من الحراك بينما أولادي يصرخون من الخوف. أخذت منه محفظته ونزلت به من بيتي إلى الشارع. جاء العسكري الذي يعمل في المركز القريب من بيتي وسألني: ما به هذا الشاب؟ قلت له إنه حرامي وها هي محفظته معي. أمسك العسكري المحفظة وفتحها وقال لي أتركه. تركته وبينما كان الجندي يسألني هل أنت متأكد من أنه حرامي؟ أعطاه المحفظة وأفلته. كان الحرامي في هذا الوقت يقف بيني وبينه بينما نتكلم، وبعد أن أمسك بمحفظته قام بالهرب. «طلع خلقي»، كيف يهرب الرجل هكذا من أمامي بعد أن أمسكت به؟ ضربني عندها الجندي (بعد أن نرفزت) بالكف، عند ذلك ضربته بالبوكس، فما كان منه إلا أن صرخ صوتاً فالتمّ رفاقه حولنا. كانوا حوالي الثلاثين عنصراً، جاؤوا كلهم وهجموا عليّ وصاروا يضربونني وأرادوا القبض عليّ. «بالعربي» أنا مدرّب ولا يستطيعون القبض عليّ بسهولة، لذا حصلت عملية صدّ وردّ بيني وبينهم وضربت إثنان منهم أو ثلاثة، ولكنهم إستحكموا بي بعد ذلك. قاموا بدفش والدتي عليّ وقالوا لها «إمسكيه وإلا فسوف نطلق عليه النار». المهم، أتت أمي، وأنا لا أستطيع أن أمد يدي على أمي، وأمسكوا بي ونزلوا بالضرب على رأسي، صار رأسي عندها «مفجّماً» يتسع لحوالي ١٢٠ قطبة جراحية.

إستطاعوا الامساك بي إذن وأخذوني إلى قصر نورا وهو محكمة عسكرية. في قصر نورا أرادوا أخذي بالقوة إلى المستشفى ولكنني رفضت بشدة، أردت أن يراني القاضي كما أنا بعد كل الضرب الذي تعرّضت له، ورفضت أن أغير ملابسي. ورآني القاضي فعلاً بعد ثمانية أيام في نفس الحالة التي كنت عليها وبعد الضرب الذي تعرّضت له في قصر نورا أيضاً. طلب لي سيادة المدّعي العام البراءة بعد أن حكيت للقاضي ما حصل معي وضحك كل من في المحكمة عندما أخبرتهم كيف أن الجندي أفلت الحرامي وضربني أنا. حكم القاضي عليّ بالسجن لمدة ٢٠ يوماً لأنني مددت يدي على جندي وقال لي: أنت عسكري وتعرف أنه لا يمكن أن تمد يدك على عسكري. لكنني عندما قمت بضربه لم يعد

يهمني أي شيء، إذ انقهرت كل القهر: كيف قام بإفلات الحرامي وهل هناك علاقة بينهما؟ حتى الآن يهمني أن أعرف ذلك! كيف لجندي أساساً أن يسمح لحرامي بالهرب؟

بعد انتهاء مدة العشرين يوماً جاءني رئيس النظارة في سجن ثكنة بربر الخازن وسألني: «شو عامل؟» قلت له لا شيء! قال: يبدو أنك «خارب الدنيا» ومطلوب أن نسلمك لمدعي عام الجنوب أو مدعي عام منطقة بعبدا! «شه»! (علامة التعجب الشديد) قلت في نفسي! في اليوم التالي جاء عدد من رجال التحري في منطقة الجنوب والبعض الآخر من بعبدا وبدأوا سلسلة من التحقيقات معي. شرحت الموضوع وقلت لهم ماذا حصل معي وعن تعاملي مع عناصر من جهاز إستقصاء بيروت وأن لا علاقة لي بتلك السرقات. لكن فور أن تلفظت بهذه الكلمة «إستقصاء بيروت» حتى انهالت قبضة حديدية على وجهي فكسرت لي أنفي وجعلت أسناني ترجّ، وهي كذلك حتى الآن، كما آلمت عيني وهي تؤلمني أيضاً حتى الآن! (قد نستغرب ان تؤلمه عينه بعد مرور كل هذا الوقت، لكنه الألم النفسي بسبب الشعور بالظلم). لم أعد أجرؤ على الكلام. غسلت وجهي وروّقت نفسي؛ ماذا تريدين أن أحكي لك! حصل لي أكثر من ذلك بكثير، يعني التعذيب يجعل من لا علاقة له بشيء يعترف بكل جرائم البلد ويضعها على ظهره. على كل حال لم يكن معي أي إثبات فأثناء توقيفي أُخذت مني كل الاوراق التي كتبت عليها أسماء وتلفونات من كنت أتعامل معهم من جهاز الأمن والاستقصاء، فماذا سوف أقول؟ لا أريد الكلام أكثر من ذلك في هذا الموضوع. سألت من يستجوبني ماذا يريد مني؟ أجلسني وكتب تقريراً وقال لي وقّع هنا، فوقّعت. قال لي ممنوع أن أحكي، فوافقت.

بدأت عندها سلسلة تحقيقات طويلة وأُخذت إلى محكمة صيدا، وحُكم عليّ بعد ١٧ يوماً بالسجن لمدة ٧ سنوات. وطوال هذا الوقت لم أعرف تماماً ما هي القصة ولم أربط أجزاءها سوى في السجن».

التعذيب:

سألتني صديقة: سمعت أنك تعملين عن السجن؟ أجل، قلت. فتابعت هل سوف تشيرين إلى التعذيب؟ أسكن بالقرب من مخفر حبيش وبينما كنت أمر من هناك منذ فترة قريبة (العام ١٩٩٧) سمعت صراخاً، صراخاً

وأنيناً يقطعان القلب، عرفت من نوع الأصوات أن صاحبها يتألم بشدة وفكرت ان هذه الاصوات لا بد أن تكون أصوات تعذيب على الكهرباء. كيف بالامكان القيام بالتعذيب بهذا الشكل؟ كيف يمكن القيام بذلك بين البيوت السكنية؟

من بين السجناء الذين التقيتهم، أشار الكثيرون إلى التعذيب والمعاملة الفظة التي يلقونها، ولكن لم أستطع الحصول منهم سوى على بعض التسميات من تقنيات التعذيب: الفلقة، الفروج... يقول السيد «م» (المقابلة رقم ٢) الذي يعتبر نفسه بريئاً من التهمة الموجهة إليه: «أنا لا أعرف شيئاً عن القضية التي اتهمت بها، لم أجد نفسي سوى معباً في صندوق سيارة وخطفتني الهيمنة... وألبسوني هذا الثوب (تهمة قتل) وأخذوني إلى صيدا وهات خبيط ولبيط. قيل لي إما أن تلبس الجريمة أو بدك تموت بين أيدينا تحت الخبط والقتل وتعذيب الكهرباء. ترجيتهم أنني بريء وكذا وهذا دليل براءتي، لكن عبثاً. ضعي يدك هنا على ذراعي، أنت مثل أختي، وتلمسي هذه، إنها جورة ها هنا، هذا عظم مكسور بالحديد، نعم بالحديد !إستلمتني الشرطة القضائية نصف بني آدم، مشلول وغير واعي من كثرة التعذيب؛ فاقد الاعصاب ولا روح فيّ. ماذا تريدين؟ إعترفت بالجريمة ولبستها، بقيت ٥ أيام تحت التعذيب بالكهرباء، قلت لك. إنقطع ظهري من كرسي لا أدري ماذا يسمونها، وضعوني عليها وطووها، طوى الله عمرهم».

أما السيد «ض» (مقابلة ٤) فأشار إلى أنه «أكل قتل كثير» عند التحرية. السيد «غ» (مقابلة ٦)، أشار إلى أنه عُذّب لمدة تسعة أيام، حيث وضع «فروج» وضرب «طاق، طيق» كما أشار، وتحوّل جسمه أزرق مثل النيل «وتورمت رجلاي وهي تؤلمني حتى الآن» لأنها كانت قد أصيبت في الحرب. أُخذ إثر اعترافه إلى المستشفى.

يكتفي السيد «ش» (مقابلة ٧) بالقول: «تعذيب! هل رأيت أحداً لا يزال جسمه معلماً حتى الآن! وبعد مرور ٤ سنوات! نعم ضربت وعذبت بالكهرباء».

من أسباب عدم التوسع دائماً بالحديث عن التعذيب، الظروف التي قابلت بها السجناء بحضور رجال الأمن وفي السجن نفسه الذي سوف أغادره وأترك السجين هناك لمصيره فيه. لكن اللجوء إلى العنف في المخافر

وفي السجون ليس سراً في لبنان، بل ويعترف بعض الضباط بذلك علناً، وذريعتهم أن هؤلاء «المجرمين» مختلفين عنا نحن «الابرياء» أو ذوي المستوى الاجتماعي أو الفكري الأعلى. كذلك يشير أحد القضاة الناشطين في مجال حقوق الطفل وحقوق الانسان إلى ذلك في محاضراته. لذا لم يكن هناك من بد في أن ألجأ إلى الصديق الشاعر ع. ب. وهو سجن في العام ١٩٦٨ بسبب توزيع منشور بعد الغارة الجوية الاسرائيلية على مطار بيروت وتحطيم طائرات الميدل إيست. أعتقد أن الوسائل نفسها لا تزال مستخدمة.

- التعذيب في سجن عسكري في نهاية السبعينات

لا تكمن أهمية الشهادة التي حصلت عليها من الصديق الشاعر والمناضل السابق «ع. ب» في اطلاعي على وسائل التعذيب التقنية فقط، بل في استطاعته التقاط الأهداف من ذلك وفي فهمه لكيفية التوزيع والترتيب الداخلي للزنزانة بحسب الأدوار والمراتب الاجتماعية. وهو ما لا يقدر على فهمه السجين العادي، إذ أفادني سجين آخر فقط حول هذا الموضوع، وهو أيضاً كان ضابطاً في التنظيمات الفلسطينية وسبق له أن اشترك في دورات تدريبية عدة خارج لبنان (المقابلة رقم ١٥).

أخبرني الصديق: «بعد أن وزعنا المنشور الذي دعينا فيه الجيش إلى الاستغناء عن سلاحه إذا لم يرد المواجهة مع إسرائيل، وبدأوا بالاعتقالات وعرفت أنني سوف أعتقل. إنتظرت ذلك لدرجة أنني قمت بالتالي: لبست جاكيت سميكة حتى يكون باستطاعتي تلقي الضرب وقمت بممارسة الرياضة صباحاً كي يصبح باستطاعة جسمي تحمل الضرب الذي من المحتمل أن أناله. وكنت قد سمعت من البعض أنهم تعرضوا للضرب وعندما لم يتكلموا اضطروا إلى إطلاق سراحهم. فقلت لا بأس آكل «قتلة» وأخرج لذلك لم أهرب وكان باستطاعتي ذلك.

المهم أتوا ليلاً وفوجئوا أنهم وجدوني لدرجة أنه لم يكن معهم سيارة لاصطحابي، يبدو وكأنهم أتوا هكذا لرفع العتب. اضطروا من أجل ذلك إلى أخذي في سيارة أحد المدنيين من بينهم، ويبدو أنه كان من الشعبة الثانية؛ وصلت مباشرة إلى غرفة التحقيق في صور وهي غرفة عادية حوالي الخمسة أمتار بأربعة، يعني أنها صغيرة بالنسبة لغرفة تحقيق وتعذيب في نفس

الوقت. وصلنا وعند دخول الغرفة تظاهروا أنهم لطفاء شكلياً. لكنه نوع من اللطف قصير الأمد جداً. أعطوني إذن سيجارة وكنت حينها متوقفاً عن التدخين، فأخذتها وعدت إلى التدخين من حينها، إذ لا يمكن الرفض في مثل هذا الموقف وليس علينا سوى **الاذعان**. بدأوا التحقيق وسألوني إذا كنت أنا من أعطى المنشور لأحدهم وأعطيته ٥ ليرات مقابل أن ينزل به إلى بيروت، وكان ذلك صحيحاً لأن الشخص نفسه اعترف بذلك. فقلت ان هذا الأمر غير صحيح. قيل لي عندها: نحن احترمناك لكن يبدو أنك لا تريد أن تحترم نفسك، هيا إخلع حذاءك وكلساتك (الجوارب). عندما خلعت كلساتي شعرت بالاهانة. الحفى مهين. شخصياً أحلم بنفسي حافياً عندما أكون متضايقاً، دائماً أحلم نفسي حافياً. قال لي ضع رجليك هنا، أي داخل آلة معينة. لفعل ذلك ينام الانسان على الارض ويرفع رجليه ويدخلها داخل نوع من الكلبشات التي تطبق على الرجلين وتمسك بهما على نوع من السيبة الحديد. قبل هذه الفلقة كنت أعتقد ان الفلق بسيط، إذ انني تعرضت للفلق عندما كنت صغيراً وبدت لي حينها بسيطة، لم أكن أعرف أني أكلت فلقة من دون معنى حينها. أكيد أن تلك الفلقة التي تعرضت لها في السجن هي أكثر وأكبر ألم تعرضت له في حياتي، لا يمكن تصور ألم الفلقة، يعني مع أنني أتكلم الآن بسهولة، لكنه نوع من الضرب الذي لم أتعرض له من قبل ولا من بعد. كان الضرب مؤذياً لدرجة أنني كنت أقول في نفسي الآن سوف أتكلم قبل أن تأتي هذه الضربة وكنت أعتقد أنهم سوف يوقفون الضرب. لكن يبدو أن لديهم حسابات لا أعرفها، نوع من تكنيك معين يعرفون خلاله قدرة الفرد على التحمل. فعندما كنت أقول بعد عدد من الضربات «خلص»، كانوا يوقفون الضرب ويعاودونه عندما أسترجع قدرتي. الأرجح أنهم كانوا يخافون من انهيار الشخص. بعد كل هذا الضرب فكّوا رباط رجليّ وسكبوا ماء على الأرض وجعلوني أمشي عليه، وواضح أن ذلك لمنع حدوث تورم. ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بعد الفلق جاء دور «الفروج» وهو فلقة من نوع آخر، فعلى نفس الآلة التي نضع الرجلين عليها، لكن بالاضافة إلى ذلك يربطون أيدينا أيضاً، أي مثل الفروج وأكثر، يمكن مثل الخروف المشوي. الآلة عبارة عن مثلثين متوازيين توجد قطعة من حديد بينهما ونُعلّق هكذا ويبدأ الضرب على الرجلين وعلى الجسم كله ولكن

يكون الجسم محمياً (نفعت هنا الجاكيت السميكة). هذا الضرب أهون من الفلقة لأنه يتوزع على الجسم، وهو أكثر مشاهدية (spectatulaire). كنت أعرف في تلك الفترة ما أريده، لذا لم تعنيني الشتائم ولا كل الاهانات التي تعرضت لها ولم يكن لها أي حساب، فقط الألم، الألم الحقيقي الذي كنت أرفضه. بعد التقليب كالفروج أنزلت إلى الأرض وبدأ الضرب المتعدد، وهناك ضربة معينة على الظهر تسبب صدمة (choc) بحيث ينتفض الشخص. وهناك ضرب على الأذنين والذي تسبب لي بفقد سمعي لفترة فيما بعد، إذ تسبب لي بالتهاب وأعاني حتى الآن من مشاكل في سمعي. كذلك هناك ضرب على اليدين بواسطة نوع من الكرباج المصنوع من شعر الهر وعضو العجل وهذا ضرب مؤذٍ أيضاً، إذ أنه يشبه ضربة خنجر فعلاً. هذا كله مختلط بالشتائم التي لم تكن تعنيني كثيراً في تلك الفترة إذ إنني كنت منسجماً مع نفسي، لذلك لم يكن سبابهم يطالني. وهناك أيضاً ركوبهم على ظهر الشخص ما يعني أنه حمار ويقصدون بذلك إهانته بشدة. لا أريد الآن أن ألجأ إلى الأدلجة وتفسير سبب مقاومتي لهم، لكنني اعتبرت كل ذلك تكنيك (تقنية)، ما عدا الألم، وأن هذا الجندي الذي أمامي لديه القدرة على شتمي وأن ما يقوم به جزء من غضبه، لكنه خارج عن ذاتي ولا يطالني. أُخذت في اليوم التالي إلى زنزانة صغيرة جداً ولها مصطبة من الاسمنت، فتمددت على المصطبة وكنت في الحقيقة مكوماً، كنت مجرد كومة، ونمت لا أدري كيف نمت أو ما الذي نام فيّ. يعني يكون واحدنا مهدوداً، أفاق رأسي ونام جسمي. هذا الجسم المتألم في كل جزء منه ينام من التعب المخيف. وكأنه أغمي عليّ أو شيء مشابه. أيقظوني صباحاً وأخذوني مرة أخرى للضرب، ولكن يبدو أنني تعودت، فشتمني أحدهم يا إبن ال... لو لم تكن مذنباً لما تحملت، لولا ذلك لكنت بكيت. فانتبهت أن عليّ البكاء فعلاً وأصدرت: هوء ... هوء... فضحك وكان العنصر التمثيلي واضحاً جداً، ولم يكن عندي الوقت كي أُحضّر تمثيلية أفضل. يعني هناك لعبة ذكاء أيضاً بين الطرفين، وسبر للقدرة على الاحتمال وهم اكتشفوا ذلك. بعد قليل أحضروا الكهرباء، وكان قد توفي قبل ذلك بقليل الفلسطيني جلال كعوش تحت التعذيب بالكهرباء، لذلك لم يكن عندهم الجرأة كي يستعملوا الكهرباء بجدية، إذ ربما أعاني من القلب مثلاً. جاؤوا بالكهرباء وربطوا شريطاً في

كل من إبهاميّ الاثنين، وأعتقد أنهم افترضوا أنني سأموت رعباً، وأنا في تلك الفترة لم أكن قادراً على التمييز تماماً ماذا يمكن أن ينتج عن الكهرباء، فلم أمت رعباً وعلى العكس أتى التيار خفيفاً لدرجة أنني شعرت بنوع من الزكزكة فابتسمت، فقال يا ابن ال. . أتعتقد أننا نريد إضحاكك؟

نقلت بعدها إلى صيدا وهناك وضعت في زنزانة تحت الأرض. إلتقيت برفاقي وأحدهم الذي اعترف عليّ، فاعترفت عندها. ثم نقلت إلى ثكنة في بيروت.

لم أعرف تماماً إسم الثكنة لأن إحساسنا الدائم كان أننا موجودون في أماكن لا أسماء لها ولا موقع ولا مطرح. مختفين عن الناس، مرميين، مزتوتين ومجهولين... للترك. وهذا إحساس مرعب، لشعورنا أننا في أماكن لا نُرى فيها وأن أصواتنا لا تصل إلى أي مكان، وأن بإمكان آسرينا أن يفعلوا معنا ما يشاؤون وكل شيء. أي أننا كنا ضحايا مطلقين. قد يكون هذا هو الاحساس الذي يجعلنا أضعف بكثير. الأرجح أن هذا الاحساس هو في أساس ضعف السجين المطلق. كذلك حقق معنا في بيروت، تحقيقاً سريعاً وعادياً، تحقيقاً عسكرياً. كنا مسجونين في غرف صغيرة جداً تطل على باحة باستطاعتنا الخروج إليها والتمشي فيها وكان معنا بعض العسكريين المسجونين الذين قد نعتقد أنهم هناك للتجسس. نقلنا بعد ذلك إلى سجن الرمل الذي كان في منطقة طريق الجديدة والذي هدم الآن، وهناك صرنا موقوفين.

طقوس السجن :

العري:

أول شيء يفعلونه في السجن نزع ملابسنا عنا بالكامل (بالزلط)، إنه الطقس الأول. ثم يفتشوننا ونحن عراة ليتأكدوا من عدم حملنا لأي شيء، نوع من تنبيش. بعد ذلك أخذونا ووزعونا على عدة زنزانات، إحداها كانت قاعة طويلة جداً، وكانت مليئة بالناس، حوالي السبعين شخصاً تقريباً عندما وصلت. أحسست عندها أنني متروك، لا أحد يعرف من أنا. أتى أحدهم وسألني من أين أنا؟ فقلت إنني من صور، وعندما قلت له ذلك صرت عملياً في حماية المدعو برير (وهو قاتل من صور)، أي صرت محمياً من قبله عن بعد. يعني أنه لا يتطوع أو يتنازل ليراني مباشرة،

بل كان يرسل ما يريد إعطاءه لي عن طريق «زلمته»، لنسمّه كذلك. أرسل لي سندويشاً من الحلاوة، لأن هذا الأمر مهم جداً في السجن. إذ أن طعام السجن لا يؤكل، ولا يأكله إلا البؤساء أي من لا أهل لهم. لم يأكل منه سوى سوري أدخلوه ولم يكن له أهل هنا.

لم يكن لي مكان أنام فيه في الليلة الاولى، فلقاووش السجن أو زنزانته، ترتيب معين، لذلك نمت في الوسط، حيث توضع حرامات وينام عليها السجناء «كعب ورأس». هؤلاء هم «همل» السجن، أي الذين لا حول لهم ولا قوة، كما فهمت في ما بعد. ولم أعرف كيف نمت وخاصة أنني أعاني مشكلة أصلاً مع النوم.

المال والمكانة:

عندما أفقت صباحاً كانت أمور عدة قد بدأت بما أنني كنت منتمياً إلى تنظيم، لذا أرسلوا لي محامياً هو أحد الرفاق الأصدقاء. جلست إليه كمحام، ووضع لي مبلغ ٥٠ ليرة في صندوق السجن. هكذا كان النظام، المال معهم وأنا معي دفتر أسجل عليه ما أريد شراءه ويحسم من المال الموجود معهم. كذلك حضر أهلي لزيارتي في هذا الوقت وتركوا لي أيضاً مبلغ ٥٠ ليرة كما أرسلوا لي فراريج مشوية عدة ودخان. وبمجرد ما ملكت المال حصلت على مكانة إجتماعية. لم يبق شخص لم يتصل بي، وصرت فوراً منتمياً إلى حاشية بربر الذي لم يكن يتصل بي إلا عبر زلمته وتعهدني الآن بالكامل، يعني أنه يأخذ كل الأشياء التي تصلني، أي يستلمها هو وليس أنا، وبعد ذلك أحصل فوراً على كل ما أحتاجه، اذا أردت سيجارة! «ينطّوا ويعطوني واحدة ويولّعوها لي»، أي إنه نوع من الاحترام، بمعنى أنهم في خدمتي، لكنني لا أملك شيئاً فعلياً.

الطعام:

عندما جلسنا الى الغداء تبين أنه شيء مدهش، وجدت تنوعاً كبيراً في الطعام، إذ إن كل من هو بمعية بربر يأتونه بأنواع غنية من الطعام، لدرجة أنني لم آكل بحياتي طعاماً بهذه الوفرة وهذا الغنى (هذا يعطينا فكرة عن الوضع الاجتماعي في لبنان قبل الحرب). بعد الطعام الأساسي هناك الحلوى وبعد الحلوى هناك الفاكهة. وكل يوم تمتد سفرة من هذا النوع.

لنوم:

حصل تطور آخر في هذه الاثناء. لي إبنة خال تعمل ممرضة وهي نعرف من خلال مهنتها شاويشاً في السجن، فاتصلت به. ماذا أقول لك عن الشاويش دون أن أكفر، وهناك إثنان واحد يكون أحد المساجين ويكون مسؤولاً داخل الغرفة، والشاويش ذي الرتبة العسكرية الفعلية والذي نادراً ما يُرى؟ إنه نوع من إله ولا صلة إطلاقاً بينه وبين السجين، فكل شيء يمر عبر شاويش الغرفة أي السجين. أتى الشاويش العسكري وقال: أعطوا فلان فرشة في الصدر. لنعرف معنى هذا الكلام يتوجب الدخول إلى السجن، إذ تقسم الغرفة وهمياً إلى الصدر وهو متسع وإلى الجوانب والجهة السفلى، ثم الوسط.

لكل سجين مسافة قدرها أربعين سنتيمتراً، يضع فيها فرشته. يُحفظ صدر الزنزانة للأعلى مقاماً، والمرعب أن العامل الرئيسي لتحديد هذه التراتبية هو المال وليس القوة. قد تأتي القوة في المرتبة الثانية. الأقوياء فعلاً هم من يملكون المال لذا يحميهم القبضايات. يأتي في المقام الثاني الذين ينامون على جوانب الزنزانة، ورتبتهم هي الثانية. ثم يلي ذلك الأضعف وهم ينامون قرب الحمام، أي أن الداخل إلى الحمام والخارج منه قد يتعثر بهم. ثم يأتي همل القوم وأضعفهم فينامون في الوسط وعلى حرامات، لأنهم لا يملكون فرشاً. وهؤلاء هم «المزتوتين»، أو السجناء العابرين؛ لأن اللبنانيين غالباً ما يتدبرون أمرهم. أحدث أمر الشاويش مشكلة، فأن يفسحوا لي مكاناً يعني أنني سوف آخذ مكان أحدهم! وكانت مشكلة حاولوا حلها بأن أنام على جنب الغرفة؛ وأنا لم يكن لدي فرق. حصلت أيضاً مشكلة أخرى. إذ أرسل لي أهلي فرشة كبيرة، دوبل يعني. وبما ان لكل واحد مسافة ٤٠ سنتيمتراً تعين أن ينام قربي سجينان شعرت بالقرف من «نظافتهم».

الحيِّز الحيوي:

في النهار يجلس السجين «الذي عليه القيمة» على حرامه المطوي أربع طيّات ويسمى «يطقه». اليطق مصطلح متعارف عليه، قد تكون الكلمة تركية الأصل، ولكن اليطق هو مكان الرجل وحماه ومطرحه.

المثقف:

كان معظم المساجين أميّين، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، لذلك عندما علموا أنني أعرف القراءة شعروا بالحاجة إليّ وبدأوا بطلب كتابة الرسائل. لا أدري إن كانت رسائل حقيقية أم أنها كتابة أي شيء يخطر على بالهم. أذكر الآن أنهم كانوا ينادونني حتى أذهب نحوهم، لكن بربر تدخّل وقال لي: أنت لا تذهب نحو أحد، تقعد على يطقك ومن يحتاجك منهم فليأت إليك. وتبيّن لي أن الشخص المهم لا يترك مكانه، بل يأتي الآخرون نحوه، أي أن الأقل أهمية يأتي لعند الأهم. لا أعتقد أنني التزمت كثيراً بما قاله بربر، ولكنني لم أرغب بفقدان حمايته أيضاً. وبدأوا يروون لي قصصهم، والارجح أنها لم تكن قصصاً حقيقية. قال أحدهم أنه اقترب من صبية فاتهمته أمها باغتصابها. وقال آخر أنه تقاتل مع أحدهم وأن هذا الاخير وقع بالسكتة القلبية عندما اقترب منه، فاتهم بقتله وهكذا... أذكر أنني علمت أن أحدهم وكان رجلاً وقوراً جداً، كان متهماً باللواط مع ولد. كان وقوراً ويرتدي عباءة وطاقية ولا يتحرك من مكانه. وعندما قلت إنني متهم سياسي لم يبتسم، إذ لم يعن له ذلك سوى أنني سوف أخرج بعد أيام قليلة وأن قضيتي لا تستأهل التفكير فيها. لم تعن لهم تهمتي شيئاً ولم أعامل بأي تمييز. والأرجح أنها قلّلت من وزني عندهم، إذ تبين أنني شخص عادي. في الحقيقة نظروا إليّ بشيء من الشفقة، هذا ما تبين لي. لم يتقرّب مني سوى واحد فقط، وهو أراد أن يريني أنه متميز لأنه يعرف القراءة، فطلب مني إحضار كتب له بعد خروجي (سوف نشير لاحقاً إلى معنى الخروج من السجن). إكتشفوا أنها تهمة «بدون طعم»، إذ يمتلكون مع الوقت خبرة قانونية: بكرة بتطلع! إذ هناك من يبقى في السجن شهوراً عدة وأحياناً سنوات، بانتظار التحقيق معهم وهذا مرعب، يعني فكرة أنه في السجن اللبناني يمكن للواحد أن يبقى سجيناً لعدة سنوات ينتظر التحقيق وقد يتبين، ولو نظرياً على الأقل، أنه بريء! إنه شيء فظيع. كل يوم كان هناك من يلبس ملابسه ويذهب للمحامي للنظر في قضيته، هذا عندما يكون لديه محام.

متعة! الطعام هو المتعة الوحيدة:

يعد الطعام في السجن من أهم الأمور، إنه شيء أساسي. من

الواضح أنه لا يعيّن الرتبة فقط، بل إنه يشكل متعة أساسية. أذكر أن أحدهم طلب مني أن أشتري له شيئاً لم أعد أذكر تماماً ما هو، عدس أم عرق، فأكتب له على الدفتر ويحصل على ما يريد. والعرق أو المشروبات الروحية هي من أغلى الأشياء في السجن (وذلك كي لا يشجعوا على استهلاكها على ما أظن)، وذلك ما كان يزيد من مقامي عندهم. (لم تعد المشروبات مسموحة بعد الحرب).

الملكية والمال:

فكرة أهلي عن السجن كانت خاصة؛ إذ إنهم أرسلوا لي كما ذكرت فرشة مزدوجة العرض، وأرسلوا لي «روب دو شامبر» أنا الذي لم أرتد مثله في حياتي، ومشاية منزل حمراء. يعني وكأنني ذاهب إلى مكان كي «أظهر» فيه؛ ولم يكن لذلك من معنى لأحد. الفراش العريض سبب لي بأن اضطررت إلى مشاركة إثنين معي به، وصار القمل والأمراض الجلدية أحد هواجسي هناك. الشيء الآخر الأساسي الذي يأتي بعد الطعام في السجن هو الملكية. هناك شعور مرعب بالملكية، ومن المهم للمساجين امتلاك أي شيء طريف: بانتوفل، كتاب، صورة، رسم، شيء مطرز.. تتخذ الملكية معنىً مطلقاً، ليس لأن لها وظيفة معينة أو أي وظيفة. بل إن كل من يمتلك شيئاً يحرص عليه. إن امتلاك الأشياء يتخذ قيمة طقسية عند السجناء؛ كانوا يقتنون أشياء لا تعنيهم كثيراً، خرْج مثلاً أو أي شيء، وكأن هذا الامتلاك يعطيهم الاحساس بالهوية.

شيء آخر مهمّ في السجن هو الرياضة؛ يعني يقضّون سجنهم بممارسة الحركات الرياضية في وسط الغرفة.

جعلني السجن أشعر أن الفلوس عنصر أساسي للزعامة في السجن، إنه قيمة إجتماعية، يميز مالكه بشكل واضح (net) ومرعب. والتمييز عارٍ وحاد وصريح ولا مجال للعب فيه.

الخروج من السجن:

لم أمكث اكثر من أسبوعين على ما أذكر. كل ما أذكره أنهم أتوا ذات يوم وقالوا: فلان وفلان وفلان، إطلع، أطلق سراحك. وفوراً إختفت كل ممتلكاتي: البانتوفل الحمراء والفراش وكل شيء. قلت

للعسكري عن اختفاء أغراضي، فقال لهم: جيئوا بالاغراض وفوراً حضرت كل الأغراض، دون أي نقاش. قد يكونون افترضوا أنني لن أسأل عنها. ولكنني سألت. لم أفهم لماذا أخفوها ما داموا أنهم كانوا مستعدين لاحضارها بهذه السرعة! أثناء خروجنا تعرضنا للتفتيش مجدداً، ليتأكدوا أننا لم نترك معنا أي أثر من السجن، ولا أي شيء، حتى ولا رسالة. كل ذلك ممنوع. لا يريدون أن نبني أي صلة مع المسجونين لدرجة أنهم عندما وجدوا معي عنوان السجين الذي طلب مني إحضار كتب له، أخذوه ومزقوه. وقيل لي ما معناه: أن أترك هذه الجماعة فلا علاقة لك بها، «فلا تنزل بمستواك من أجلهم». ولم أصادف أحداً مطلقاً ممن كنت معهم في السجن في ما بعد!

السجن كمساحة للضبط

في أعتى القتلة هناك شيء واحد يمكننا
على الاقل إحترامه عند القيام بالعقاب،
هو إنسانيته.

(فوكو)

لا تشعر بالراحة عند اقترابك من السجن، هناك ما يثقل عليك. منظر السجن ورجال الأمن الذين ينظرون إليك بطريقة خاصة، فيها تساؤل يشي بالشك والادانة: من أنت وماذا تريد؟ وإن كنت قريباً لمتهم فسوف يطالك شيء من الاتهام، وإن كنت مستطلعاً فسوف يطالك تساؤل: ما الذي يدعوك إلى ذلك لولا أن في نفسك شبهة وتبعة؟

يسمحون لك بالدخول بعد التأكد من الأوراق والاذن. يتفاوت النظر إلى امرأة هناك من دهشة إلى تساؤل مريب إلى هزء مبطن. يتوجب مرور بعض الوقت والنجاح في امتحان الجدية وفرض الذات المحايدة غير الأنثوية؛ فيصبح الدخول أقل وطأة. مع ذلك يعترضك من وقت إلى آخر عنصر جديد فيجدد مشاعرك الأولية التي سبق لك وسيطرت عليها.

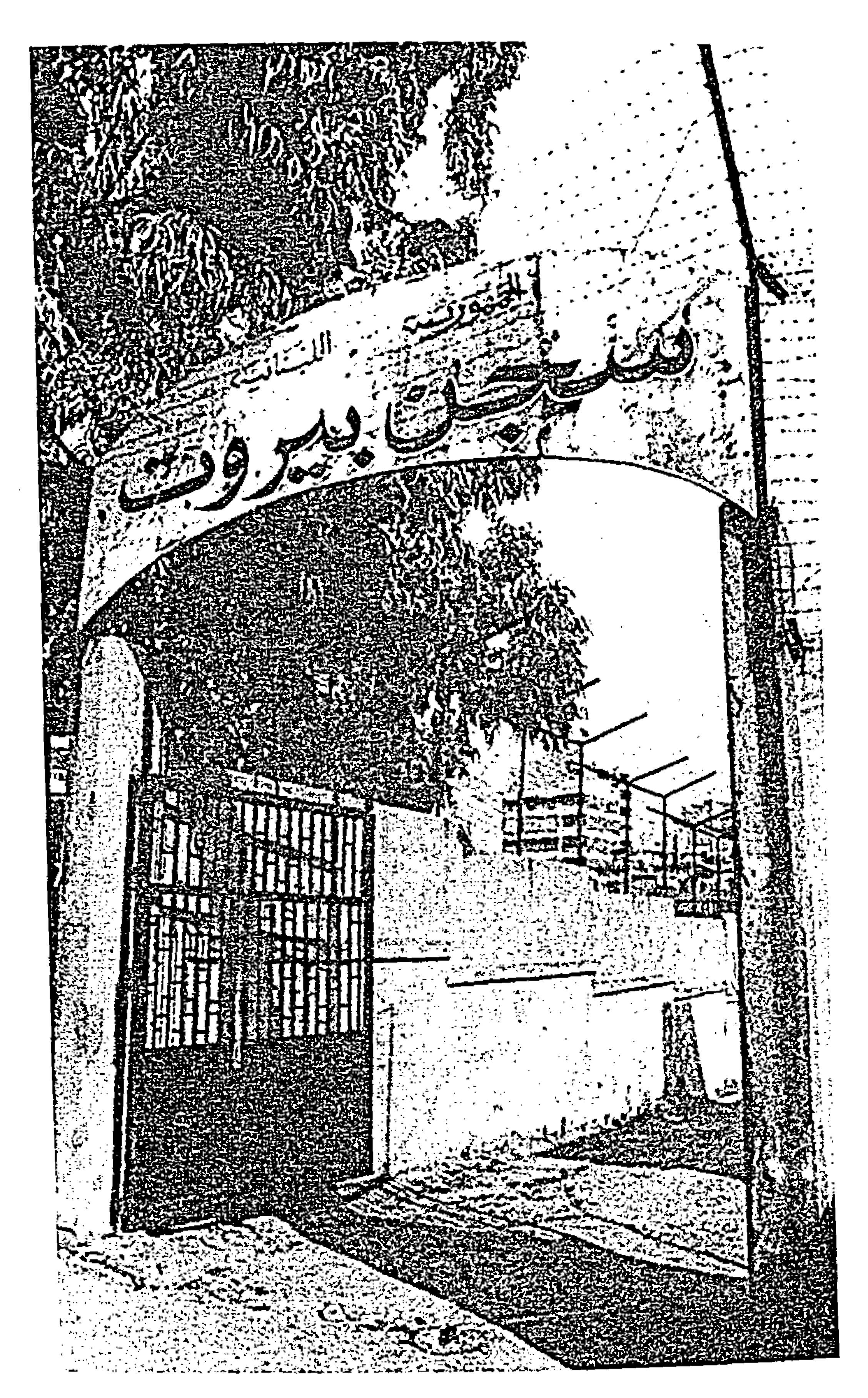
يتسع هذا السجن بحسب إدارييه إلى ١٧٥ سجيناً مبدئياً، لكن بسبب الضغوط التي تتعرض لها كل السجون تتراوح أعداد مساجينه من ٢٧٥ إلى ٣٠٠ سجين. وينطبق هذا المعيار على كل السجون اللبنانية التي تتوسع ذاتياً وتتمدد مساحتها كلما ازداد عدد نزلائها. وهذا العدد إلى تصاعد مستمر بحسب تزايد أعداد المساجين مع تزايد سلطة الدولة. يبلغ عدد المساجين الآن بحسب آخر التقديرات حوالي ٥ آلاف سجين.

يتكون السجن من ١١ غرفة، موزعة على طبقتين، تحتوي كل واحدة منها ما بين ٢٠ و٣٥ سجيناً أو حوالي ١٢-١٦ سجيناً وذلك تبعاً لحجمها. تقدر مساحة الغرفة الكبيرة بستة أمتار ونصف وخمسة أمتار ونصف. زرت الطابق الاول فقط حيث توجد الصيدلية، أي المكان الذي خصص لاجراء

مقابلاتي. الطابق السفلي أكثر عتمة ورطوبة من الطابق الأول بحسب ما قيل لي. أول مرة زرت فيها السجن تلصصت كي أرى الزنزانة وكان الباب مفتوحاً ويوجد رجل دين يتحدث اليهم. بدت الغرفة شديدة الازدحام بالأغراض والملابس المعلقة على حبال تتدلى منها بحزن. الحيطان مقشرة من الرطوبة المتراكمة وغير كافية الانارة. جلس السجناء على الأرض أو القرفصاء أو على الفرش المتراكمة. بدت الألوان قاتمة وتعطي انطباعاً بطغيان اللون البني، لا أدري لماذا؟ لا تحتوي الغرفة أي أثاث سوى الفرش والحرامات التي يستخدمها السجناء للنوم وبعض الرفوف المصنوعة من العلب الكرتونية التي فرغت من علب تبغها وصنعت على أيدي السجناء. كانت الغرفة تبدو غاصّة بالأشياء وبالبشر. دخلت هذه الغرفة فيما بعد، عندما كان نزلاؤها يتنزهون على الشرفة كما يقال. كان الوقت ظهراً، ورغم ذلك بدت الغرفة معتمة ذات رائحة نفاذة، وتشكو من نقص في التهوئة. كان السجين المتهم بالارهاب والذي طلب مني شخصياً إجراء مقابلته معي، نائماً. إستيقظ عند دخولنا وكشف الغطاء عن نفسه ولم يقل شيئاً. وصلت الى غرفة أخرى مليئة بالسجناء، رفضت أن أدخل في البداية، إذ اكتفيت بالنظر من الباب إلى أشغال السجناء: سفينة كبيرة وأشغال يدوية أخرى وفرش موضبة في زوايا الغرفة. علّق الشاويش الذي سبق وأجريت معه مقابلة أنني أخاف الدخول، وأن باستطاعتي ذلك وأنهم ليسوا «ميكروبات». ففسرت له أنني لم أدخل لأنني لا أود بدوري أن أتفرج عليهم، إذ إنهم ليسوا أشياء للفرجة (ولم أقل له إنني أنأى بنفسي أن أتحول أيضاً إلى شيء للفرجة). عندها دخلت الغرفة ونظرت. كان الموقف محرجاً: وقف البعض احتراماً، وبقي البعض الآخر جالساً. علّقت أن جو الغرفة هنا أكثر قبولاً من الغرفة السابقة، فقال الشاويش إنهم لا يدخنون. لا تحتوي هذه الزنزانة أي أثاث كالعادة، سوى الفرش والحرامات وبعض الرفوف التي يصنعها السجناء. كذلك بعض الحبال التي علّقت عليها الملابس أيضاً. سلّمت وخرجت، منقبضة الصدر.

علّق الدركي أنه هنا منذ سنة وثمانية أشهر وها أنني أعرف أكثر مما يعرف.

قد يكون سجن الرمل هو أول سجن متخصص في لبنان، قبل ذلك كان السجن يتم في الثكنات. يشرف على السجن ويديره جهاز إداري



مدخل سجن بيروت ومنظر عام له (تصوير علي حسين، «النهار»).

مكوّن من عسكريين ورجال أمن. حتى الطبيب هو رجل عسكري. قابلت الطبيب لأول مرة أثناء إجرائي إحدى المقابلات، في غرفة الصيدلية كما هي العادة، عندما أطل رجل ببذلة عسكرية برأسه. وقف برهة على الباب ودخل بعد ذلك محيياً. لم يتكلم طالما كنت أقوم بتسجيل الحديث. أوقفت عملي وسألته إن كان وجودي مزعجاً! طلب أن أعطيه خمس دقائق كي يقوم بعمله. كان الرجل طبيب السجن. أخرج الدركي سجلاً عليه أسماء وإلى جانب كل اسم وصفة لدواء. كان الطبيب يسأل الدركي ويقوم بالامضاء. قام بمهامه بسرعة وأذن لسجين بالخروج إلى الشرفة لمدة ساعة (ربما كانت إضافية بسبب اتصال شخص ما). سألته عندها هل هو رجل أمن أم طبيب؟ قال إنه طبيب وأنه حلف يميناً كعسكري كي يمارس عمله، وإنه لا يفضل أن يكون الطبيب مدنياً لأنه قد يخضع لضغوطات ومن غير الممكن الوثوق به تماماً. العسكري أكثر مدعاة للثقة! لم أفهم وجهة نظره: ما الذي يجعل العسكري أكثر مدعاة للثقة؟ القسم؟ ألا يتوجب على كل طبيب أن يحلف قسماً لا يقل قدسية عن قسم العسكري وينبغي عليه احترامه والعمل بموجبه؟ يعبر الطبيب هنا عن تعصب الانتماء إلى جماعة ذات سلطة، ولا أعتقده بمنأى عن الضغوطات أيضاً. الممرض كذلك عسكري.

يضم الجهاز الاداري، من موظفين إداريين وحراس وعمال مطبخ، حوالي ٩٠ عنصراً. الخدمة داخل السجن لرجال الأمن هي عبارة عن قضاء فترة ٤٨ ساعة متواصلة فيه وقضاء مثلها في الخارج. يتكوّن الطاقم الاداري من ٢٢ عسكرياً يأتون إلى السجن كل يوم مثل أي موظف عادي آخر وعطلتهم يوم الاحد.

يقوم بالخدمة وبالمساعدة على الطهو سجناء متطوعون بدون أجر. لكن باستطاعتهم عندها تناول ما يحبون من الأطعمة بالطبع. يتم اختيار سجين من بين السجناء ويكون حلاقاً بالأصل (عددهم خمسة) كي يحلق للمساجين. يتقاضى واحدهم نسبة مئوية من الأجر وهو ٦٠٠ ليرة عن الحلاقة. يذهب نصفها للادارة التي تقدم المعدات والشفرات والصابون. الحلاقة مرة كل أسبوعين على الأقل للشعر ومرتين للذقن أسبوعياً. أجر حلاقة الذقن ٤٠٠ ليرة. يسمح بالحمام الساخن مرتين في الاسبوع للسجين الواحد (أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس).

يجب تغيير الجهاز الاداري مبدئياً كل ثلاث سنوات، لكن هناك من يبقى عملياً ١٠ سنوات في مركزه. يبدو من تعليق الموظفين أنهم ينظرون إلى وجودهم في السجن كنوع من قلة الحيلة أو النقص في الواسطة. يبدو أن التواجد في السجن لا يرضي أحداً، حتى لو كان موظفاً فقط.

القوانين والقرارات الإدارية

يعدّ السجن جزءاً من وزارة الداخلية بالنسبة الى كل ما يتعلق بقوى الأمن الداخلي (مثل نقل العسكريين وما شابه). المرجع الأساسي للسجون هو مرسوم تنظيم السجون الصادر عام ١٩٤٩ والمعدل والمنقح في العام ١٩٧٧. وهو ينظم السجون وأقسامها وإداراتها، ويحدد مهام القيادة والصلاحيات المختلفة والأحكام العامة وأنواع العقاب والثواب وكيفية اللباس والغذاء والحفاظ على الصحة والحراسة الخ... عند صدور مواد جديدة أو تعديلات، تضاف كأوراق مستقلة إلى المرسوم الأساسي ويتم العمل بموجبها.

بعض الفقرات فقط، تأتي على ذكر حقوق السجين من منظار تأهيلي وهي التالية:

- مادة ٢٦: تدرب السجينات تحت إشراف المديرة على الأشغال اليدوية التي تتناسب مع استعدادهن ضمن الشروط الموضوعة في نظام المعامل وتشغيل المحكومين المنصوص عليها في هذا المرسوم.
- مادة ٢٨: يسمح لمندوبات الجمعيات النسائية بزيارة سجن النساء في الساعات التي تعينها المديرة ويجب أن تقتصر زيارتهن على إرشاد السجينات وتدريبهن على العمل تحت إشراف المديرة وتكون خاضعة لرخصة خاصة يعطيها مسبقاً وزير الداخلية بعد أخذ رأي مدير الدرك مع الاحتفاظ بسحب الرخصة حسب الفقرة الاخيرة من المادة ٥٦ من هذا المرسوم.
- مادة ٥٧: تتعلق بممارسة الواجبات الدينية (يأتي إلى السجن رجل دين مسيحي ورجل دين مسلم في أوقات معينة للوعظ والارشاد).
- مادة ٥٩: تنظيم إمكانية العمل في الخارج برضى السجين وبناءً على أمر خطي من وزير الداخلية. (لا أعتقد أن هذه المادة طبقت أو تُطبق).
- مادة ٦٧: مكتبة السجن، يوضع في كل سجن الكتب المناسبة من أدبية واجتماعية وصحية. تمنع الصحف والمجلات الدورية.

هذا كل ما يحتويه قانون السجن حول تأهيل السجين. ويكون آمر السجن مسؤولاً عن الأمور الصغيرة، كأن يسمح لسجين مثلاً بقراءة ما يريد، لكنه لا يستطيع أن يوقف أحداً من دون مستند بالطبع. ويحق له مراقبة الرسائل الا في ما يتعلق بالرسائل الموجهة إلى النيابة العامة. ينتبه في هذه الظروف إلى طائفة السجناء المتواجدين في الغرفة نفسها مثلاً، منعاً للحساسيات.

يوم السجين

زمن السجن لازمني، رتيب يستعيد نفسه دون كلل. إنه متشابه لا يتجدد ولا ينتهي. تضيق المساحة في السجن ويتقطع الوقت في تلك المساحة المجمدة والتي يتلاصق فيها السجناء راسين في أماكنهم القليلة. نشاط السجين أو دوام يومه مكوّن مما لا نحسب له حساباً عند تعداد نشاطنا اليومي نحن الذين خارج السجن. لأن هذا النشاط بديهي لدرجة لا تُذكر ضمن مهام يومنا: إنه النشاط المتعلق بالحياة شبه النباتية أو بالحياة بأقل معانيها بالحياة البيولوجية الصرف التي نتجاهل وجودها في حياتنا العادية ونتحاشى الاشارة إليها.

دوام السجن اليومي:

إستفاقة في السادسة والنصف إلى السابعة صباحاً.

تدوم الترويقة من السابعة وحتى التاسعة.

النشاط اليومي بعد التاسعة: المرضى إلى الصيدلية ـ النزهة اليومية على ما يطلق عليه «البرندة». لكل غرفة أو اثنتين دورها والحمام والحلاقة بحسب الدور. هناك الأشغال اليدوية أيضاً.

الساعة الثانية بعد الظهر موعد الغداء. يُدخل الطعام إلى الغرف في سطول (جمع دلو). يتم تناول الطعام على الارض. ثم يتناولون القهوة ويلعبون الشطرنج أو الورق أو ما شابه. من يرغب يقوم بالاشغال اليدوية مجدداً. يمنع الخروج من الغرفة بعد الغداء. يتم القيام بالتمارين الرياضية في هذا الوقت أو القراءة. يتم إدخال الكتب المسموح بها مرة في الاسبوع كل يوم إثنين، مثل مجلة العربي أو كتب الكلمات المتقاطعة أو الألعاب الفكرية وكل الألعاب الاخرى المشابهة (وهي نادرة في كل الأحوال). لعب الورق بشكل خاص يلتهم وقت السجناء أو هو يريحهم منه.

في الخامسة يتم التعداد الأخير وتقفل الأبواب بشكل قاطع، يمنع دخول الغرف حتى من قبل آمر السجن من دون إذن مسبق من النيابة. كذلك يمنع فتح الباب الخارجي.

يتكوّن العشاء من الجبن والحلاوة وما شابه. باستطاعة السجناء شراء المناقيش وأشياء مشابهة صباحاً من حانوت السجن.

لكل غرفة حمامها. لا وجود في السجن لشراشف. وهي غائبة حتى عن الثكنات كما قيل لي. لا يعطى السجين فرشة للنوم، بل يحضرها ذووه. يعطى ثلاثة حرامات.

هناك عدد من الأطعمة الممنوعة وهي تتغير من سجن إلى آخر بحسب ما أخبرني به السجناء. ممنوع أكل طعام معمول بطريقة المحشي، كي لا تهرّب به أشياء ممنوعة، وكل الأطعمة التي من شأنها التسبب بأثارة السجين (بحسبهم): الأسماك، أنواع الفلفل الحر...

من الملاحظ أن السجون اللبنانية لا تعتمد لباساً موحداً للسجناء، إذ هي لا تقدم الملابس مع أن هذا وارد في القوانين؛ مما يعطي لكل سجين طابعاً شخصياً ولو بشكل ضئيل (مع أن ليس هذا هو المقصود)، لكن ملابسهم ينقصها العناية والنظافة. لم ألحظ سوى سجين واحد في سجن رومية، وظننته ضابطاً في أول زيارة لي لأول سجن، بسبب ملابسه الرياضية كاملة الاناقة. لكن علمت في ما بعد أن على العاملين في السجن ارتداء ملابسهم الرسمية دائماً ولم يعد ممكناً أن أخطئ.

إدارة السجن

القوانين التي تنظم أنواع العلاقات داخل السجون واحدة، لكن يختلف جو السجن باختلاف حجمه كما سبق وذكرنا. كما تختلف العلاقات داخله بحسب شخصية المدير.

قد يلجأ آمر السجن إلى تكتيك «فرّق تسد» ويقوم لذلك بزرع الشك بين السجناء، ويعمل على سيكولوجيتهم، فيستمع إلى الشكاوى من كل واحد (قد يكون هناك ٢٥٠ مراقباً من ٢٥٠ سجيناً) وكل واحد يعلم أن الآخر سوف يستجوب أيضاً، إذ إنه يسأل كل واحد على حدة عن المشكلة التي حصلت، فيقارن ويمحّص في المعلومات التي تحصلت له. هذا بالاضافة إلى التقرير اليومي الذي يقدمه مراقب الغرفة والذي هو أداة

مراقبة إضافية (مراقبة على المراقبة). تعتمد الادارة على ما هو معروف عامة من أن لا صداقة ممكنة وفعلية في السجن. الجميع يردد أن العلاقات داخله مبنية على المصلحة فقط.

قد يلجأ آمر السجن إلى تغيير أساليبه دائماً (وذلك بحسب شخصية المدير) بحيث يجعل السجناء دائمي التساؤل: لماذا يفعل ذلك؟ وماذا يقصد؟ مستخدماً أسلوبي الترغيب والترهيب، ولا يسمح لأحد بالاستقواء على الآخرين، بل يحاول الحفاظ دائماً على نوع من التوازن فيضعف القوي ويقوي الضعيف.

إنها سياسة للضبط. سياسة لضبط «الشخص» كما لضبط الجسد. طريقة للتمكن من جعل تكديس البشر طيعاً وقابلاً للاخضاع. لذا تجهد السلطة نفسها أو ممثلها في تجنيد كل «المعرفة» لايجاد علاقات تسمح لها بأن تسيطر دون جهد وبشكل بديهي. تلجأ السلطة في ذلك إلى تقنية يتقاطع فيها الاخضاع مع الموضوعية. وهي هنا تفضّل اللجوء إلى وسائل تساعد على الفردانية وتدعمها. كل واحد يا «رب نفسي».

السجن هو نظمة (système) من الحواجز والأسيجة. مكان لتوليد الظروف المحطّة للكائن الانساني والنابعة من هذه النظمة العقابية نفسها، أي من داخلها وليس من خارج ما. السجن هو نفسه مولد للعنف والانحطاط. فمن ميزات المجتمعات الحديثة أن ينام المرء وأن يعمل ويتسلى في أماكن مختلفة ومع شركاء مختلفين وتحت سلطات مختلفة. ويتم هذا التنوع من دون الخضوع لخطة عمل مسبقة. يكسر السجن هذه الحدود التي تفصل عادة بين حقول النشاط الثلاثة المذكورة. إنها ميزته الأساسية: جعل النشاط اليومي لكل واحد على علاقة مع الكل وإلى جانبهم. هذا ما يجعل من الجميع خاضعين لنفس النظام والواجبات من ضمن برنامج ثابت وجامد، حيث كل نقطة متعلقة بالتي تليها بحسب خطة مسبقة يشرف على تنفيذها جهاز إداري لتلبية هدف رسمي ومؤسساتي. وفي هذا بحد ذاته قصاص وإشعار بالدونية وبفقدان حق التصرف حتى في مواعيد النوم واليقظة والطعام والاغتسال... يفقد السجين في السجن أهليته كراشد ويتحول إلى قاصر بكل معنى الكلمة. يقترب من مستوى كل غير المؤهلين وغير المسؤولين: الأطفال والنساء والمجانين.

في سجن النساء تختلف الأمور نوعاً ما، يسود الشعور بوجود تمايز ما بين السجينات. لسن متشابهات ولا يخضعن لنظام صارم كما في سجن الرجال. ما لفت نظري عندما قابلت مديرة سجن النساء الكيفية التي تنظر فيها إلى نفسها وعدم فصلها بين حياتها الخاصة والعامة، أي أن مكان عملها تحول إلى جزء متمم لشخصيتها. فالسجن بالنسبة إليها ليس مجرد مكان عمل يمكن أن تكون فيه اليوم وفي غيره غداً، كما هو الحال مع مدراء السجون الذين هم دائماً من ضباط الأمن، فتتغير بالتالي مراكزهم ويتم نقلهم دورياً، (ففي الفترة التي ترددت فيها على سجن بيروت تغير مديران وحصل تغيير ثالث عند نهاية عملي وبعد مغادرتي للسجن نهائياً). السجن بالنسبة إليها مكان للحياة، قالت: لو كنت زوجة وأمّ لما نجحت في إدارة السجن. وهي إذ تسلمت إدارته قبل مقابلتي لها بعام ونصف العام، إلا أنها تعمل فيه منذ ١٨ عاماً. وتقول إنها كانت المديرة الفعلية نظراً لأنها الموظفة الأكثر ثباتاً أيضاً.

وهكذا لاحظت أن الشاغل الأساسي للمدير الرجل هو تطبيق القوانين والحفاظ على النظام والانضباط والمراقبة التي تعتبر كرادع أساسي في منع الفساد. إذ إن سجن بيروت شكّل في إحدى مراحله السابقة أثناء الحرب أحد المراكز التي عمتها الفوضى والفساد. فكان الهاجس الأساسي هو الضبط وتصويب الوضع الفالت. لا يعني ذلك أن تطبيق القوانين ليس هاجساً عند مديرة سجن النساء لكنها كانت أكثر اهتماماً بالسجينات ككائنات إنسانية. وهي تقتني آخر منشورات تصدر عن هيئات قضائية وعالمية في رصد تتبع التطور الحاصل في السجون، وتهتم بجمع تبرعات تجعل حياة السجينات اكثر احتمالاً، إذ إن ما تقدمه الدولة للسجناء لا يتعدى الطعام والدواء. وحاجات السجينات الضرورية تتعدى ذلك إلى: الفوط الصحية، المحارم الورقية، الشامبو، أدوية تنظيف الاسنان، الامشاط، المناشف، الملابس... إذ إن نصف السجينات يتخلى عنهن الأهل ولا يتلقين أي زيارة. تحاول المديرة تأمين هذه الاشياء لمنع استغلال السجينات الفقيرات والمحتاجات من قبل اللواتي يملكن المال. كما أنها أمنت للسجينات تلفزيوناً يستطعن مشاهدته حتى الساعة العاشرة ليلاً. بينما لا يوجد جهاز تلفزيون في سجن بيروت.

مع محاولة العمل على تأمين محامٍ لمن لا تقدر على ذلك، إلا أن ذلك

يظل مشكلة مهمة، ويظل هذا المطلب أحد أهم مطالب السجناء والسجينات الملحة: الحصول على محام والمثول أمام المحكمة ضمن مهلة زمنية معقولة. ذكرت مديرة السجن أمامي أن إحدى السجينات أمضت في السجن عامين ونصف العام كي يتبين في النهاية أنها بريئة! إذ من الملاحظ أن السجون اللبنانية تضم موقوفين على قدر عدد المحكومين (أنظر الجدول رقم ٤ ورقم ٥).

شاويش الزنزانة

يتم عادة اختيار الشاويش المسؤول عن الزنزانة وعن حفظ النظام فيها، وبحسب معظم الذين تحدثت إليهم، من بين السجناء القدامى والذين قد يجمعون بين الرصانة وبين السن الناضجة والشخصية القوية أو من ذوي المكانة الاجتماعية. من مهامه أن يكون صلة الوصل بين السجين وبين الشاويش الفعلي (أي الادارة وممثليها).

الشاويش الذي أجريت المقابلة معه تعدى الخامسة والثلاثين، أسمر اللون ويميل إلى الطول. يزن حركاته وكلماته بدقة وتأنٍّ، ولا تستطيع أن تجره بسهولة إلى الكلام. قوي الشخصية ويظل يردد ما أراد قوله. شديد الحذر ولا يعطي من المعلومات إلا تلك التي يعتقد أنها قد تعود عليه بفائدة ما. وهو يرى من وجهة نظره أن الوضع في السجن ممتاز والادارة «الكريمة» (اذ هو لا يتلفظ بكلمة إدارة دون نعتها بالكريمة، وكأن صورة آمر السجن ماثلة أمامه ولا تبارحه) تقوم بكل ما يلزم من أجل راحة المساجين، الذين يتناولون جميعهم، بحسبه، طعام السجن (لكن حصلت من الآخرين على معلومات مختلفة بالطبع ولو أن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية قد قللت كثيراً من هؤلاء. فكما رأينا لم يكن أي نزيل يتناول طعامه من مطبخ السجن، سوى الاجانب الفقراء).

قضى هذا السجين، الذي لم يرد أن يفصح عن تهمته بوضوح (علمت بعد لأي أنه متهم بالارهاب وبالانتماء إلى منظمات إرهابية وبالتزوير أيضاً) حوالي أربع سنوات في السجن. ثلاث منها في سجن بيروت وسنة موزعة بين سجني عاليه (وهو سجن قضائي أي أنه يتمتع بالرفاهية بالمقارنة مع أوضاع السجون الأخرى) وسجن رومية. وهو حاصل على مؤهل جامعي في العلوم التطبيقية منذ العام ١٩٧٩ .

إنتقد السجين سجن رومية لجهة الازدحام الشديد الذي يعانيه. إذ إن هذا السجن أعدّ بحسب ما قاله لاستيعاب ٣٥٠ سجيناً في بداية السبعينات (هناك من قال لي إنه أعدّ في الأصل لاستيعاب ٧٠٠ سجين)، وهو يحتوي على غرف إفرادية. لكن ألغيت هذه الوظيفة بسبب التزايد الكبير في أعداد السجناء ووضع في كل واحدة منها (أي الغرف الافرادية) ٤ سجناء أو أكثر. تؤكد إحصاءات الدولة هذه المعلومات إذ من الملاحظ ان استيعاب السجون يتغير نحو الازدياد بشكل مطرد دون أن يضاف اليها أي بناء. وتتسع الغرف العادية في الأحوال العادية لأربعة سجناء، بينما يوضع فيها من ١٨ إلى ٢٠ سجيناً، ما جعل عدد السجناء في رومية حوالي ثلاثة آلاف. أكد لي هذه الارقام أحد القضاة. يمتلك هذا السجين معلومات دقيقة وتبدو صحيحة عن أعداد السجناء في لبنان وقدّرها عندما أجريت معه المقابلة، شتاء ٩٦ بحوالي ٥٥٠٠ سجين. لكنه بدا مبالغاً في كلامه بشكل عام، خاصة لجهة مدحه لسجن بيروت، إذ إن الحديث المطول الذي أجريته مع سجين آخر أفادني أن سجن رومية كمكان ومساحة أوسع وأفضل من سجن بيروت. ولو أن الملاحظة تظل قائمة على أن العلاقات الانسانية هي أكثر قرباً، وتبدو صحيحة نسبياً بسبب صغر حجم سجن بيروت وبسبب سهولة الاتصال بالادارة.

يرى هذا السجين أن مقياس وضع السجن يتحدد بأمور ثلاثة: النظام والمعاملة والحالة العامة للسجن. لذا يرى أن سجن بيروت هو أفضل السجون بسبب عدد السجناء المعقول، لأن الازدحام الشديد (لم يوافق السجناء الآخرون على هذه الملاحظة وارتأوا أن سجن بيروت هو الذي يعاني من الاكتظاظ الشديد) الموجود في رومية يؤثر برأيه على النظافة وعلى النظام وبالتالي على الحالة العامة أيضاً. عندما أشرت إليه أنه ربما يقوم بمسايرة الادارة عندما يتكلم بهذه الطريقة، إذ يشتكي معظم السجناء من الشروط الصحية السيئة في سجن بيروت، بسبب الرطوبة والحر صيفاً والرطوبة والبرد شتاءً؛ وأن هذا رأي رجال الأمن أيضاً، اعترض وقال هل من الممكن وضع ٢٠٠٠ سجين في مكان يتسع لـ ٣٥٠ فقط؟ في إشارة نقدية إلى سجن رومية.

لكن لا ينجو سجن بيروت من الازدحام نفسه الذي يعاني منه سجن رومية، إذ شكا سجين آخر أن الغرفة ذات المساحة ٥,٥ أمتار عرض

و٥,٦ أمتار طول يوضع فيها ٣٣ سجيناً وأحياناً ٣٥. قدّر الشاويش حجم الغرفة في سجن رومية بـ ٤ X ٢ أمتار ويوضع فيها ٧ أو ٨ أشخاص. ما يعني أن الازدحام في سجن بيروت على أشدّه هو أيضاً إذا لم يكن أكبر.

الازدحام بالنسبة إلى السجناء يعني أيضاً تقاسم لوازم النوم. إذ عندما يدخل إلى السجن عدد كبير من السجناء لا يعود السجين منهم يحصل على حراماته الثلاثة (إثنان للنوم وواحد غطاء)، بل إثنين فقط. في هذه الأحوال يحاول السجناء تدبر الأمور في ما بينهم على ما قالوا وتقاسم الحرامات.

المشكلة الأساسية التي قد يعاني منها السجناء في السجون الكبيرة جداً هي مسألة الغفلة، أي الانقطاع الذي يحصل بين السجين وبين الادارة، إذ لا يعود باستطاعة السجين الاتصال بها. حسنة سجن بيروت أن مدير السجن على صلة مباشرة بالسجناء، فهو يمر على الغرف بشكل دوري وأكثر من مرة أحياناً في الأسبوع. بالاضافة إلى اليوم الأسبوعي الذي يخصصه لشكاوى السجناء (صباح كل إثنين، حيث صادف أول يوم ذهبت فيه إلى السجن يوم المقابلات وحضرت بعض الشكاوى). بينما لا يتسنى للسجين في رومية مقابلة المسؤولين الاداريين بسهولة.

عن سبب اختيار الادارة لشخص معين للقيام بمهام الشاويش، ذكر مسألة الأقدمية وأن يكون متفهماً للأمور ويختارون من «عنده مستوى» أي ربما أكثر نضجاً أو وعياً أيضاً: «اذ لا يمكن الاتيان بشخص جاهل كي يعينوه مراقباً للغرفة، فمن مهامه أن يتدخل لحل بعض المشاكل وعندما لا يستطيع ذلك يلجأ إلى الادارة. وقد يتم اختياره لأنه متعلم، فنحن بالرغم من نظرة الآخرين إلينا على أننا حثالة المجتمع، إلا أن هناك ظروفاً معينة تدخلنا السجن، ويوجد بيننا من هم متعلمون ولديهم مستوى».

لكن في ما يتعلق بالتراتبية الاجتماعية داخل السجن، رفض الشاويش أن يشير الى ذلك أو يعترف به، وأصرّ على أن السجناء «سواسية في السجن». والجميع يأكل طعام السجن الذي يوزع بالتساوي (أذكر هنا أن البعض طلب أمامي الاذن من الطبيب بأن يقدم له الحليب مثلاً لمعاناته من مرض معين، أسوة بفلان...). كذلك الأمر في ما يتعلق بالنوم «كل الأماكن منيحة ومريحة، لكل واحد ٥٥ أو ٦٠ سم، ليس باستطاعة أحد

أن يحصل على أكثر من ذلك». لكنه اعترف بأن للسجين الأقدم أو الذي يعاني من المرض، الأفضلية في النوم في الأماكن الاكثر راحة، لكنه لم يعينها .

يبدو السجن من وجهة نظر الشاويش، مكاناً هادئاً يتمتع بالنظام والسكينة وكل شيء فيه على ما يرام «فالمشاكل ممنوعة»، وكأن هناك أماكن تكون المشاكل فيها مسموحة! هناك وقت للاستيقاظ «في السادسة والنصف عندما يدق الجرس، يطوي السجناء عندها الفرشة التي ينامون عليها ويجلس كل واحد منهم على يطقه ويبدأ الاستعداد الصباحي: من لديه كتاب يقرأه وهناك من يصلي الخ... ويوزع الشاي فيما بعد بالتساوي ويشوفوا مهماتهم» (وكأننا في مشغل وفي يوم عمل عادي ولكل فرد مهمته!). أضاف: «إن الطبخ ممنوع في الغرفة، يمكن للسجناء شراء ما يريدونه من الخارج». نكاد نتمنى دخول سجن الشاويش هذا!

السجن كمكان اجتماعي

التنظيم الداخلي والعلاقات داخل الزنزانة

السجن، «مجتمع برّي»:

هذا ما ابتدرني به السيد «م» (المقابلة رقم ٢). وهو اشترط عليّ أن أبيّن أنه مظلوم وبريء وإلا فسوف يوقف المقابلة. كما طلب مني أن أثير قضيته في لجان حقوق الانسان. يقول: «دخلت السجن ورأيت أشياء وأشياء، ماذا أقول لك؟ يتمنى الواحد... (ربما أراد القول لو أنه لم يولد). رأينا هنا بعض السجناء، أناس يستحقون مجتمعاً برياً، مع احترامي للبعض، لكن البعض الآخر يعد البقر أو الحمير أفضل منهم، لأنهم جماعة مشكلجية وقلقلجية. يدخلون إلى هنا ملاعين، سرّاقين، قد يكون أحدهم سبق له وأن نام مع أخته أو مع أمه وهو يقول هذا ويخبر عنه، لا تؤاخذيني، هم ليسوا أولاد مجتمع. إنها بيئة ردية (رديئة). علينا تحمل الشبطة واللبطة. يعني علينا الانتباه أين ندعس فالغرف صغيرة وضيقة فقد ندوس يد أحدهم فيقوم يريد الخناق، نضطر أن نسكّر بوزنا ونضع عليه صرماية، ونقول يا رب إفرجها علينا».

لاحظت أن هذا السجين أبدى اهتماماً كبيراً في كل ما كنت أسجله من ملاحظات على الورق، وكان يسألني طوال الوقت ماذا تدونين؟ وكأنه يخاف أن أكتب أشياء لا يرضى عنها أو قد تسيء اليه، ويتطاول برأسه للتأكد من صحة ما أقوله له. بينما لم ينزعج إطلاقاً من آلة التسجيل التي كانت تدور ببساطة دون أن يلتفت اليها. كأن السحر والشر هما فقط في الانسان وفي الكلمة المكتوبة أي الموثقة. لم أدر سبب ذلك عنده، هل بسبب عقائديته الحزبية وتعرضه للاضطهاد أم بسبب عقائده الدينية الخاصة؟ إذ في الاحوال العادية تثير آلة التسجيل الشك بعكس الكتابة. فلقد مانع الكثير من الموظفين الإداريين أي تسجيل لأصواتهم. على كل حال تميز اللقاء مع هذا السجين بكونه نوعاً من مرافعة طويلة في الدفاع عن النفس.

قال السجين السيد «أ» (المقابلة رقم ٣): «السجن! غير معقول، صدقاً أنا أتكلم معك الآن لكن لا تتصوري العيشة التي نعيشها، يا ما أحلى عيش الكلاب. تصوري غرفة يسكن فيها ٣٠ أو ٣٥ شخص، هكذا الواحد بلصق الآخر «شكّ»، يعني إذا دخل كلب إلى الغرفة لن يجد له مكاناً ويهرب. يعني يختلط المحتال مع القائم بالسلب مع المخدرات مع القتل، وهذا يقول كذا وذلك كذا... نتكلم ونتعايط لو تعرفي ما هي لغة إبن الشارع sorry: يا أخو الهيك وهيك، ناولني إبريق الماء. يلعن أختك، أمك. أنا آسف أن أقول ما أحلى عيش الحيوانات. السجن جعلني أشعر بفقدان الأمل، بأسر الإرادة وبالحقد. الحقد على العالم، كل العالم».

سجين آخر، السيد «خ» (المقابلة رقم ١٣) قال: «إن السجن ظلم. لا دخل للإدارة أو القضاء أو ما شابه. لكن مجرد الدخول إلى السجن وقضاء سنة، هو الظلم بعينه. السجن هو كذلك، تصوري أن يعيش ٣٥ «زلمة» مع بعضهم البعض، يعني لو قال واحدهم كلمة «بس» فقط سوف يطاولنا الصرع. الضجة ولا تؤاخذيني: خذي الحمام لو دخله ١٥ منهم فقط، تصوري كيف ستصبح حالته؟ أنت موجودة مع ٣٥ فرداً أوجدتك معهم الظروف وأجبرتك على مجاورتهم، وعقل واحدهم لا يركب على عقل الثاني! إلتقيت هنا بأناس لم أتصور يوماً أنني قد ألتقيهم. ليس لأنني متكبّر ولكن لأن لا شيء يجمعني بهم، لا الوضع الاجتماعي ولا الوضع الثقافي ولا أي شيء. السجن بهدلة، يكفي أن تضطر الأم والأخت أن تأتي إلى هنا وأن تقف في الصف في الخارج ٣ ساعات و ٤ ساعات كي يأتي دورها للدخول. في الحرب توقفنا عن أكل الخبز كي لا نقف في الصف. السجن شيء فظيع لا يمكن تصوره. كنت أسمع عنه من الخارج وكنت أمرّ قرب هذا السجن ولا أعرف معنى السجن أو أصدّق، إلى أن دخلت وعرفت أن مجرد الدخول إلى السجن هو ذلّ. يحس السجين نفسه مذلولاً ومبهدلاً لكونه سجين فقط.

والدخول إلى السجن يعني الانقطاع عن العالم الخارجي. لا يعود يسأل أحد عنه. في الخارج يقولون لك: «أأمري» وينسونك في الداخل».

أما السيد «ض» (المقابلة ٤) فيرى: «أن السجن مذلة، يبعده عن الأهل والأقارب والأصحاب» (وهو ينتم ...

عشيرة). يجد هذا السجين أن السجن صعب، إنه أصعب ما في الحياة، إنه بالحياة كلها.

السيد «غ» (المقابلة ٦) فهو على ما قال: «أتمنى الموت لأني في ضيق كبير، ضيقة لا يمكن أن تتصوريها، يا لطيف»!

السيد «ش» (المقابلة ٧) يقول: «نحن كلاب في السجن، ما هو السجين أكثر من كلب؟ حقوقه المدنية ساقطة كلها. السجن مقبرة الحياة».

السيد «س» (المقابلة ٨) يجد أن لا فائدة من هذا السجن، لأنه سيّئ، «السجن غلط بغلط ويزيد الأمر سوءاً. ومن يخرج منه لا ينصلح حاله».

الرأي الطريف كان للسيد «ط» (المقابلة ٩) الذي مارس مهمة الناقد الاجتماعي وارتأى: «أن السجن هنا هو والله أفضل من الخارج، صحيح أننا في سجن وله شبابيك صغيرة، لكن الخارج هو سجن كبير من دون شبابيك. سجن يسرقونك فيه أمام عينيك. هنا في السجن لا يمكن أن يسرقك أحد، هناك إدارة تحاسبه. لكن الوضع في الخارج فالت تماماً».

السيد «ي» (المقابلة ١١) قال: «هل تصدقين إذا قلت لك إن عينيّ تدمعان عند الغروب، وأسأل نفسي: ماذا فعلت اليوم؟ ذهب النهار ولم أفعل شيئاً. لا فراغ داخلي أو خارجي عندي، أقرأ القرآن وأتمعن فيه. أزعج ما في السجن هو الفقر المادي. يتطلب السجن مصروفاً أكثر من الخارج. كما أنني أشتاق إلى أهلي كثيراً». عمر هذا السجين ٢٣ عاماً.

الخلاصة كما وردت على لسان السيد «ع» (المقابلة ١٥): «لا حل للسجن، لأننا بنظر الناس مجرمون، لا عاطفة لدينا ولا يمكن أن نتصلح. لا ينظر إلينا على أننا ضحايا أناس آخرين. هذا تفكير غير موجود. لذا لا أحد يسأل عنا، حتى أن مجرد ناطور يحرسنا هنا ينظر إلينا على أننا حقراء، نستأهل ما يحدث لنا لأن ذلك كله من فعل أيدينا».

الطعام:

«تصوري أنا إبن فلان (المقابلة ٣، وهو من عائلة بيروتية ذات موقع إجتماعي) الذي كنت أتناول طعامي على طاولة سفرة مع شوكة وسكين، أجدني هنا (sorry مرة أخرى) أجلس على خازوق. نسيت شكل الملعقة والسكين والشوكة المعدن. نسيت صوت الصحن كيف

يكون. هنا كل شيء بلاستيك. تصوري أنهم يدخلون «القروانة بالسطل، سطل بلاستيك أيضاً»!

بالنسبة للطعام يبدو أن الوضع تغير عمّا كان عليه قبل الحرب، وبات عدد السجناء الذين يتناولون الطعام الذي يقدمه السجن أكبر من قبل. لكن هناك بعض السجناء الذين يأتيهم طعامهم من الخارج، لأسباب صحية وأحياناً لأسباب أخرى. فالسيد «ج» (المقابلة ١٤) قال لي إنه لا يتناول طعام السجن وإن أهله يحضرون له الطعام أسبوعياً. وقال لي إن هناك حوالي الأربعة في غرفته في مثل وضعيته. إن كل أسرة تزور سجينها لا بد من أن تحضّر له «زوادة طعام». والسجناء الذين باستطاعة أهلهم زيارتهم أسبوعياً يحصلون على طعام أيضاً. لكن هناك صعوبة في معظم الأحيان حالياً بالنسبة للكثير من الأهالي في زيارة السجناء والقيام بواجبهم بسبب أجور الانتقال الباهظة. لذلك هناك من بينهم من يقوم بخدمة السجناء ذوي الوضع الاجتماعي الأرفع: مثل غسل الصحن أو تنظيف الحمام بدلاً عنهم أو ما شابه. ويحصلون هكذا على ما يحتاجونه من تبغ أو طعام يتم شراؤه من الخارج بواسطة إدارة السجن.

لا نتام:

بالنسبة للنوم أجاب السيد «أ» (المقابلة ٣): كيف باستطاعتي النوم بالله عليك! أنا في السجن أنام على ٦٠ سم فكيف باستطاعتي النوم؟ أغفو ساعتين او ثلاث. أنهض وأعود أغفو نصف ساعة وهكذا. لا مكان هنا للاختلاء بالنفس، أنظري بنفسك إلى الغرفة! بلى قد أختلي بنفسي في الحمام، لكنني أنصحك بألا تحاولي رؤيته».

السيد «ج» (المقابلة ١٤)، يوافق أن اختيار مكان النوم في الغرفة يكون بحسب الأقدمية أو السن أو الحالة الصحية للمريض. لكن قد يصل الازدحام أحياناً إلى درجة يتوجب معها على سجين جديد أن ينام في الحمام بالرغم من الروائح المتصاعدة منه. هذا عندما يكون الحمام على سعة كافية، لأنه في بعض الغرف يكون ضيقاً ولا يسمح بالنوم.

ليل السجن مضاء، لا عتمة هناك، يتخوفون من حدوث أمرٍ مكروه ما. «أن يشنق أحدهم نفسه في الليل» بحسب السيد «ج». وهناك تخوّف من قصص اللواط: «لذا يظل واحدنا مستيقظاً في الليل غالب

الأحيان. اليوم مثلاً عندما طلبتِ مقابلتي (كانت الساعة حوالي الحادية عشرة) كنت لا أزال نائماً. سهرنا حوالي الثلاثة مع سهّير الليل حتى الخامسة والنصف صباحاً، لعبنا الورق. هناك دائماً من يتوجب عليه السهر كي لا «يدقّ» أحدهم بآخر (يعتدي عليه جنسياً)، وأنا أحاول الانتباه على نفسي. لا نسهر كل يوم بهذا القدر. لكن هناك دائماً من يسهر ليلاً وينام نهاراً. لكنني أرى أن لا لزوم لسهّير الليل لأننا نظل مستيقظين معظم الأوقات. لا أحد ينام في السجن، إذ لا أحد مرتاح هنا، كلما أراد النوم تأتيه الافكار كذلك الامر كلما وضع رأسه على المخدة. يعني يفكر في بيته وأسرته وكيف عليه أن يتدبر معيشة أولاده. ويفكر ماذا حصل معه اليوم وماذا سوف يحصل معه غداً. لا أحد لا يفكر. عندما أريد النوم أقضي ساعة أوساعة ونصف، رأسي على المخدة لكنني لا أنام. أفكر فقط. أندم على بعض الأشياء، إذ إن طبعي سريع الانفعال والتصرف بسرعة. لذا أتصرف أحياناً بشكلٍ خاطئ، فأقول لنفسي لمَ قمت بذلك؟».

كذلك شكا السيد «خ» (المقابلة ١٣) من قلة النوم بسبب الهواجس: «ما أن أضع رأسي على المخدة حتى تأتيني الأفكار. يفكر واحدنا بأمه وأخوته (هو وحيد على عدة بنات). صحيح إننا لا ننام، نظل نعاني القلق حتى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً فنغفو عندها قليلاً. كما انني بصراحة أشتاق للعتم، لكننا اعتدنا الضوء، سوف أنام على الضوء في الخارج. السيد «ع» (المقابلة ١٥) يشكو أيضاً من القلق و الهم: «إذ يظل فكر واحدنا براً عند أولاده وأسرته، لذا تظل أعصابه مشدودة». أما السيد «ض» (المقابلة ٤) فالسجن بالنسبة اليه فراغ. فراغ كل النهار وكل الليل. لذا يقدر الشخص أن يفكر، يعني كل النهار قاعدين على تفكير. النوم صعب في سجن بيروت. الجديد خاصة لا يجد نومة له بسهولة، بل بالدور وبحسب الأقدمية فالسجون ملآنة».

تقسيم الزنزانة :

تتقسم الزنزانة إلى **الصدر**، يلي ذلك **الجوانب** و**أسفل** الزنزانة **والوسط** أي **الميدان**، ثم الجهة التي تقع **قرب الحمام**. يعد الصدر من أفضل أمكنة الغرفة. ينام ويجلس هناك الأقدم في السجن والأعلى مقاماً

أو الأكبر في السن. لكن المكان الأفضل فعلاً فهو الزاوية التي في الصدر، لأن من ينام فيها يستند إلى الحائط من جهة واحدة، و يكون هكذا بعيداً عن الالتصاق الإلزامي بالآخرين من كل النواحي. والزاوية هي للشاويش في معظم الأحيان أو لمعاونه. يرى السجين السيد «ع» (المقابلة رقم ١٥) أن الباب أيضاً يعدّ من أفضل الأماكن. لكن ليس هذا رأي السجين السيد «ج» (المقابلة رقم١٤) إذ إنه يرى أن الجلوس والنوم قرب الحمام وقرب الباب سيئ كليهما، في أولهما بسبب الرائحة وفي ثانيهما بسبب «التدعيس» كلما فتح الباب وأراد أحدهم الدخول أو الخروج. وجدت أن السجين السيد «ع» يفضل الجلوس قرب الباب بسبب وضعه الصحي وضيق النفس الذي يعاني منه. إذ تسمح له هذه الجلسة في التقاط كمية أكبر من الهواء. الوضع الأنسب قد يكون الجلوس على مقربة من الباب لكن ليس بمحاذاته تماماً. فيما عدا ذلك تتشابه الأماكن الأخرى. وأسوأ مكان للنوم وللجلوس هو الميدان، أي وسط الغرفة، إذ لا بد أن السجين يفقد هناك أي مجال للخصوصية فيصبح «مدعسة» الجميع. وغني عن البيان المعنى المحقر لهذه التسمية و لهذه المكانة أيضاً، إذ يشكل الحائط الذي يستند إليه نوعاً من الحماية أو العزلة، كما يحمي من أقدام الآخرين. وحرفياً يدل على ذلك التعبير المستعمل في بلادنا للدلالة على من لا واسطة له أو حماية فيقال «ظهره مكشوف» أي لا سند له. وهكذا يكون السجين المرمي في الميدان مكشوف الظهر فعلياً ومجازياً أيضاً. يشهد على ذلك السجين السيد «ي» (المقابلة ١١) الذي يقول إنه لا يستطيع النوم في هذه الغرفة لأن لا مكان لديه. فهو في الميدان وليس لديه «يطق».

مساحة النوم

لكل سجين مساحة، تحددها القوانين بمقدار٦٠ سم. لكن الظروف العملية تملي قوانين أخرى أيضاً كما قال السيد «ع». إذ أخبرني أنه لا يمتلك سوى ٤٥ سم، فلحجم الشخص دوره هنا أيضاً، فمن يكون ضخم «الجثة» يحتاج حكماً إلى مساحة أكبر من تلك التي يحتاجها من هو أصغر حجماً أو مكانة أيضاً. فكما أن هناك من يقوم بخدمة بعض السجناء بسبب مكانتهم الاجتماعية، هناك أيضاً من يضيق مساحته قليلاً

كي يفسح في المجال لأحدهم بأن يأخذ راحته أكثر، إذا أمكن تصور وجود راحة ما في مثل هذا السجن المكتظ أو أي سجن آخر. كذلك قال السجين السيد «خ» (المقابلة ١٣) إنه امتلك في البداية مساحة بلاطتين (أي ٤٠ سم)، «أما الآن فقد أكرموني وصار عندي ثلاث بلاطات (٦٠سم). ولأنني مريض وأعاني من الديسك أنام على «يطق» مريح قرب الزاوية تحت الرف، هذا يعني أنني لا ألتصق بالآخرين على الأقل من ناحية الحائط».

مجموعات مناطقية

يقعد المساجين (لأن فعل جلس يتطلب وجود كرسي وهذا ما لا تعرفه الزنزانات) بحسب مجموعات. كل مجموعة تتكون من ثلاثة أو أربعة أو خمسة يتجمعون مع بعضهم البعض، يشكلون سفرة، أي يتناولون طعامهم مع بعض وذلك بحسب المعرفة أو المنطقة (كما قال لي السيد «ع» مقابلة ١٥). ذلك يعني خلق نوع من الود، إذ إنهم يتقاسمون الخبز والملح. قد يتجمع أحياناً حوالي خمسة عشر شخصاً مع بعضهم البعض. خاصة أهل البقاع فهم يتكتلون دائماً بأعداد كبيرة، أهل الجنوب أيضاً يفعلون ذلك. عندما لا يتجمع السجناء بحسب المنطقة أو الطائفة، يتجمعون بحسب المزاج، أي يجلس واحدهم إلى من يرتاح إليه شخصياً. يبرز هنا نوعان من الأشخاص، كما هي حال المجتمع اللبناني، الاشخاص ـ الافراد أي الذين ينتمون الى أنفسهم، والاشخاص المنتمون إلى الجماعة التي تحدد هويتهم ومزاجهم كما اهتماماتهم.

تشكيلات الغرف وتغيير أمكنة المساجين

وجد السيد «ج» (المقابلة ١٤) أن سجن بيروت هو جهنم وذلك لأسباب عدة. يوافقه على ذلك السيد «ض» (المقابلة ٤) الذي يفضل هو أيضاً سجن رومية لأنه يمكن رؤية الشمس هناك والتمتع بالهواء النقي، وأن الاشياء الممنوعة فيه أقل مما هي عليه في سجن بيروت. كما أن مقابلة الاسرة تمتد حتى الساعة من الوقت بسبب اتساع المكان. أما في سجن بيروت فهي لمدة ربع ساعة فقط بسبب الازدحام. يضيف السيد «ج» على ما سبق، الأثر السيئ للتكتلات المناطقية والطائفية الحاصلة عملياً

واشتدادها بسبب الحرب. السيد «ج» من طائفة أخرى أقلوية بالنسبة لمعظم السجناء في سجن بيروت. لذا يشعر بالوحدة وبعدم الانتماء وكان يفضل البقاء في سجن رومية الذي نقل منه لاسباب تأديبية كما سوف نوضح لاحقاً. ومن الترتيبات الإدارية المتبعة في سجن بيروت إجراء تبديل في الغرف مرة كل شهر. ويبدو أن هذا الأمر الذي يفسره السيد «ج» بأنه لمجرد «تعذيب» المساجين، هو كي لا تتم تكتلات معينة بين السجناء وكي لا يتحالف بعضهم مع بعض، خاصة أن سياسة إدارة السجن هي ضمناً «فرّق تسد» كما سبق وأوضحنا. أخبرني السيد «ج» أنه في سجنه السابق كان يمكن له أن يطلب نقل سجين من غرفته «يكون ما إجا راسي على راسه»، أي لم يتفق معه. لكن هذا ممنوع في سجن بيروت والتبديلات تحصل بشكل مستمر، مما يزيد وظيفة السجن حدة ويجعل من الإلفة والصحبة والاعتياد، أمنيات بعيدة المنال. لذا يوضّب السجين أغراضه مرة في كل شهر ويتم نقله إلى غرفة أخرى ومع سجناء آخرين. هذه الطريقة تسهل التكتلات المناطقية والطائفية كما رأينا ولا تتمكن من منعها. إنها تسهل سبل الإجتماع الجمعي والعضوي وتستبعد تسهيل حياة الفرد بالمعنى الحديث للكلمة عندما يحصل على صديق له، أو رفيق. من الملفت أن بعض المدارس في لبنان، حيث يتوافر عدة شعب للصف الواحد، يمارس هذا النظام سنوياً!

الخدمة:

في التنظيم الداخلي للسجن هناك من يعرفون بالخدم. عرفت ذلك بعد أن استعلمت عن سبب رؤيتي لبعض السجناء في الممرات بشكل دائم مع أنه من المفروض أن يلزموا غرفهم التي تظل مغلقة طوال الوقت. قيل لي عندها إنهم يقومون بالخدمة، أي يوزعون الطعام وأشياء أخرى. يتم الحصول على هذه المهمة بالدور كما قيل لي، فيسأل في أول كل شهر من يريد الخدمة؟ ويعلن رغبته من يريد ذلك. لكن يراعى أن لا يكون قد خدم في الشهر الذي سبقه. وتعد هذه الخدمة لمصلحة السجين، لأنه بحسب السيد «ع»: يخرج من الغرفة ويتمرن بواسطة المشي طوال النهار، فيحرك دمه.

أخبرني السيد «خ» (المقابلة رقم ١٣) أن الخدم هم من السجناء الذين لا

يزورهم أحد، أو الذين أهلهم «ضعاف». أي أنهم ولو قاموا بزيارتهم فهم يأتون بأيدي «مطوطحة»، أي فارغة. إنهم ما يسمى بـ«المقاطيع». «أمّ فلان مثلاً تأتي لزيارته وليس باستطاعتها إحضار علبة دخان واحدة له»! ويرى هذا السجين أن أكثرية المساجين من هذا «النوع المسكين». وهم يمثلون برأيه حوالي ٧٠٪ من المجموع ويقومون بالخدمة كي يحصل واحدهم على مصروفه اليومي وسجائره.

الضوء والماء والهواء والرطوبة

الغرف مضاءة كل الوقت، لكن المفارقة أن هذه الاضاءة لا تكفي للقضاء على عتمة بعض الغرف وقتامتها. شكا السجناء من العتمة خاصة في الطابق السفلي من السجن ويبدو تحت مستوى الارض (إذ إنني لم أره). عندما كان السجين السيد «ج» (المقابلة ١٤) يشرح لي كيفية تقسيم الغرف وقمنا برسم واحدة، أشار بإصبعه إلى زاوية الورقة وقال لي: هذه الزاوية سيئة لأنها ترشح ماء. يشكو الجميع من سوء الظروف الصحية في سجن بيروت ومن رطوبته، حتى رجال الأمن أبدوا استياءهم وأعربوا عن أنهم يعانون الظروف السيئة مثل السجناء وأن الذي يفرز إلى السجن منهم تكون تنقصه الواسطة. الغرف في السجن بحاجة إلى إعادة تأهيل جذرية، هناك من يقترح هدم هذا السجن.

تتم الشكوى من الماء المستخدم في السجن، ماء الشرب وماء الاستخدام، هناك حاجة لتركيب فيلترات بحسب السجين السيد «ع» (المقابلة ١٥): «فإذا تركتِ الماء في قنينة لفترة يومين لترسّب ثلثاها ماء عكراً وكلساً، الماء «كلس على الحل» تسبب بتيبيس شعرنا ويتسبب بتقشير البشرة وحرقة في العينين. أعتقد أن معظم أمراضنا من الماء والرطوبة في السجن؛ أنا شخصياً أعاني من مرض في كلاويّ والكثير هنا يصاب بذلك. لذا أداوي نفسي بكوب زيت على الريق في الصباح. كذلك أتضايق من قلة الهواء، يغلق الباب معظم الأحيان ولذلك نشعر بنقص فيه. يحاول المراقب العام فتح الباب ويقول لهم: يا شباب سوف أفتح الباب كي تتنفسوا فلا تتركوا غرفكم. ولكنهم سرعان ما يصبحون خارجها، فيعيد إغلاق الباب ونعاني النقص في الأوكسيجين بالرغم من وجود الشفاطات (المراوح)».

القَلِق:

يقول السيد «ع» (المقابلة ١٥): «لا نستطيع أن نتعاطى مع الجميع، هناك من هم «أوادم» ويمكن التعاطي معهم لكن هناك من نسميه «القلِق» أي الأزعر. مثلاً عندما يأتي الصيدلي إلى الشباك لاعطاء أحدهم حبة دواء، ينط هو ويقول أنا رأسي يؤلمني أعطني حبة. عند توزيع الشاي، يقول إنسكبت حصتي كي يأخذ حصة ثانية، حصة غيره. هم حوالي خمس وعشرين سجيناً هنا في السجن. يتعلق عدد القلقين وتكاثرهم بشخصية الشاويش، فعندما يعرف هذا الأخير كيف يسيّر الأمور يكون باستطاعته السيطرة على هؤلاء بالمحبة وبالاحسان والتفاهم. وعندما يكون في الغرفة قلِق واحد فقط، تقوم كل الغرفة ضده فيضطر أن يسكت ويهدأ. لكن عندما تكون شخصية الشاويش ضعيفة تتزايد أعداد القلقين، أي أنهم يغارون من بعضهم البعض وتفلت القصة. إنحبست سنتين لم أشعر بهما قدر ما شعرت الشهر الماضي في غرفة الشاويش المدعو ... إنه مسكين كبير في السن ولا شخصية له ويعمل في الارض. على الشاويش الانتباه لأن الشخص القلِق قد يستغل أقل شيء، بإمكانه مثلاً إشعال الغرفة بقداحة أو كسر نظارات أحدهم واستعمالها كشفرة. نحن إيضاً بإمكاننا المساعدة على ضبط القلِق بالانتباه له.

السجناء كائنات إنسانية واجتماعية

تعريف بحالات السجناء

أوردت الحالات بالتتابع الذي أجريت وفقه المقابلات بالصدفة ودون أي ترتيب، وأستعمل حرفاً واحداً من اسم السجين للدلالة عليه مع رقم المقابلة كي يمكن العودة إلى الحالة والمقارنة أو إعادة تكوين قصة السجين إذا ارتؤي ذلك. كذلك أتحاشى أي معلومات يمكن أن تدل على هوية السجين أو أسرته أو قريته.

المقابلة رقم ١ ـ السيد «ح»:

في مطلع عشريناته، يبدو شاباً لطيفاً، يتكلم بسهولة ويبدو منفتحاً ويحب أن يعبّر عن نفسه ويفعل ذلك بطلاقة وبشيء من الثقة بمحدثه. كأنه نموذج الانسان العادي (بمعنى السوي). متوسط المظهر والسلوك والأفكار، بمعنى الامتثال. أراد أن يقول لي أنه تعلّم من سجنه. كما أنه أوقف التدخين في السجن. رأيته مرة بعد خروجه من السجن لأنه كان في نهاية مدته عندما قابلته، كان يريد الحصول على ورقة من إدارة السجن، بدا مرتاحاً أيضاً وأموره على ما يرام.

عمر السيد «ح» الآن (عند مقابلته طبعاً) ٢٢ عاماً. بدّل ثلاثة أعمال قبل دخوله السجن. عمل في البداية في إصلاح الموتوسيكلات، ثم في شركة تعهدات كهربائية، إلى أن استقر في العمل لمدة ٦ أشهر قبل القبض عليه، في أحد التلفزيونات المحلية، حيث ساعد في توظيفه مهندس تعرّف إليه في عمله السابق: «إلحق الكَبير تكبر».

يقضي نهاية عقوبة الثلاث سنوات التي حكم فيها بسبب مشاركته في سرقة ذهب (يقول إنه لم يسرق ولكنه كان بصحبة صديقه الذي سرق وادّعى بمشاركته إيّاه في الجرم). كان تلميذاً مجداً ويحب المدرسة حتى حوالي العاشرة من عمره. بعد الاجتياح اضطر والده لنقله من مدرسته التي

تقع في محيط المتحف إلى أخرى تقع في منطقة متجانسة. واضطر إلى نقله مرة أخرى، بعيداً هذه المرة عن محيط الاشتباكات المحلية.

بدأ في هذه الفترة تدهوره المدرسي ولم يعد يرغب بالمدرسة. بدأ سيرة الهروب منها مع رفاق له، للعب والكزدرة في البداية، ثم للقيام بسرقات صغيرة من محال السندويش بنوع من تجريب للفهلوة والشطارة. وكان قد سبق ذلك فقدانه لوالدته بسبب مرضٍ ألمّ بها (سكري، نزيف وإلتهابات). عندما ترك المدرسة الأولى كان في حوالي التاسعة من عمره وظل يواظب على المدرسة الجديدة دون أن يحبها حتى الصف التكميلي الثاني. عندئذ طلب من والده أن يعمل وكان وضعهم المالي قد تدهور، فلم يقبل الوالد أن يترك الابن المدرسة. وظل ذهابه إليها متقطعاً حتى الخامسة عشرة من عمره حيث بدأ الأب يلحق به من مكان إلى آخر، بعد أن بدأ سلسلة الأعمال الصغيرة المتقطعة والتلهي في أماكن التسلية. عمل الأب في مقهى يملكه في هذه الأثناء ويبدو أنه تعب بعد ذلك ومكث في البيت إلى أن توفي وبقي السيد «ح» يتيماً قبل بلوغه سن الرشد. يقول إن والده كان كل شيء بالنسبة إليه، وإنه كان رفيقه.

المقابلة رقم ٢ـ السيد «م»:

السيد «م»، في الأربعين، قصير القامة، يتكلم بانفعال، ويصرّ طوال الوقت على أنه مظلوم. قَبِلَ مقابلتي فقط من أجل عرض قضيته وإظهار الغبن والظلم اللذين لحقا به، ومن أجل حقوق الانسان كما قال. لا يتوسّع في الإجابة عن أي من الأسئلة المتعلقة بأسرته أو بأحواله الاجتماعية. يتكلم كعقائدي، أو كمن يلقي درساً ولا رجعة بكلامه وواثق من نفسه. يحاول التعبير عن حكمة مضمرة في رؤيته للعالم. خاف كثيراً من كل شيء حاولت تدوينه، لم يعط أي أهمية لآلة التسجيل، فقط للكلمة المكتوبة، وكأن السحر في الكتابة فقط، أما الكلام فهو يومي وعادي. لديه الكثير من المحطات الكلامية: «يعني؛ بدّك تقولي». ذكاء السيد «م» من النوع العادي واليقيني، الذي يخدم فكرة واحدة إلتزم بها ولن يحيد عنها من الآن وصاعداً. ذكاؤه دون قلق ودون تساؤل، بديهي وكأنه «التقطه» فجأة وسرّ به وتمسّك به هو نفسه. إذ إن أي تغير قد يهدم ما تم بناؤه حتى الآن. شكى السيد «م» من

شاويش الزنزانة. أي الشخص نفسه الذي أجريت معه المقابلة. يعمل سائق تاكسي (نمرة عمومية) ويتاجر أحياناً بالآثار القديمة، يعيش في مدينة صغيرة قرب بيروت. كان قائد فرقة مقاتلة في الجبل، تابعة للحزب التقدمي الاشتراكي.

المقابلة رقم ٣ ـ السيد «أ»:

السيد «أ» في حوالي الأربعين، يميل إلى الطول ولا يزال يتمتع برشاقة ما برغم السجن. من أهالي بيروت. شديد الثقة بنفسه ونرجسي. يتصرف على أنه ساحر، ساحر نساء خاصة. يحافظ على آثار أناقة، لا ينقصها سوى لمسة المكوى. لا أدري لماذا تهيأ لي أن هذا ما ينقص ملامح وجهه أيضاً، ربما بسبب قلة النوم! يشكو كثيراً من آثار السجن. يتكلم بسهولة وعفوية، ربما كي يمضي الوقت ويتسلى إذ أحسست أحياناً أنه يكذب. لكنه كان صادقاً تماماً في بعض الأحيان حيث تهيأ لي أنه فكر بصوت عالٍ. يفكر بأعماله ويخطط لتحسينها وهو في السجن. يحسن معاملة السجناء لأنهم «زبائن محتملين». درس الطيران ومارسه. سافر إلى أحد بلدان أميركا الوسطى المعروفة بثوريتها، ويقول إنه كان ممثلاً لهذا البلد. يمارس التجارة ولديه مكتب وعدة موظفين.

المقابلة رقم ٤ ـ السيد «ض»:

معتدل القامة وفي حوالي الثلاثين. من دون علامات لافتة. تكلم بصوت منخفض جداً، وكأنه يخجل من أن يستجوب كسجين. يجيب باقتصاد كبير، متماسك وشديد الحذر. لا شيء ملفت عنده. يعبر عن انتماء امتثالي للأسرة ولما تقوم به، ولكنه لا يقبل أن يطبقها على أولاده، صبياناً وبناتاً. لم يعط أي معلومات خاصة، ولم يتكلم بعفوية، ينتمي إلى مجتمع عشائري يؤمن بالثأر. يحاول تبرئة نفسه طوال الوقت. ظروف سجنه جعلته متناقض الآراء حول علاقات الجيرة والقربى والصداقة التي لم يعد يثق بها، لكنه يجدها ملجأه الأول والأخير في الوقت نفسه. عمل مع والده في الزراعة، لكن بما أن الزراعة مواسم ولا تكفي دائماً وتتعرض للجفاف، يسافر والده من وقتٍ إلى آخر، حيث يعمل في الخليج في ديكورات الجفصين.

المقابلة رقم ٥ ـ السيد «ن»:

في العشرين من العمر، نحيل جداً أو بالأحرى دقيق الملامح، يبدو أقرب إلى المراهق منه إلى الشاب. يعاني من اصفرار يتهيأ لك أنه ليس من طبيعته مع عينيه الفاتحتين والأقرب إلى الخضرة وشقرته الواضحة. له شخصية ملفتة، يشد انتباه الآخرين إليه ويستطيع إقامة صلة معهم بسهولة وسرعة فائقتين. يتدفق الكلام منه بسهولة، أحب التعبير عن نفسه وهو من طلب التحدث معي، أو أنه دخل الحوار من تلقاء نفسه، وكأنه بحاجة ماسة «للتفريغ»، أو «التفريج». حيويته كانت علامة فارقة مقارنة مع الشخص الذي كنت أجري معه المقابلة (المقابلة ٤) والذي اتسم حديثه بتحفظ الانسان السوي الذي تعطيه أسرته وعشيرته دعماً وسنداً قويين، مما يقيه ويدعمه ضد كل المؤثرات الخارجية الواقعة فعلاً أو التي في قيد الاحتمال. فتمر عليه هذه المؤثرات كما تمر نقاط الماء على قماش شمعي. فتبدو ثقته «طبيعية» أو «بديهية» كما هي الأمور السهلة التي لم تتطلب جهد التفكير والقلق.

يبدو «ن» مقابله وكأنه أكثر تنبهاً لما يدور حوله كي يلتقطه ويدخله إلى عالمه لاستعداده لقبول كل ما هو جديد. مع أن «ض» أكثر ذكاءً على الأرجح، لكن «ن» لا ثقة له في الحياة ولا يريد منها شيئاً كثيراً، ما يفسر طواعيته الظاهرة. «ن» يتعاطى المخدرات. لا مهنة محددة لديه، عمل لفترة عند معلم لحدادة السيارات، لكنه سرعان ما تركه. «ن» من أصول كردية.

المقابلة رقم ٦ ـ السيد «غ»:

يشكو كثيراً، شكواه تشبه شكوى الطفل. يقول إنه متعب نفسياً وقليل الأكل. وهو هزيل الجسم ويتكلم على مهل. يميل إلى الطول. لا يبدو ذكياً ولا يتحكّم بعضلات وجهه كثيراً بحيث تبدو هذه أقرب إلى الارتخاء أحياناً. لا يفهم بعض الأسئلة، خاصة تلك التي لها علاقة بقيم مجردة أو معايير. يجرك دائماً إلى الواقع المباشر. يتحدث بسهولة لكن أجوبته دائماً بحسب فهمه لها وقدرته على تقدير الأمور. يردد آخر كلمة قيلت للموافقة عليها. يشعرك أنه تحت تأثير شيء ما، أو كأنه مستلب. له من العمر ٢٨ عاماً. عمل في مهنة تركيب زجاج للمنازل مع والده، هي مهنة راجت في الحرب. لكنه تركها بسبب المنافسة ويهتم حالياً ببيع خضار وفاكهة مستوردة. «غ» من سكان وأهالي ضاحية بيروتية.

المقابلة رقم ٧ـ السيد «ش»:

وقف «ش» مبتسماً قرب الباب، وقال إنه يود إجراء حديث هو أيضاً. كان يرتدي ملابس رياضية بيضاء كانت ستبدو أنيقة جداً لولا أن بياضها مشبوه وأنها فقدت رونقها واللمسة التي يعطيها المكوى. لكنه السجن! فقد بدا هذا الشاب شديد السمرة، شديد الثقة بالنفس وكأنه كان يتمتع بلياقة وأناقة أكيدتين، لكن لم يبق منها سوى لياقة خفية تكتشفها من أول لمحة وتعود فتتأكد منها عند مجالستك له.

شديد السيطرة على نفسه وعلى أعصابه، وهو من شدة تحكمه في عضلات وجهه وصل به الأمر إلى منع حركات صفحة الوجه، وانتقلت هذه الحركات إلى مناطق جديدة لا تتحرّك عند الناس عادة؛ تتحرك أذناه، تتحرك وحدها بشكل يثير الغرابة. بينما يصمت ويمنع توتر زوايا فمه وحركة عضلات خديه. يعرف مدى تأثيره على الآخرين، ويبدو أنه طالما استغل ذلك. يجعلك تسأل وتستنتج ما تريد؛ ويصمت أو يرد بضحكة ويعيدك إلى النقطة التي تهمه. وعندما تمارس عليه لعبته، يتقبل الأمر، فهو يعي أنه ليس سوى سجين الآن. لكن ثقة السيد «ش» ثقة مختلفة بشدة عن ثقة السيد «ض» (مقابلة ٤)، إنها ثقة إنسان يضع كل شيء موضع الشك وهي ناتجة عن قلق وتساؤل، وعن اقتناع بتساوي الأمور وفقدان الأمل بطهارة الأشياء وتمامها أو إطلاقيتها. إنها ثقة ناجمة عن الشك وعن استصغار أمور الحياة وساكنيها وعن فقدان للأمل. بينما ثقة السيد «ض» ثقة يقينية ومطمئنة لولا حيرة مستجدة. عمل لفترة في فرن مع أن لوالده مقهى يعمل فيه. ذلك أنه يرفض أن يخدم الناس. وهو كان قائد فرقة مقاومة في الجنوب. تنقّل بين عدة فرق حزبيّة.

المقابلة رقم ٨ ـ السيد «س»:

في الثلاثين، رياضي وطويل ومتين البنية. منفتح وذكي. له نظرة واثقة وتوحي بالثقة. العلاقة معه مريحة، يتجاوب في الحوار ويبدو ذكياً ومنفتحاً. قرأ الكثير من الكتب ويبدو هذا في حديثه وفي طريقة تعاطيه مع الأمور. عنده معاناة خفية، مدمن على المخدرات. لكن معاناته تتخطى هذا الأمر على ما أعتقد أو ربما هو أدمن المخدرات بسبب معاناة ما

لم أتوصل إلى معرفتها، إذ إن هناك فئة من البشر تولد مع جرحها الخفي. وصل في تعليمه إلى المرحلة المتوسطة، لكنه يقول إنه يعرف أكثر من ذلك لأنه يواظب على القراءة. وهو يعي أنه يعاني أكثر من الآخرين مع أنه لا يُظهر ذلك. يقول «زعلي في قلبي لا أبكي كغيري، أتضايق أكثر منهم لكنني أكتم ذلك». يعبّر عن نفسه بالكتابة وبالشعر. طلب مني أن أجلب له أقلاماً وورقاً للكتابة، أهداني بعض ما كتبه من أشعار وخواطر ورسائل لزوجته. عمل في الحراسة في أحد النوادي المهمة في البلد.

المقابلة رقم ٩ ـ السيد «ط»:

قصير القامة، في الثلاثينات من العمر، يبدو للوهلة الأولى كسمسار أو كشخص لديه شيء منفر. لكن عند معرفته أكثر يزول هذا الانطباع. هناك سجين (المقابلة ١٣) يعتبره من أفضل السجناء وقريب لأن يكون صديقاً. يتحدث بشغف، يلفك بمشكلته لفاً ولا تعود قادراً على الخروج منها أو توجيه أي سؤال يهمك أنت. مهما فعلت سرعان ما يعود إلى مشكلة إبنه الصغير وقصة مرضه. إنه أقرب ما يكون إلى الهجاسي، وحكايته أيضاً تعبّر عن ذلك. يجعل من مسألته مسألة تجاوزية، يتجاهل الناحية المظلمة من تهمته، يعترف بها وكأنها الحل الوحيد الممكن الذي كان أمامه، أو الذي كان ينبغي عليه اختياره. عمل في الديكور في الخليج ثم في لبنان قبل أن يتدهور وضعه بسبب مرض ابنه الصغير.

المقابلة رقم ١٠ ـ السيد «ز»:

هو شاويش الغرفة الذي أجريت معه المقابلة. تعدى الثلاثين، متعلّم وذكي. قوي الشخصية ليس باستطاعتك زحزحته قيد أنملة عن معتقداته الكثيرة. لا يرغب بالتورط بإعطاء أية معلومات لا يريد فعلياً تسريبها هو بنفسه. تكلم معي شكلياً لعدم وجود ذريعة مقنعة للرفض، أي بأسلوب من «يتخلّص» من المقابلة بإجرائها شكلياً. يراقبني طوال الوقت متنبهاً إلى «غاياتي المضمرة». ممثل ومداهن للسلطة. عمل في ميدان اختصاصه في الهندسة. سافر كثيراً بسبب هواياته الرياضية وانتسابه إلى فرق رياضية كما قال. تم توقيفه في أوروبا أيضاً، لكن لمدة أيام فقط.

المقابلة رقم ١١ ـ السيد «ي»:

في منتصف العشرينات. عادي بكل معنى الكلمة، لا علامات لافتة لديه، سوى ورعه الجديد وتأثره بالتيار الاسلامي وندمه على ما فاته من ابتعاد عن الايمان الروحي والقناعة التي بدونهما لن يستطيع الخروج من جناحه. هذا الجناح الذي يرجعه هو نفسه إلى مغريات الحياة الاستهلاكية ورغبته في امتلاك ما يحيط به من عروض، يشعر بانتقاص في كينونته إذا ما بقي مستبعداً عنها. تكلم بسهولة وبشكل عادي، هو من الأشخاص الذين وجدوا راحة في التعبير عن أنفسهم، كما أنه أبدى تخوفه صراحة من الخروج من السجن عندما يحين الوقت لعدم تأكده من مناعته أمام الاغراءات المعتادة إذا هو خرج منه. يعمل إخوته في مهنة التريكو مع الوالد. لم يقبل هو العمل في هذا الميدان. عمل في فرن بسبب الأجر الكبير الذي يتقاضاه عامل الفرن من دون أي اختصاص أو مهارة. يرجع وضعه إلى العمل في الأفران المسبب للفلتان برأيه.

المقابلة رقم ١٢ ـ السيد «ف»:

إنه من الأشخاص الذين أرادوا هم مقابلتي من أجل عرض قضيتهم، أي أنه من أصحاب «القضايا» الذين لا يهتمون سوى بما يريدون هم إبلاغك إياه، تماماً مثل المقابلة رقم ٩، ورقم ٧، ورقم ٢. هو رجل في الخمسين، تقليدي جداً، رب عائلة عادي، أمضى المقابلة وهو يشكو لي ظلمه ويعلن براءته، وسرد لي حكايته بطريقة غير مقنعة ولم يستطع سد فجوات كثيرة. أي إن براءته لم تبد بالبديهية التي حاول إظهارها بها ولا يتوصل إلى القبض على اهتمامك أو تعاطفك. لم ينه المقابلة في كل مرة دون أن يطلب مني توفير محامٍ له، يتعهد بتسديد أتعابه عندما يفرج عنه. يشكو عدم مقدرته على توفير محامٍ له بينما يزعم أنه يعمل وأسرته في المقاولات ويملك أراضي وبنايات.

المقابلة رقم ١٣ ـ السيد «خ»:

تخطّى الثلاثين، يبدو شاباً هادئاً ومثقفاً وحسن التربية، كأنه في غير محله. طريقة كلامه وحركاته وإيماءاته كلها تحمل طابعاً مميزاً. يعرض قضيته بشكل منطقي، هو الذي يعتبر السيد «ط» (مقابلة ٩) صديقه

ويجده مختلفاً عن الآخرين. يعترف بالسذاجة التي أدخلته السجن لضلوعه في قضية معقدة لم ينتبه إلى أبعادها كما يجب. يقضي عقوبته بالتي هي أحسن، دون انتظار أي معجزة، سوى الاستفادة من تجربته. يعمل في ميدان المحاسبة ودراسته جامعية.

المقابلة رقم ١٤ ـ السيد «ج»:

في أواخر العشرينات، يبدو شاباً وسيماً، ربما ليس لأنه أكثر وسامة من غيره، لكن لأنه يرغب بتقديم نفسه كذلك، عبر جسمه الرياضي وبنيته القوية. يتكلم على مهل ولا يتدفق الكلام منه بسهولة، وكأنه يريد التفكير بروية في ما يقوله، أو كأنه يعاني نوعاً من اللزوجة في الكلام. قد يكون مدمناً على المخدرات لكنه لم يشر إلى ذلك ولا مرة. يجيب كثيراً ب «نعم» أو «إيه»، ولديه محطات كلامية عدة: هلّق؛ يعني...

يبدو متشرباً للعادات والتقاليد الأسرية، ربما بسبب قسوة السجن، إذ انه ذكر لي العديد من الأمثلة على مزاجه الفرداني وحبه للوحدة. صريح ومنفتح ومستعد للاجابة عن كل الأسئلة. جسمه مغطى بالوشم، ويعد هذا الأمر من تقاليد سجن رومية التي عاينتها بنفسي. يقول لي إنها عادة وإن هناك من يفخر في أن يغطي كامل جسمه بالرسومات وأن هذا يعدّ نوعاً من الهواية والتباري في الغوى. أفادتني مقابلته في معرفة الكثير من خصوصيات السجن والعلاقات السوسيولوجية فيه. إلتحق بالقوات اللبنانية منذ كان بعمر السادسة عشرة. لم يتعلم مهنة محددة، رفض الكثير من العروض للقيام بأشغال لم يجدها مناسبة له، رفض شراء وبيع أشياء مسروقة؛ كما أنه رفض السفر. عمل أخيراً في تركيب ورق جدران وموكيت في شركة: «وجدني المعلم قد حالي صار يسمح لي بالذهاب الى المنازل وحدي». جسم السيد «ج» مغطى بالوشم، بدأ بالرسم على جسمه قبل دخوله إلى السجن وأكمل العمل في السجن. يقول: «صارت عندي مثل موهبة في جسمي. أنا أجدها عادية. أنا باستطاعتي أن أرسم وأدق وكل شيء، وهي تحتاج إلى حبر خاص. هذه الموضة دارجة في سجن رومية. يعني كل واحد يمر في ظروف صعبة شوي فيدق رمزاً لها، أي يدق شيئاً مقابلاً لها. هناك البعض عندهم إياها موهبة، وهناك من يجدها فرجة. بالنسبة لي هي «سلبة» (يقصد

إستلاب). ثم هناك مجلات متخصصة تأتي من الخارج عن الدق والـ tatouage ، أحياناً ينزل البعض في مباراة بينهم، كم دقة صار عند الواحد منهم: على الوجه وعلى الرأس هناك من لا يظهر جلده لكثرة الرسومات عليه».

المقابلة رقم ١٥ـ السيد «ع»:

في الثلاثينيات من عمره. النظرة الأولى تظهر شخصاً أقرب إلى العامل منه إلى شخص آخر. يداه مبيضتان من أعمال الخدمة، يبدو قنوعاً للوهلة الأولى. لكن تدرج الكلام ومتابعة المقابلة تظهر أوجهه الأخرى وجوانب شخصيته المتعددة . ذكي، أفادتني المقابلة معه في التقاط خصوصيات الزنزانة من الناحية السوسيولوجية أكثر من أي سجين آخر، ما عدا «ج» المقابلة رقم ١٤ ، ربما بسبب عمله السابق كضابط استخبارات في المقاومة الفلسطينية. مستعد للكلام وللتعبير عن نفسه بصراحة وانفتاح. يتكلم بسهولة ودقة، وعند انتهاء المقابلة يكون أصبح شخصاً آخر غير الذي بدأت الحديث معه. تعلم هندسة الميكانيك في الدورات التي كانت تقيمها الدول الاشتراكية لعناصر المقاومة الفلسطينية وضباطها، لكن ليس باستطاعته الحصول على معادلات أكاديمية لشهاداته. مارس مهنة التدريب على تفكيك المتفجرات وعلى استخدام مضادات الطائرات. وهو من أهالي الضاحية البيروتية نفسها التي ينتمي إليها «غ» (المقابلة ٦).

من هم هؤلاء؟

أحاول هنا التقاط المؤشرات التي قد تكون ساهمت في وصول السجين إلى ما هو عليه، ربما نجحت أحياناً وربما لم أفعل في أحيان أخرى. مع الاشارة إلى أن ظروفاً مشابهة قد تكون طرأت لأفراد آخرين لكن ذلك لم يجرّهم إلى تجربة الفوضى والجناح!

سبق أن أشرت إلى توقعات زائر السجن أن يكون نزلاؤه مختلفين عن سائر الخلق وأنهم أدنى مرتبة ممن هم خارجه، فيهم شيء وحشي أو لنقل بريّاً. إذ إن النظرة المثالية، السهلة والشائعة أن الانسان هو إنسان، أي بريء ودمث ومجانب للعنف. فالعنف صفة تطال آلهة الاغريق عندما تطالب بالانتقام، وتطال الحيوان أيضاً (ناقش هذه النظرة ودحضها كونراد

لورنز) والسجناء. اما الانسان فقد غلّف عنفه ودثّره بألف قناع وقناع، جعل من الأضاحي على أنواعها حجاباً كثيفاً يستر العنف خلفه ويمنع ظهوره فاعتقد نفسه عندها خالياً من العنف. (أنظر كتاب رينيه جيرار الأخاذ: العنف والمقدّس).

النظرة إلى النفس، أجد نفسي مميزاً:

الدهشة الأولى التي تطال زائر السجن إذن، اكتشافه أن السجناء بشر غير مختلفين، أي أنهم يشبهوننا وضعاف. الدهشة الثانية التي أصابتني، بعد أن أجريت معهم أحاديثي المطولة لعمل سِير لـ ١٥ سجيناً، كان اكتشافي أن أعداداً لا بأس بها منهم.ينظرون إلى أنفسهم كبشر مميزين يتمتعون بعلاقة خاصة مع أحد الوالدين أو مع كليهما. تنطبق هذه الحال على المقابلات التالية: ٣ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ١١ ـ ١٣ ـ ١٤ أي أن ثمانية سجناء من أصل ١٥ يجدون أنفسهم يتمتعون بمعاملة خاصة، أو أن لديهم ميزات خاصة. هذا مع أنني أغفلت المقابلة رقم واحد والتي تمتّع صاحبها حكماً بمعاملة خاصة كونه وحيد والديه، وهو وصف والده بأنه كان حنوناً جداً. فيصبح عدد المميزين ٩ من ١٥. هذا دون أخذ وجهة نظر السيد «ط» (المقابلة ٩) الذي لم يجبني كثيراً عن هذه الاسئلة لانشغاله عنها أصلاً بقضيته الشخصية، أو السيد «ف» (المقابلة ١٢) الذي انشغل بإثبات براءته وتدبير محامٍ، أو شاويش الغرفة المتحفظ.

يصف السيد «أ» (المقابلة ٣) علاقته بإخوته أنها «حرب». لماذا؟ «لأنني كنت مدلّعاً كثيراً من أهلي وما زلت، إنني الإبن المُفضّل عندهم. حصل مع والدي أمر خاص جعله يعاملني معاملة خاصة، إذ إنه رأى مناماً، وهو رجل مؤمن، رآني وأحبني قبل أن أولد. لم يكن يرى فيّ أيّ غلط وكان يتطلّب مني أن أكون ممتازاً في المدرسة ولا يسامحني إذا تأخرت. كنت أخرج من البيت وأغيب ليومين أو ثلاثة ولا يقاصصني، عكس أخوتي. كنت أسافر إلى أثينا أو تايلاند ويقول لي: لا بأس يا بابا إبق وأنا أحوّل لك المال».

للسيد «أ» ثقة مفرطة في النفس فهو يعتبر نفسه «فاحش» الذكاء، يقول: «أنا عامل ماجيستير كمبيوتر وعامل Test، عندي ذكاء ٧٪، يعني أرسطو عنده ذكاء ٩٪ (ولكي أفهم معنى ذلك يقارن كالتالي): يعني

سيدنا عيسى والنبي محمد يستعملان من ذكائهما ١٠ أو ١١٪، الشعب الأطلنتي كان يستعمل ١٨ أو ٢٣٪ من ذكائه». عن قراءاته أجاب: «أنا لا أقرأ، لكن هوايتي الثقافة، عندي ثقافة زائدة، أنا «أفلطِن» أكثر من أفلاطون، أضع أفلاطون على يميني وأرسطو على يساري». يعتبر علاقاته بالنساء ناجحة جداً، يقول: «أعرف ماذا تريد المرأة وأعرف ماذا تريد الفتاة، Sorry، أنا أحب النساء، أحب جنسكن (يقول إنه تزوج من ١٦ امرأة)، الآن أضع إمرأة في رأسي، إمرأة ذات شأن كبير وسوف أتوصل إليها وأتزوجها عندما أخرج (عندها قلت له مازحة: سوف آخذ عنوانك كي أتأكد من حصول هذا الأمر فيما بعد، فما كان منه إلاّ أن أجابني: دون أن تأخذي عنواني، وحياة عينيك، عنواني صار في عينيكِ)!

لا يختلف رأي السيد «ن» (مقابلة ٥)، إذ يروي: «أخي الكبير الذي اغتيل في الحرب كان يحبني كثيراً، أكثر شي. كان شعري طويلاً يصل إلى كتفي («ن» بهيّ الطلعة ووسيم وشعره أشقر) هكذا أرادوا في البيت أن يتركوا شعري طويلاً. كان أخي يعزّني بشكل خاص وكان يأخذني معه إلى كل مكان يذهب إليه، إلى مسبح عجرم على ما أذكر». (شكّل موت هذا الأخ جرحاً نفسياً عميقاً سوف نشير إليه في مكان آخر). «كنت مختلفاً منذ صغري. أمي تقول: يعني بقدر ما عذّبني أخوك سمير، لكنه لا يطلع نقطة واحدة من بحرك. كان عندي شيء مختلف، دائماً يجب أن يكون هناك أزعر في العائلة، ولو لم أكن كذلك «كانوا اتاكلوا» (يقصد الحرب والفلتان الذي سببته وكيف أن انتماءه الحزبي حمى عائلته)، كان عندي صفة خاصة، لم أكن أخاف أو تفرق معي من أحد. بإمكاني أن أهجم على ثلاثة مع بعضهم البعض. منظري يخيف الآخرين، بالرغم من صغر سني، إذ لا شيء يهمني ولا تفرق معي».

كذلك لا يختلف الأمر مع السيد «غ» (مقابلة ٦)، هو أيضاً يحكي لي: «كان أبي يعزّني كثيراً، كثيراً. كان يعزّني أكثر واحد من بين إخوتي قبل أن يأتي هذا الصغير، آخر واحد (يظهر هنا غيرة مبطنة). لم يكن يقول لي «لا» مهما طلبت، لأنني كنت الصغير بينهم، أصغر واحد بينحب، أصغر واحد بينحب» (أسأله: هل غرت من هذا الأخ؟ يردد: غرت منه؟ لا).

«والدتي تحبني كثيراً، تزورني كل يوم ثلاثاء وخميس، لا بد أن تحبني لأنني أعاملها معاملة منيحة، يعني لو طلبت مني لبن العصفور أروح

لأجلبه لها. أنا أموت فيها، لو أنها نقعت رِجليها في الماء وقالت لي إشرب هذه المياه، لشربتها (تعلقٍ شبه مرضيٍّ بالأم). أنا أكلمك الآن وقلبي يبكي من الداخل (من جوا) صار لي حتى الآن سنتان لم أغمرها خلالهما ولم أقبلها. إنني مقهور جداً. جاءت في العيد ولم أستطع مواجهتها بسبب العطلة (المواجهات ممنوعة في العطل) فاحترق قلبي».

أما السيد «ش» (مقابلة ٧) فهو أيضاً يقول لي: «أنا نشأت على الفوضى، هكذا، كنت أركب رأسي. أنا نشأت هكذا ليس لأن أهلي لا يعرفون قواعد التربية، أنا من الأساس بايعها. أبي راضٍ عني لكنه غير راضٍ عن الأشياء التي أقوم بها، أو أنه راضٍ عني بأشياء وهناك أشياء لا تعجبه. أنا في البيت أتصرف بشكلٍ جيد وأتعامل بشكل مختلف عما أقوم به في الخارج. أبي كان قاسياً عليّ عندما كنت صغيراً وكان يضربني لأنني كنتِ صاحب مشاكل مع رِفاقي، أضرب أحدهم عندما «يفدغني» (يكون سبّب له جرحاً من جرّاء ضربه بحجر مثلاً) وكنت «دويماً» (دائماً) على خلاف مع أساتذتي. لا يتشابه جميع الأخوة في البيت، هناك من هو مختلف، لا أدري لماذا؟ إنها إرادة الله، هوِ الذي كتب لي هذا ماذا تريدين مني أن أعمل؟ وعيت فوجدت نفسي مميزاً عن كل من في البيت. ليس فقط في البيت بل في المنطقة كلها التي أسير فيها يحسبون حسابي، يخافون مني في كل شيء (هذا الشاب كان يقود فصيلاً من ٣٧ عنصراً). تأتي أمي لزيارتي كل خميس وكلِ سبت. أمي تحبني طبعاً وتحبني أكثر من الباقين. وضعي في البيت مميز، تحب من بعدي أخي الذي في الأمن الداخلي. ربما لأنها تشبهني. عندما سألته عن الأب أجاب أن أباه أيضاً يحبه أكثر من الأم، وأن قصاصه له في الماضي كان لتربيته وأن أباه يفضّله لأن له نفسيته ذاتها».

يجد السيد «س» (مقابلة ٨) أن والده كان يقول إنه شقي منذ صغره ويتابع: «أنا لا أجد هذا صحيحاً بل العكس، طبعاً كانت مشاويري كثيرة، أروح وأجيء وهو يخاف عليّ من القذائف ويشتكي أنني صعب. أنا كنت طبعاً عصبياً أكثر من إخوتي جميعهم، هم كانوا يستمعون إلى كلامه، وأنا لم أكن أطيعه في كل الأمور. يعني كنت أجد أن هناك أشياء بريئة باستطاعتي القيام بها. لكن بحياتي كلها لم أسرق مثلاً. كان أبي يضربني ليس بشدة، بل كما يضرب الأب إبنه كي

يريبه. أمي كانت تحبني كثيراً وحتى الآن. أعتقد أنها تجدني أحنّ واحد عليها من بينهم، ذلك أنها مريضة وأنا أنتبه لها. أنا غير إخوتي، إنها تحبني أكثر من الباقين وحتى الآن، ربما لأنني الوحيد الذي كان أبي يضربني فمن تريدين أن تحب؟ كانت تهتّم بي وتراضيني وتبكي علي وأحياناً تطالها بعض الضربات «على الطريق». وأنا لماذا كنت هكذا؟ لا أدري الّله خلقني كذلك منذ صغري، دمي هكذا.

لا يعني هذا أن أبي لم يكن يحبني، بل إنه كان يحبني كثيراً بدليل أنني عندما ذهبت إلى المستشفى وهو يحتضر، وهو من كان يريدني أن أذهب إليه، أوصاني بأمي وأوصاني بأخوتي وبأشياء كثيرة أخرى وأن أنتبه إلى نفسي أيضاً. ومات في نفس اليوم، ذلك ما أثّر بي كثيراً».

السيد «ي» (مقابلة ١١) يجد أن وضعه مميز أيضاً: «لم يضربني أبي مرة واحدة في حياته. لكن أمي تضرب، أمي تضربنا حباً فينا، وكانت تشدد عليّ بشكل خاص. الاثنان أبي وأمي يشددان عليّ بشكل خاص، إذ كنت شقياً منذ صغري. كنت أهرب من البيت وأتعارك مع أولاد الجيران، «أشطب» هذا (يسبب له جرحاً) وأضرب ذاك بسكين، لم أكن قوياً جسدياً لكن عندي قلب لا يخاف من أحد. أبي كان حنوناً جداً معي، كان يضرب إخوتي أحياناً بالقشاط (الحزام)، لكنه لم يكن يعاملني هذه المعاملة. يا حرام، كان يسمّيني الشاطر حسن، لا أدري لماذا؟ منذ أن كنت صغيراً وحتى الآن. يقول لأمي هذا «حسّونتي». يعيّر واحدهما الآخر بي، تقول له أمي: كنت تقول عنه الشاطر حسن عندما كان صغيراً، وهو يقول لها: وأنت تحبينه وتفضلينه على كبر. وضعي في المنزل مميز، يعني إن غبت عن المنزل يتحوّل الجو إلى عزاء. بمناسبة رأس السنة مثلاً أو عرس أو أي شيء، يجب أن أكون موجوداً. يفتقدون لي كثيراً في البيت، أمي لا تتعشّى إذا لم أكن موجوداً، لدرجة أنني عندما ارتديت ملابسي تهيؤاً للخروج للسرقة عندما قبض عليّ، كانت جالسة على سجادة الصلاة، وسألتني إلى أين؟صارت تعرف عندما ألبس بطريقة معينة أنني ربما سأقوم بعمل ما. قلت لها إنني ذاهب في مشوار، نزلت دمعتها وقالت: إبق هنا سوف يأتي والدك فتتناول معه العشاء. سبحان الله ذهبت عندها ولم أعد».

كان السيد «خ» (المقابلة ١٣) أيضاً مختلفاً برأيه: «منذ صغري كنت هادئاً، لم أكن أحب الاختلاط بالأولاد أو اللعب معهم، كان والدي يضربني كي أنزل وألعب، لكنني لم أكن أقبل. من الأساس لا أحب «الولدنة». كنت متعلّقاً جداً بوالدتي. الوالد هو الذي يربّي، لذلك هو أقسى قليلاً». السيد «خ» وحيد بين ٩ بنات.

السيد «ج» (المقابلة ١٤) كان على علاقة مميزة مع الأخ الأكبر: «كنت أحب أخي الأكبر كثيراً (توفي في الحرب)، زعلت عليه كثيراً لأنه هو من كان يهتم بي. كان يأخذني معه إلى كل الأماكن التي يذهب إليها ويصرف علي ويشتري لي الأشياء التي أحبها. لم يكن يقبل أن يصرخ فينا والدانا. لا أذكر أن والديّ قد أدّباني بالضرب. أحب أبي أكثر وألاحظ أنه هو يحبني أيضاً، عندما أطلب شيئاً من أمي تعقّد لي الأمور لعدّة أيام، لكن أبي ينفذ لي طلبي مباشرةً ولا يقول لي كلا. منذ أن كنت صغيراً، كانت أمي تمنع عني المصروف وهو يعطيني إياه رغم ذلك، أحس أنه حنون جداً. كانت أمي تعترض وتقول له: هدّئه إن قدرت أن تفعل ذلك (هذا التعبير يستعمل بمعنى الضبط). جدتي أيضاً كانت تغنجني كثيراً وتدلعني، عندما كنت أقول لها لا أريد الذهاب إلى المدرسة كانت تغض النظر، وأغيب عن المدرسة».

وهكذا نرى أن لكل سجين «علاقة خاصة ما»، يبني من خلالها علاقة مميزة تعطيه الثقة؛ وتجعله مختلفاً او هي تدعم هذا الاختلاف. أما لماذا يتحول هذا الاختلاف إلى إنحراف؛ فلذلك قصة أخرى وأسباب متعددة متضافرة. سوف نحاول أن نتلمس بعض أسبابها المتنوعة قدر المستطاع، أبدأ بما سوف أطلق عليه الجرح النفسي.

الجروح النفسية المبكرة:

تعرفت على «ن» (مقابلة ٥) بينما كنت أجري مقابلة مع سجين آخر (مقابلة ٤)، وكنا نتحدث عن السبب الذي يوصل الشخص إلى السجن وأثر التربية وأثر العلاقة مع الأهل بالأمر. تدخّل «ن» مدافعاً عن الأهل، مرتئياً أن أهله لم يقصّروا في تربيته، وأن الأمر متعلّق به هو، ولا يدري تماماً ما الذي أوصله إلى سلوكه المنحرف. وهو اعترف ببساطة أنه أدمن الكحول والمخدرات، واعترف ضمنياً أيضاً بممارسة اللواط. يحكي

سرقاته ومغامراته ببساطة وسهولة، كأن القيام بها أمر بديهي، أو أنه لا يجد في الأمر ما يستحق العناء، عناء التفكير بالمخاطر التي يعرّض نفسه لها، وكأن نفسه هذه لا تعنيه كثيراً.

سألت «ن»، كما أفعل دائماً، عن علاقة الأم والأب وعن ترتيبه في الأسرة، فأجابني مباشرةً: ترتيبي؟ عندي أخي فلان وبعده أخي الذي اغتيل في البسطة وبعد ذلك أخي الذي انتحر على الروشة. فاجأتني هذه الأخبار، لماذا؟ سألته، قال: هكذا، زهق (عن الذي انتحر) لأن البعض أطلق النار على رجليه عند دخول السوريين وكان يمضي الوقت من بيته لشغله ومن شغله لبيته. زهق حياته وقال لأبيه: ماذا أفعل بنفسي وماذا أعمل؟ أخي توفي وأخي الآخر مسافر في ألمانيا و «ن» سوف يلحق به وإخوتي الصغار في المدارس، وأنت من يساعدك؟ أنا زهقت وسوف أقتل نفسي. لم «يستمع» أبي إليه ولم يقبض كلامه على أنه جد. ذهب أخي إلى الروشة وأعطى عنوانه لامرأة فلسطينية ورمى بنفسه. سألته هل كان له أصحاب؟ قال: في البداية نعم، لكن خفّ عدد أصحابه بعد أن تعرّض لضربة على رأسه وانعطب. وقع عليه الونش بينما كان يعمل في بناية قيد البناء، أُخِذَ إلى المستشفى واضطرّ أبي لبيع إرثه كي يقوم بعلاجه، حدث ذلك قبل عشر سنوات.

علمت بموته فور عودتي من المطار، إذ إنني هربت ولم أقبل الصعود إلى الطائرة كي ألاقي أخي في المانيا. عندما وصلت شاهدت ولداً صغيراً، ركض نحوي وقال لي: يا «ن» انتحر أخوك، رمى بنفسه عن الروشة! قلت له ما هذا الكلام ! قال والله العظيم كما أقول لكِ. ذهبت إلى الروشة وجدت الصليب الأحمر، ووجدت أن الأمر صحيح وأنهم أخذوه إلى مستشفى الجامعة الأميركية. ذهبت إلى المستشفى ورفضوا في البداية أن يدلوني عليه. وعاد أحدهم فأخذني إلى البراد بعد أن علا صوتي، رأيته «آكلها ضربة على قلبه وكذا»، عيونه مفتحة وجسمه مليء بالضربات، لأنه تدحرج على الصخر، وكلما نزل تعرّض لضربة «دِج» «دجّ»، فكان جسمه كله «مشطّب» لأنه رمى نفسه من المكان القريب من مقهى «دبيبو». المهم، قمت بتغطيته و«شالني» صاحبي وطلعت. إلى الآن كنت أتعاطي المخدرات وأمثال هذه القصص، أنا معدّلي عادةً غرام واحد، لم أكن أضرّ بنفسي، لكن بعد ذلك صرت أتعاطى «الشمّ» على إجرام».

لكن جرح «ن» النفسي لا يقتصر على انتحار أخيه فقط، جرحه الأساسي يتعلق بأخيه الأكبر الذي اغتيل بينما لم يزل هو بعمر أقل من التسع سنوات، أي الرقم الذي يعطيه لبداية تاريخ دخوله إلى التنظيمات الحزبية. لا يعي «ن» علاقة فلتانة وانحرافه بمسألة اغتيال أخيه، مع أنه يقول: أنا أحب « التعتير»، هكذا، أين يوجد التعتير أرمي بنفسي عليه ولا أدري لماذا؟ أذكر أنني وعيت على الحرب ودخلت التنظيمات منذ أن كان عمري تسع سنوات وكنت في الصف الثاني إبتدائي. بدّلت الكثير منها، من الحزب التقدمي الإشتراكي إلى حركة أمل إلى غيرهما أيضاً. لم يكن عندي أي شيء صعب أيام الحرب (يقصد أنه كان يستسهل المخاطر)، ذلك بسبب موت أخويّ الإثنين. الأول مات أمامي، وكنت صغيراً جداً، لا أدري أجل ربما كان عمري ٦ سنوات! اغتيل أخي أمامي، أفرغوا فيه المخزن وقتلوه قتلاً، أنا واعٍ لما حصل. قُتِل بعدها ورأيت دمه. رأيته كان يأكل سندويشاً، جاء أشخاص وأطلقوا بوق السيارة كي يسمعهم، نظر إليهم هكذا (يلتفت برأسه) فقاموا بدرزه بالرصاص. ذلك أنني رأيت هذا المشهد. ماذا تتصورين؟ إنه أخي! صحيح أنني كنت صغيراً وألف قصة، لكنه أخي. لكنني كنت ولداً «وما طالع بإيدي شي». أخي هذا كان يربي الحمام، صعدت أنا إلى السطح عندما قاموا بتمرير جنازته، لأن أخي كان منتمياً إلى حزب. وبينما كانت الجنازة تمر وكان هناك الكثير من الناس وتصوير فيديو، قمت أنا بكش الحمام عن السطح، الحمام الذي يربيه أخي. شاهدتها تطير إلى السماء. صاروا يصرخون بي من الأسفل كي أنزل بسبب الرصاص الذي صاحب الجنازة، وأنا «لم تفرقْ معي» (يعني لم يهتم). فيما بعد صرت أتذكّر هذه الصور وصارت تمر بخيالي. ما زلت أهتم بالحمام حتى الآن. على كلٍ حال من قتله مات بدوره نفس الميتة». كان هذا هو الأخ الذي يحبه كثيراً ويعتني به ويربت له شعره الأشقر طويلاً.

مقتل الأخ الأكبر والجرح النفسي والألم الذي سببه، تجعل من محاولة السيطرة عليه (الألم) ضرورة قسرية قد تتسم عبر المحاولة اللاواعية للحلول محله وأخذ دوره في الحياة. من هنا دخوله الاحزاب لكن الوقت كان مبكراً جداً. وتبدو هذه الحالة تتكرر لأكثر من مرة، إذ حصلت أيضاً مع «ج» (مقابلة ١٤).

عندما سألت السيد «ج» عن عدد أفراد أسرته، عدّدهم وقال: «كنا ثلاثة شباب لكن توفي لي أخ في معارك الجبل، يعني خلال الأحداث. كان عمري ١٦ عاماً، حزنت عليه كثيراً لأنه كان حنوناً عليّ. كان أكثرهم «حنيّة» عليّ. كان يأخذني معه ويصرف عليّ ويشتري لي أشياء ويأخذني إلى لونا بارك أنا وإخوتي الصغار. في الأعياد كان يحضر لنا الألعاب. كان يهتم بنا كثيراً وكان يحبّ جو البيت وجو الأسرة وإخوته. كان يحضننا كلنا، لم يكن يقبل أن يصرخ والدانا علينا، كان يكبرني بحوالي عشر سنوات».

يقول «ج» إنه يحب الوحدة والحرية، ولا يحبّ العجقة والناس الكثيرين، وإنه استقلّ عن أهله وأحبّ أن يعيش «وحدانياً» عندما بلغ السادسة عشرة. لكنه لا يربط ذلك بفقده لأخيه. بل يربط دخوله الميليشيا بموت هذا الأخ: «كنت أذهب إلى المدرسة غصباً عني، فقط «كرمال» أمي وأبي. لكن عندما توفي أخي تضايقت وتأثرت كثيراً، ووجدت نفسي وحيداً جداً فتركت المدرسة والتجأت إلى الميليشيا. قبل ذلك كنت أكره البارودة وأكره السلاح وأكره الأحزاب وأكره القصف والضرب. وشعرت أنني ابتعدت عن أهلي وعن إخوتي، وبدأت أتفتّح. مات أخي من أجل السلاح ومن أجل الحزب فقلت لنفسي أنا أيضاً سأفعل ذلك. كنت شجاعاً ولا أخاف، كانوا يقولون لي «إياك أن تطلع مثل أخوك» فأتشجّع أكثر. كنت الوحيد الذي أتمرّن بالرصاص الحيّ، ولم أكن أهتم من جراء المشي حافي القدمين على الثلج وعند وجود مهمة صعبة كنت أرمي بنفسي عليها».

احترت أمام السيد «ي» (مقابلة ١١) ما هو جرحه؟ يبدو بروفيل السيد «ي» بروفيل الجانح النموذجي الذي نشأ منذ نعومة أظفاره على «الزعرنة» كما يقول هو نفسه. لكنني تساءلت عندما علمت خلال المقابلة من أنه تعرّض لحادثة، بعيدة كل البعد عن البساطة التي يرويها بها، عن معنى هذه الحادثة وعن احتمال الجرح النفسي العميق التي تسببت به وأدت إلى نمط الحياة الذي يذكره ببساطة وكأنه من الطبيعي أن يحصل له.

يروي «ي» عن طفولته، هو الذي نشأ في أسرة فقيرة تعرضت للتهجير، أنه كان يمضي وقته يلعب في الشارع. ذات يوم لعبوا بما يسمى «الشلمونة» و«البارود» (لا بد أنها اللعب ببقايا الأسلحة المستعملة) :

«نكبسها هيك تطير ، نولعها وتصدر صوتاً... ووششش... ، مرة طارت منا ودخلت مخزن السلاح وفجّرته. كان عمري حينها حوالي التسع سنوات، أيام الاجتياح الإسرائيلي. تأذيت كثيراً في هذا الانفجار، لأنني كنت محاطاً بالبارود فاحترقت كلي، كلي صرت أسود. إحترقت وحدي من بين الأولاد، لم يكن عندي شعر أو حواجب، (يشير إلى جلده ويقول) هذا ليس لوني الطبيعي كان لوني مختلفاً. بقيت شهر ونصف الشهر في المستشفى. اعتقد أهلي أنني مت، لفقدان الاتصالات حينها. أخذتني امرأة عن الطريق، أعتقد أنها نصرانية، وضعتني في سيارتها وأخذتني إلى مؤسسة عامل كان اللحم ملتصقاً على ملابسي. لا أزال أذكر تعليقات الناس وأتخايلهم، قالوا: لا رده الله كله من يده». وضعوني هناك حيث بقيت لشهر ونصف الشهر. كانت المرأة فقط تأتي لزيارتي. في الحرب لم يكن في الطرقات سوى الأولاد، لذا لم يعرف أهلي في البداية إلى أين ذهبت. كان في المركز الكثير من الأجانب، أكثرهم أميركيين، سألوني عن إسمي وعن أهلي عندما استطعت الكلام. عندها وصل الخبر إلى أهلي، أتت أمي وأبي بعد أسبوع أو أسبوعين، عندما رأتني أمي على الكرسي المتحرك لم تعرفني. كانوا قد وضعوني مع المقعدين (يقول المكرسحين) على كرسي متحرك. كنت «أشفط» من قربها هكذا، فقلت لها ماما! عرفتها فنظرت إليها وصرت أبكي، وتعبطت بها (أمسكها بشدة بكلتي يديه) لا أستطيع الوقوف. لم تعرفني في البداية، لكن عندما نظرت إليّ جيداً عرفتني وعندها قالت لأبي: «أنظر أليس هذا إبنك! يبدو أنه شديد السواد! بعد ذلك أخذوني معهم. لم أكن أريد مغادرة المستشفى (يضحك). بعد ذلك صاروا يطببوني في المستوصف قرب البيت، إعتنوا بي كثيراً. سألته من، أهلك؟ أجابني كلا الأجانب. معاملة أهلي كانت دائماً كويسة».

كيف عاش فترة افتراقه عن الأهل واعتقاده بتخليهم عنه؟ لم أعرف، إذ لم يقل لي شيئاً! لكن أعلم صعوبة الحديث عن مثل هذه الأمور بالكلمات التي نستخدمها يومياً، فصمت عن ذلك. بدأ بشرب الخمر منذ عمر ١٢ عاماً تقريباً، وكان بدأ السرقة حينها وعرف السجن في هذا العمر.

سألت السيد «ع» (مقابلة ١٥) عن شعوره أمام الأشخاص المصابين أو الميتين الذين رآهم، فأجابني : لا شيء. قلت له حتى ولو كانوا مقطعين؟

قال إنه رأى الكثيرين من الذين تقطّعت أطرافهم وهو قام بلملمة الكثير من الأطراف، لكن الأمر طبيعي بالنسبة له: لأن الشخص خلص، انتهى وراح. سألته حتى أول مرة لم تكن صعبة؟ فقال لي أول مرة صارت معي الحادثة التالية: «في بداية الـ٧٨، عندها لم أكن أتعاطى مع أحد، كان والدي لا يزال على قيد الحياة. لكن كان عندنا جيران شبان أكبر مني سناً ومعهم سيارة. قالوا لي تعال معنا لننزل هكذا صوب الأسواق، فوافقت. ذهبنا وكانت الساعة حوالي الخامسة بعد الظهر، عتّمت الدنيا وأرادوا هم المزاح معي، سألوني إن كنت جائعاً؟ فقلت أجل والله جائع! فقالوا لي أدخل إلى الغرفة هناك طعام على الطاولةِ، هناك صحن مليء بالطعام فتناوله. كان الصحن مغطّى بجريدة أو ورقة لم أعد أذكر بالضبط. عندما رفعت الورقة وجدت رأساً، رأس رجل مقتول لا أدري من أين أتوا به، فهم مقاتلون. عندما رأيت الرأس صرخت صوتـاً لا أذكر كيف كان الصوت ومن أين أتيت بقوته.

وركضت، ركضت وحدي من تلك المنطقة حتى البيت (أي من منطقة الفنادق حتى إحدى مناطق المخيمات الفلسطينية)، لم أر شيئاً أمامي في الطريق ولا أذكر كيف وصلت البيت. يمكن أنهم بحثوا عني، لا بد أنني سلكت طريقاً غير الطريق التي سلكوها. لم يكن الوضع الأمني طبيعياً وكان هناك قنص وقذائف، لكنني الآن متأكد من أنني كنت أسرع من الرصاص من ذلك المنظر، أول منظر في حياتي. عندما وصلت البيت جاءت أمي ونظرت في وجهي، عرفتني خائفاً من شيء ما، فأمسكت الكف وضربتني كفين على وجهي بسرعة. صحوت قليلاً وعادت فرمت عليّ الماء البارد بسرعة وغسلت لي رأسي وسقتني ليموناضة حتى هدأت وحكيت لها ما حدث لي. نظرت إليّ أمي وقالت لي سوف ترى الكثير بعد. وأفهمتني أنني سوف أشاهد أشياء أخرى مشابهة، فالبلد حرب والقذائف في الطرقات وسوف أشاهد أيدي وأرجلاً تتقطع، أمي لها قلب قوي. إقتنعت هكذا وفكرت أن الأمر طبيعي. كان عمري ١١ عاماً بالضبط.

بعد ذلك بأسبوع، صدف أن نزلت في حيّنا عشر قذائف مرة واحدة. كان هناك أكثر من ١٠ شباب يقفون في الشارع. أصيب جدي حينها بشظية في رقبته، وكان يجلس أمام الباب، لكن تقطّع شابان في نفس

الوقت، إلتصق لحمهما على الحيطان. لملمت قطعهم مع الآخرين، صار الأمر طبيعياً بالنسبة لي ولم يعد عندي مشكلة، تعودت خلص. عندها صرت مع الفدائيين، خلص، خلص، خلص (رددها وكأنه لا يريد التوقف عن ذلك)، صرت أروح إلى المقبرة، عادي، في الليل يعني. قد يتوهم الإنسان من المقبرة في الليل، أنا لو كانت الأموات أكواماً فوق بعضهم البعض أمرّ بجانبهم بشكل طبيعي. إقتنعت أن الميت انتهى، طلعت روحه منه. هو مجرد لحم مصيره أن يصبح تراباً، لا يقوم ولا يقعد. الأمر عادي، صرت أفهم في المسألة بطريقة علمية، وصرت مقتنعاً (إلحاحه كأنه يريد إقناع نفسه!)، يضحك، لأنها واضحة أن البني آدم يحس طالما هو على قيد الحياة، عنده روح ودم وكل شيء، ويستطيع الكلام. لكن عندما تطلع منه روحه يكون إنتهى، يصبح مثله مثل هذه الورقة البيضاء التي نكتب عليها ونحرقها. إحرقيها وانظري إليها ماذا تصبح؟».

أثر اليتم المبكر

ليست الطريق الموصلة إلي السجن واحدة، تختلف باختلاف الزمان والمكان، تحددها ظروف عامة وظروف خاصة. لكنها في كل الأحوال شائكة ومفاجئة وتجعل التساؤل عن علاقة المكان بالزمان مبررة. ما الذي يفكّر فيه السجين في طريقه إلى المكان الذي سوف يجعله من الآن وصاعداً في الموضع نفسه، جامداً ومخدوداً ومؤطراً؟ هل يجمد زمانه أيضاً بانتظار حصول حركة تشمل المساحة وتمددها فتستعيد حركة ونشاطاً؟

ربما ما كان السيد «ح» (المقابلة الأولى) عرف طريقه إلى السجن لولا الحرب التي أضيف إليها اليتم المبكر؟ لا بد أن السؤال سيبدو ساذجاً لسهولته وبديهيته؛ وربما انطبق مثل هذا الافتراض على الكثير من السجناء. أليست الحروب منتجة للصعوبات وللعلاقات وللمشاكل، لذا تتزايد خلالها نسبة اللامتكيفين على اختلاف أنواعهم؟ لكن في حالة السيد «ح»، وحيد الأبوين الذي افتقد أمه منذ سن التاسعة لم أجد شيئاً متميّزاً أو مثيراً للانتباه، سوى تضافر عوامل جزئية وصغيرة، تراكمت على مهل واقترنت مع تراخ تربوي ميز الأب الذي تضافر عليه فقد زوجته وفقد المال

الذي حصل عليه من بيع محلٍ له بسبب ارتفاع سعر الدولار، وعدم استطاعته وقف التدهور الذي تعرّض له. يقول «ح»: «لو أن أمي كانت موجودة لما وصلت إلى هنا. أمي كانت حريصة جداً عليّ، وفي كل الأمور، كانت توعّيني. ليست المسألة أن الأب لا يعرف أن يربّي، فأبي كان حنوناً أكثر من أمي ولم يكن يصرخ بي، لكنه رخا لي الحبل كما يقولون، أنا لا ألومه بل ألوم نفسي، لأنني لو ملكت الإرادة لما وصلت إلى هنا».

السيد «ع» (مقابلة ١٥) يروي طفولته كما يلي: «كان أبي رجلاً عادياً، يعني عمل بشكل عادي، كان يعمل في البلاط، «جلّي بلاط». لا أذكر الكثير، كل ما أذكره أنه بعد أن كان حالنا ماشياً ضُربت كليتاه لا أذكر متى لأنني كنت صغيراً جداً، وصار يمضي وقتاً طويلاً في المستشفى وصار وضعنا تعيساً نوعاً ما، وكان ذلك قبيل الحرب. في العام ٧٣ احترق منزلنا كله وصرنا في الشارع، هنا لا أستطيع أن أتوسّع كثيراً معك بالكلام لأنه خطر أمنياً. وهذا ما سبب له صدمة قوية وأصيب بمرض الكلاوي على أثرها. توفي عام ٧٩ بحادث إنفجار، ذهب يضع شنطة لأشخاص وانفجرت به... كان عمري عندها حوالي ال١٣ عاماً. كانت أيام فوضى وأحزاب وأنا أوّل طلعتي، ازددنا تشرداً عن قبل. ماذا كان باستطاعة والدتي أن تعمل؟ ففلِتُّ (أفلتت) أنا على حل شعري كما يقولون، مع الفدائيين ومع المنظمات. تربّيت مع المنظمات لأنه لم يكن باستطاعة أمي، كامرأة وحيدة مع ٦ أولاد، أن تضبطنا. يد واحدة لا تصفّق. ماذا أخبركِ عن فلتاني؟ مثلاً أنام خارج البيت، كانت هذه أوّل «شغلة». ففي مجتمعنا اللبناني أكبر عيب أن ينام الولد خارج منزله. وتبدأ أمي بالركض ورائي. آتي وأصرخ فيها (أعيّط عليها) وأنا في الشارع، لا يهمني شيء. مرة عندما جاء خالي أطلقت عليه الرصاص فخاف وقال لأمي إبنك يريد أن يقتلني. كنت أمشي في الشارع ولا أخاف أحداً، لا أحد يتجرّأ على الكلام معي، أضرب من لا يعجبني وأتزعرن على الناس، لا أعرف من أين كانت قوتي، هكذا. يمكن لأنني أملك السلاح وأطلق منه النار، كنت إذا لم أجد أحداً أطلق عليه النار، أطلقه على الحيطان. كان هذا وضع صغار السن، كنا مدلّلين نوعاً ما ويغضون النظر عنا. يمكن بسبب وجود العمليات الإنتحارية.

يفكرون أن باستطاعتهم إرسالنا للقيام بعمليات إنتحارية، إذ كنا نعتقد أنه بإمكاننا قتل اليهود والعودة بسهولة، الآن لا يمكن أن أفكر هكذا. إذا ذهبت في عملية من هذا النوع وصرت في أراضيهم أفكر أن لا منفذ لي وأنني لن أعود. عندما كنت صغيراً لا بد أن حجم دماغي كان يمنعني عن التفكير. كنت أنفذ الأشياء التي أتوهمها، أمشي بالوهم وكأنه حقيقة. المشكلة أنه كان بإمكاني عمل ما أريده وكانوا يعطوني المال أو السيارة التي أطلب. كانوا يفعلون هذا مع الصغار القبضايات والأقوياء. عندها شقت بنت الجيران وتزوجتها غصباً عن أهلها، لم يكن باستطاعة أحد أن يهديني. بعدما تزوجت في بداية الثمانينات بقيت مع الفدائيين. كان هذا عندما مات أبي، لو ظل على قيد الحياة لما حصل ذلك لأنني كنت أحترمه كثيراً.

الظروف الاجتماعية

العلاقة بالمدرسة والهرب منها أو أثر السن عند بدء الحرب

عانى الكثير من المسجونين من مدرسية مضطربة ومتقطعة. تضافر على جعلها كذلك ظروف الحرب من جهة والأوضاع الاقتصادية المتردية من جهة ثانية. أحياناً يتصاحب هذا مع التهجير أو الموت المبكر لأحد الوالدين، أو موت أخ عزيز جداً.

سوف أعرض حالات السجناء الذين تركوا المدرسة ولم يكملوا تحصيلهم المدرسي، محاولة إظهار كيف ومتى ولماذا؟

اليتم والحرب والتردي الاقتصادي

السيد «ح» (مقابلة ١) يرى أنه لم يكن كسولاً في المدرسة، بل على العكس كان مجتهداً في مدرسته التي تقع في منطقة المتحف والتي يصفها بالقوية. وهي مدرسة كانت تستعمل (Signal) وهي إشارة يحملها من يتكلم العربية في الملعب. لكن أحداث الحرب وتحول منطقة المتحف إلى

خط تماس أجبرت الأهل على اختيار مدرسة أكثر ملاءمة من الناحية الأمنية. في العام ٨٢ نقل إلى مدرسة أقرب إلى البيت لكنها ذات طابع إسلامي، أي أنها أقوى في اللغة العربية (كما يستنتج) ويقول إنه لم يمش في القواعد. قد لا يكون هذا فعلاً سبب عدم تأقلمه، لكنه يورده من أسباب فشله المدرسي فيها. طلب عندها تغيير المدرسة وكانت هذه المدرسة الثالثة، مكث فيها لمدة سنتين، أي حتى الصف الرابع متوسط. لم ينه صفه بسبب تعرّض الوالد (كما يردد) لأزمة مالية. صار يذهب على أثرها بشكل متقطع، يمارس أعمالاً صغيرة ويتغيب كثيراً عن المدرسة كي «يكزدر» مع رفاقه أو يذهب معهم إلى البحر أو يستأجرون درّاجات هوائية ويقومون بسرقات صغيرة من المحال. كان والده في هذه المرحلة: «يركض خلفي من مكان إلى آخر، كنت بعمر ١٥ – ١٦ عاماً حينها». في حوالي الثامنة عشرة توفي والده؛ تنقّل بعدها بين عدة أعمال صغيرة في مصالح متفرقة، إمدادات كهربائية أو ما شابه، لكنه لم يحبها ولم يبرع في أي منها. تعرّف بواسطتهم على محطة تلفزيزنية حيث عمل فيها وأعجبه العمل لأنه يظل نظيفاً ومرتباً حيث بقي لمدة ستة أشهر، أي إلى أن سجن. من ضمن هوايات «ح» ركوب الموتوسيكل. وهو عندما تم القبض عليه لم يكن يفعل شيئاً سوى مرافقة من قام بالسرقة. كان يركب الدراجة النارية بانتظار رفيقه الذي سرق الذهب دون علمه على ما يقول!

ترك السيد «ع» (مقابلة ١٥) المدرسة العادية بعد أن فقد والده في حادثة تفجير الحقيبة المفخخة التي كان ينقلها الأب، وأصبح في الشارع. يقول: «كنت أحب المدرسة كثيراً (يرددها عدة مرات، بإلحاح) وكنت الأول فيها دائماً. فجأة صارت الحرب وتعثرت الأمور واحترق بيتنا وانتقل مكان سكننا، وتعطلت المدارس خلال الحرب الطائفية عام ٧٦. كنت في المدرسة في الصف الثاني، كنت قد بدأت هذا الصف حديثاً عندما مرض والدي ولم يعد باستطاعته إرسالنا إلى المدرسة الخاصة. ولم يكن هناك من مدارس حكومية (كانت تقفل أبوابها لفترات طويلة) فبقينا دون مدرسة إلى أن دخلت مع الفدائيين». سوف يتابع «ع» معهم نوعاً من التعليم المهني سوف أشير إليه في سياق علاقة السجين مع الميليشيات، في الصفحة (١١٤).

الحرب والذكاء البسيط

السيد «غ» (مقابلة ٦)، لا يعرف القراءة والكتابة إطلاقاً. وضعه أسوأ من وضع السيد «ن» يقول: «تركت المدرسة من الصف الثالث لأنني لا أحب «العلام» (يقصد العلم). منذ البداية لم أحب العلم. كنت أهرب منها كثيراً، أذهب وألعب الفليبزر أو الكلة. وكان هناك حرب، وبابا نويل جاء إلى المدينة الرياضية ووزّع علينا ألعاباً. كان عمري ٧ سنوات وكان الأمر جميلاً جداً، كانت ذقنه بيضاء. تركت المدرسة وأنا عندي ١١ عاماً، صرت أهرب ولا يدخل العلم برأسي والآن أتندم كثيراً على ذلك. عندها كنت أجد المعلمين قساة جداً. مرة ضربت المعلمة أختي فقمت بضربها، عندها طردوني من المدرسة ولم أعد اليها. وُضعت في مدرسة غيرها، مكثت فيها سنة وتركت نهائياً، بعمر ١٢ عاماً. لم يقل والدي شيئاً لأنه يعرفني فلِمَ يدفع فلوسه على الفاضي ويتعذب؟ حرام. عملت بعد ذلك في مصلحتي وهي مصلحة والدي، الزجاج. لكنني تركتها فيما بعد لتكاثر العاملين بها، صرت أبيع فاكهة: مانجا، أناناس وكيوي...»

الحرب والميليشيات

السيد «ن» (مقابلة ٥) عرف حياة مدرسية متقطعة ونموذجية لجانح مبكر. أمضى «ن» تسعاً من سنواته العشرين في السجن، أي أكثر بكثير مما أمكنه أن يقضيه في المدرسة. وهو إذ عرف التنظيمات العسكرية باكراً وتعلّم شرب الحشيشة أيضاً باكراً، أي في عمر تسع سنوات، أدّى به ذلك الى الهروب المبكّر من المدرسة. «ن» مارس هذه الأشياء كلها إثر اغتيال شقيقه الأكبر الذي كان يحبه كثيراً ويتعلق به. مع ذلك «ن» لا يلوم إلاّ نفسه، ويقول: «ما حدا أزعر إلاّ أنا، لا دخل للتربية في ذلك، أهلي حافظوا عليّ وحاولوا رعايتي، ولكن هكذا أنا».

يقول إنه وعى على الحرب ودخل تنظيمات عدة: «أنا لا أذكر شيئاً عندما كان عمري سنتين أو ثلاث، أذكر عندما صار عمري ٧ سنوات وكنت أواظب كما يجب في المدرسة التي دخلتها صغيراً. منذ الصف الثاني إبتدائي اختلطت مع ناس سحبوني من المدرسة، لكل واحد خلطة أو جوّ أو تيار. قل لي من تعاشر أقل لك من أنت. إذن في حوالي

التاسعة من عمري، صرنا نعمل عصابات مع أولاد بعمري وآخرين أكبر مني في السن. نحب واحدة مثلاً ونتقاتل عليها ونبعد الآخرين عنها. نتعارك سني–شيعي وألف قصة. كنت أحب المدرسة ولكن هناك من كرّهني إياها، المدرسة لم تعد تركب على رأسي. ما جعلني أكرهها مثلاً: كانوا يطفئون الضوء، أقول يا الله أعد الكهرباء، فلا تعود. يقولون لنا قل يا مسيح، عندما نقول ذلك تأتي الكهرباء، لأنها كانت مدرسة مسيحية. كانت الطائفية «ماشية». أنا شخصياً لا فرق عندي بين مسلم ومسيحي، عندي صديق وهو صديقي مهما كان دينه. لكنني لا أحب هذا الاحتيال. شخصياً غيرت الكثير من المدارس، في المدرسة الرسمية، وهي معروفة، يكفي أن يقال مدرسة حكومية! كان يأتي شخص أزعر يسحب عليّ سلاحه، ماذا؟ طق، طق، طق! أنا لا يناسبني هذا الأمر. أن أتبهدل من أجله، يعني إذا هو أزعر فأنا أيضاً كذلك. لم أكن أخاف من المشاكل، يعني إذا تعرّض أحدهم لهجوم من قبل ثلاثة أشخاص، أقف معه هو ضدهم. صرت أتغيب عن المدرسة، أحياناً أذهب وأحياناً أخرى لا أذهب، أخرج من البيت في موعد المدرسة، أخبئ حقيبتي في الحديقة وأتظاهر بالذهاب الى المدرسة. لكنهم كشفوني بعد عدة أيام، أرسلت المدرسة في طلب أهلي. قلت لهم إن المدرسة لا تناسبني، وإنني أريد أن أعمل، ذلك أنني مشيت في تيار سيئ. كان عمري حينها حوالي الثانية عشرة. إرتأت أسرتي أن أداوم الذهاب إلى المدرسة فهذا أفضل لي. لكني رفضت، وفضلت العمل في حدادة السيارات. عملت فترة ثم تركت العمل. ذلك أن المعلم طلب مني مرة أن أحضر له شيئاً فأحضرت غرضاً غيره فضربني عندها (يسمي شيئاً ثقيلاً). ووجدت أنه يتشاوف كلما جاء من يصلح سيارته عنده، بيشوف حاله! الكبرة لله ؛ أن يضربني بيني وبينه لا بأس، لكن أمام العالم؟ لذلك عندما ضربني ضربته أنا أيضاً. أنا أحترمه ككبير، لكن تكراره للأمر أزعجني. أريده أن يحترمني كما أحترمه، الدنيا أخذ وعطاء وكما تُعامِل تُعامَل. تركته ومشيت. أتى وقصدنا في البيت، وطلب مني أبي أن أذهب معه لكني لم أقبل».

وهكذا ترك «ن» المدرسة باكراً جداً دون أن يتمكن من اكتساب القراءة والكتابة.

السيد «ش» (مقابلة ٧) يقول: «أنا نشأت على الأحزاب. دخلت المدرسة لكنني تركتها باكراً بعمر ١٢ عاماً لأنها لم تركب على رأسي. أستطيع القراءة والكتابة: لكن «مش زيادة». تركتها لأنني لم أهوها، وكنت أهرب منها دائماً. دخلت المدرسة في سن ٤ سنوات ولم يدخل العلم رأسي من وقتها». أسأله إن كان المعلمون قساة أو ما شابه، فيضحك. أسأله عن السبب الذي جعله يترك المدرسة، فيسألني بدوره: لماذا أسأل؟ يجد «ش» أنه انتشأ هكذا على الفوضى وعلى الأحزاب، لا تبرير آخر لديه. وهو يذكر أنه كان كثير المشاكل مع الأولاد يضرب كل من يتلاسن معه ويتعارك مع أساتذته طوال الوقت. وهو يرى أن إخوته غيره هو، هم قد تعلموا بعكسه. يقول إن لا دخل لأهله: «يكون الواحد بايعها من الأساس، يكون فوضوياً منذ بداية تربيته، وهذا شيء سيئ له ولأسرته، يؤذي نفسه ويؤذيهم، ولا يكوّن أسرة كالباقين. إنها إرادة الله! الله هيك كاتب».

السيد «س» (مقابلة ٨)، على عكس السيد «ش»، واظب في المدرسة حتى نال الشهادة المتوسطة، لكنه لم يكمل تعليمه؛ ويحب القراءة والكتابة ويكتب الشعر والأدب، قال لي: «أخذت البروفيه، لكني أعرف أكثر بكثير من مستوى البروفيه. تركت المدرسة ولم أكمل. تركتها في الـ٧٤ أو ٧٥ تقريباً، أردت أن أساعد أبي أيضاً، وبسبب الحرب وصارت أحداث (لم يقل ما هي). لم أكن كسولاً، صرت أعمل شغلات لا يرضى عنها والدي؛ أقول له خلص أريد أن أعمل. لكنه يصرّ على أن أكمل تعليمي (يردد مرة أخرى دون أن يفصح) وصارت أحداث جعلتني أكره المدرسة. في المدة التي درست فيها البروفيه صرت أهرب من المدرسة. لولا الأحداث كنت أجبرت على البقاء في المدرسة؛ إذ أثناء القصف نذهب يوماً ونغيب يوماً وصرت أحب البقاء في البيت. عندما رأى والدي أننا لا نتعلم من الشهر سوى ١٧ يوماً وافق على أن أترك المدرسة. طبعاً ندمت كثيراً على تركها. أنا استفدت من سجني بالمطالعة. خاصة في سجن رومية، حيث كان عندي مكتبة لي وحدي. قرأت تاريخ العرب المطوّل لفيليب حتّي وكتب جرجي زيدان وكتب جبران المجموعة كلها وكتب ميخائيل نعيمة. أحب القراءة كثيراً وعندي أسلوب قوي. عندما تركت المدرسة عملت في الصليب الأحمر الدولي

كحارس، بقيت هناك سنة ونصف السنة. أوّل مرة عملت دورة تدريبية في إطار حركة أمل وكنت لا أزال ولداً. رفض أبي في البداية أن يرسلني لأنني كنت أصغرهم، عمومتي أصرّوا على إرسالي لأن جسمي كان رياضياً. بعد الدورة التدريبية خيرت بين أن أعمل معهم أو أن أكون حارساً. لكني اخترت الحراسة في المستشفى. يقول عني أبي إنني شقي منذ صغري، كانت مشاويري كثيرة. ولذا كان أبي يخاف عليّ من قذيفة أو أي شيء مشابه. لذا فضّل أبي تسفيري إلى ألمانيا. بقيت فيها ٣ سنوات.

الحرب والتردي الاقتصادي

يخبرني السيد «ي» (مقابلة ١١): «كانت أمي تضربني، أمي تضرب، إنها ليست مثل أبي. كانت تشدّد عليّ أنا بشكل خاص منذ صغري، لأنني كنت شقياً جداً. أذكر أنني كنت أطلع دائماً من البيت، مثلاً لا أعود إلا في الصباح، أو أغيب لمدة يومين أو ثلاثة. كان عمري حينها حوالي تسع أو عشر سنوات، يمكن أنني بدأت منذ سن الثماني سنوات. نذهب إلى السينما أو أي شيء آخر. كنا مجتمع مهجرين وحرب، وأولاد كثر والمدرسة لا تفتح سوى حوالي ثلاثة أشهر في السنة ونهرب منها أيضاً. وصلت حتى الصف الخامس. كنت أنجح رغم كل شيء، أنجح بجدارة وليس كيفما كان. كنت شاطراً في المدرسة. قبل ذلك كنت شقياً بشكل مختلف، يعني كل يوم تأتي جارة تشتكي لأمي: إبنك شطب إبني، إبنك ضربه بالسكين، وهكذا. إخوتي جميعهم تركوا المدرسة باكراً في الصف الخامس أيضاً. لم يكن أبي من أراد ذلك، يمكن أن الوضع الذي كنا فيه والأحداث لا تجعل الواحد يرغب في المدرسة. إخوتي مشوا في المشية التي مشيتها لكنهم لم يكملوا مثلي في هذا الطريق، ذهبوا لمساعدة أبي في مصلحة التريكو. كان واحدهم يأتي باكياً وتائباً، كان يشعر أنه قام بأمر فظيع ويتوقف. سبحان الله هذه فطرة. أعتقد أن أهلي فشلوا معي بسبب العمل الذي اخترت القيام به. نزلت إلى العمل باكراً وعملت في الفرن، وأساس بيئة الأفران لا تسمح بتربية إنسان صالح. عندما يدخل عامل الفرن إليه صغيراً يجب أن يصبح أزعر؛ لا يمشي «آدمي» بسبب العمل ليلاً. والعمال عادةً لا يملكون مصلحة (يقصد

مهنة)، وتعرفين حركاتهم وكلامهم، إنه كلام بدون طعم وفاسد. وعيت في الفرن على هذا الكلام الفاسد والمشاكل، يتخانقون مع بعضهم البعض و«طاق، طيق» يضرب الأقوى من هو أضعف منه. أحب عندها أن أكون مثلهم آخذ الدنيا بالمراجل ولا أفكّر بعقل. عملت في الفرن حوالي أربع سنوات. إخترت الفرن لأن عامل الفرن يقبض مباشرة معاش معلّم. المال رغبني في العمل بالفرن، كما أنني ساعدت أهلي في البداية، أبي لم يكن يقبل أن يأخذ مني المال، أمي كانت تفعل ذلك».

الحرب والتهجير

السيد «ج» (مقابلة ١٤): «كنا نسكن في عام ٧٥ منطقة المصيطبة عندما صارت الأحداث، إنتقل بنا أبي، وسكن نيو روضة. كنت صغيراً، يعني حوالي سبع أو ثماني سنوات. إنزعجت من الانتقال لأنني كنت معتاداً على الجيرة والبيئة. إنتقلت إلى منطقة لا أعرف فيها أحداً. يعني فاضية لأنها لم تكن قد تعمّرت بعد، ولم يكن فيها الكثير من العالم، كانت لاتزال منطقة حرشية. تضايقت، يعني تضايقنا فيها كثيراً، واضطرينا عندما اشتدّت الأحداث أن ننتقل إلى الضيعة. عشنا فترة في الضيعة ناحية منطقة عكار. ضيعة أمي (الأب من نواحي البقاع). لم يكن باستطاعة أبي أن يترك عمله في الشركة الجديدة (بعد أن غير عمله). أحسست أن أبي منزعج، كان مرتاحاً أكثر في عمله السابق. أسّس أبي نفسه من جديد في إقامته الجديدة. صرنا نساعد بأعمال الأرض في القرية، يعملون بزراعة التبغ. بقينا حوالي سنتين أو ثلاث. كنت شيطاناً في المدرسة ولم أكن أحبها. في البداية وأنا صغير رغبت المدرسة، لكن بعد أن تفتحت قليلاً صرت أكرهها. في الفترة التي انتقلنا فيها لم أتعلم زيادة، كنت أفضل في المصيطبة. الأحداث، وكذلك انتقالنا إلى الضيعة خاصة، حيث سجلوني في مدرسة تقع في قرية أخرى. لكنني كنت أهرب وأعود إلى قريتي وأبقى مع جدتي. كنا نذهب إلى المدرسة التي في القرية الأخرى سيراً على الأقدام، فصرت أهرب، هكذا من أجل أن أبقى في البرية لأنني أحبها. أذهب إلى الكروم وأحوّش الدخان والعنب؛ وكنت أحب الوحدة كثيراً والحرية، يعني أحب أن أعيش وحدي حراً، لا أحب العجقة ولا أحب العالم كلهم».

الانتماء إلى وسط مهني أو حرفي

السيد «م» (مقابلة ٢)، وهو في الأربعين تقريباً، تأخر بالمشي حتى سن السبع سنوات (مرضت قليلاً، يقول، وأعصاب أيضاً، أو أنني آتٍ من بلادٍ بعيدة، تعرفين عقيدتنا ثابتة!). ذهب مع ذلك إلى المدرسة بشكل عادي ونظامي حتى صف الخامس ثانوي، حيث ترك المدرسة بسبب الأحداث كما يقول وكان في حوالي السابعة عشرة تقريباً، وخطب قريبته التي أحبها. هذا يعني أنه كان متأخراً نوعاً ما في مدرسته، لكنه ينتمي إلى أسرة تعمل في الأعمال اليدوية (الوالد يعمل في مقاولات الخشب). وبالتالي يمكن القول إن حياته المدرسية عادية بالنسبة إلى محيطه. الآن يتحسّر على أولاده الذين اضطروا إلى ترك المدرسة بسبب سجنه. كان يأمل في أن يتحسن وضعهم الاجتماعي عن طريق المدرسة. يقول: «معترين، اضطروا أن يعملوا في نفس مصلحة جدهم (مقاولات خشب) كي يصرفوا عليّ وأنا في السجن» (هو نفسه يعمل سائق سيارة).

السيد «ض» (مقابلة ٤) كذلك الأمر، عرف مدرسة عادية ضمن ظروفه العامة. بقي في المدرسة حتى سن ١٦ عاماً، وكان قد وصل إلى الصف الخامس إبتدائي أيضاً. يقول «أردت أن أكمل المدرسة لكنني أحببت زوجتي، فتركت المدرسة وعملت مع أبي، وخطبت إبن ١٧ سنة وجدت أنه لم يعد عندي مجال كي أكمل دراستي. تزوجت في سن الثامنة عشرة». لكنه ندم على ذلك ويرى أن العلم كان أفضل له. لذا سوف يشجع أولاده عليه.

السيد «ط» (مقابلة ٩) يجد أن مدرسته كانت عادية جداً. وهو ترك المدرسة باكراً، عام ٧٩ حين كان في الصف الثالث تكميلي. يكمل بعد أن أسأله لما تركها باكراً: «ليست المسألة مسألة بكير، لكني أحببت أن أعتمد على نفسي. تركت على أساس أن أعمل وأتعلم. لكن العمل ضرب العلم. عندي اخوة أكملوا تعليمهم حتى السنة الجامعية الاولى. أحدهم موظف بنك. عملت في الديكور في منطقة الخليج عند أحد الأشخاص الذين تعرفت عليهم في فرن أبي. كنت في السادسة عشرة عندها».

في طقوس تعاطي المخدرات وأوالياتها

بدأ السيد «ن» (مقابلة ٥) تعاطي المخدرات باكراً جداً، بعمر التسع سنوات كما قال لي. كيف؟ سألت متعجبة؟ أجابني: «أجل كنت أتعاطى سيجارة الحشيشة». لماذا باكراً هكذا؟ «هيك، مشينا في التيار، علموني أولاد منطقتنا و الحرب علمتني. لا دخل للتربية هنا. ليس في أسرتي من هو أزعر غيري. بعمر التسع سنوات اختلطت بناس من تنظيم مسلح، سحبوني من المدرسة وكنا نعمل عصابات. حملت السلاح عندها. أذكر أن بارودة الفال كانت أطول مني. سررنا جداً بذلك. عندما كنت صغيراً وأهرب من المدرسة، كنا نذهب ونلعب ألف لعبة ولعبة. نلعب في النهار لأنني لم أكن أستطيع أن أتأخر عن السابعة مساء في العودة إلى البيت. بعد ذلك ابتليت بالمخدرات. كان عمري حوالي التسع سنوات سقّطوا لي (أضافوها) الحشيشة في القهوة تسقيط. يصنعون القهوة ويتم غلي الحشيش فيها، وذلك كي يصبح لهم رفيق آخر يتسلون معه. وصرت أدخن سيجارة حشيشة. في البداية كنا نتسلى. نتشاوف أننا أولاد صغار وندخن الحشيشة. عندما تعاطيت وشربت السيجارة، كنت آخذ سحبة عندما يمررون السيجارة. يقولون لي إسحب فأسحب نفساً. السيجارة الواحدة تبرم على إثنين أو ثلاثة؛ آخذ منها شفّة. قد تعجب السيجارة وقد لا تعجب. في البداية طوّشتني السيجارة، لكن عند كل برمة وعندما تصل إليّ كان عليّ أن أمجّ نفساً. وعندما ثقل رأسي كثيراً صرت أسحب النفس على الفاضي، هم يصطفلوا معتادين. لكن سرعان ما اعتدت عليها أنا أيضاً. قد يكون هناك نية أذى في البداية، لكنني الآن لست زعلاناً. الآن صرت أنا الراغب في هذا الأمر. بدأت حاجتي الفعلية للحشيش عندما دلوني على التاجر وصرت أشتريها بنفسي. في البداية كنت أطلب من صاحبي سيجارة: أعطيني واحدة، يعطيني إياها لم أكن أعرف من أين يشتريها. لكن عندما انقطعنا سوياً، ذهبنا واشترينا معاً! هكذا عرفت التاجر ووصلت إليه. وصرنا نشتري. في البداية كانت كلفتها ألف ليرة، كنا نفعل المستحيل حتى نشتريها. نجمّع من أهالينا ومن هنا وهناك. وصرنا نحتاج لمن يردنا عن التاجر (ينهانا عن الذهاب اليه). عند ذلك إكتشف الأهل ما نعمله، لكننا كنا قد ابتلينا بها وانتهى الأمر. صرنا نسرق ونشتريها، ندخل نداهم ونشدّ فلان أو علتان. في البداية كنا نُخرج الشخص ولا نعرف أن

المسؤول عنا يسرق البيت هو بنفسه، كانوا يسرقون على ظهورنا. عندما أصبحت في حوالي الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة صرت أسرق بنفسي ولحسابي، وكنت أحمل رشاشاً بشكل دائم. الادمان مكلف، إن ثمن غرام واحد من الكوكايين يبلغ ٨٥ أو ١٢٠ دولاراً، ويحتاج واحدنا في النهار إلى أربعة غرامات وهناك من يحتاج إلى ٧ أو ٨ غرامات. أنا كنت أجلس أحياناً لأربعة أيام متوالية. هناك من يجلس ٧ أيام متوالية على مادة الكوكايين على نفس القعدة: ويسكي ودخان وكوكايين. يعني يمكن أن نصرف ٧ آلاف دولار في الجلسة في الليلة الواحدة. فجأة يطلع الضوء وتجد أحدهم يريد غراماً إضافياً، يأخذ منخاراً وثانياً (يقصد نفساً)، هكذا طارت أكثر من ١٥٠ دولار للنفس الواحد! ذلك يحتاج إلى مال فمن أين يأتي به! عليه أن يسرق، إنه مضطر أن يسرق. الكوكايين مشكلته الوحيدة الحصول على المال. عندما ينفذ المال، يذهب أحدهم مع آخرٍ نصف غرام عنده إلى صاحبه الذي يعرف انه يملك مالاً. يقول له ذق من هذا قليلاً، فيتذوق صاحبه ويغطس. ناس تغطّس ناس!

أنا لست مدمناً (لا يقبل أحد منهم أن يقول عن نفسه أنه مدمن، وكأن الكلمة وحدها هي التي يمكن أن تعينه كذلك وليس الممارسة)، الحشيش للانبساط فقط، فهو ليس من المخدرات. المخدرات والادمان هي للهيروين. أنا الآن باستطاعتي المكوث دون تعاطي، إن خرجت الآن من السجن لن أتعاطاها. أتعاطى عادة الحشيش والكوكايين وهذا ليس تعاطياً ولا يسبب وجعاً. عندك متعاطي إنه يدخن سيجارة للكيف لينسى العالم، ليجلس على رواق وألف قصة، يبحث عن الرواق وأن يكون وحيداً أو مع أصدقائه. الحشيش لرؤية العالم جميلاً وللحصول على الهدوء والسكينة بعيداً عن ضجة وصخب الخارج. هكذا يرى العالم جميلاً. أما الكوكايين فهو ليس مخدراً إنه نوع يسبب الصحو وليس كالهيروين، حيث أن من يتعاطاه يسقط ويتهاوى. ذلك أن متعاطي الهيروين يكون في وضع تعيس:احترقت امرأته أمامه أو مات طفله، انه يريد أن ينسى فيبتلي به. يبدأ بالشم ثم بحرق الصليب ثم يبدأ بالأبر، وتكون راحت عليه، لأنه سوف يعود إلى تعاطيها مهما فعل. سوف يعود إلى نفس القصص عندما يترك السجن؛ من يقول إنه تركها يكون كذاباً. لأن داخل السجن محتال والخارج منه كذاب...

«من يصاحب الذئب يضيع» ، («ن» يحب كثيراً ضرب الأمثال) يقول السيد «ن»: «هذه المرة أنا مظلوم بسجني ، كنت قد خرجت لتوي من السجن ، وكنت أستحق سجني في المرة السابقة ، سارق ومخرّب وعامل العمايل . لكن ليس هذه المرة . المهم سبب دخولي هذه المرة ، أني عندما طلعت من السجن أتى لزيارتي واحد اسمه «و» وقال لي: يا «ن» أريد أن أعرفك على واحد «معبى» وصاحب راس تمام . عن جدّ؟ قلت له . نعم قال . أتى لعندي ومعه سيارة ، طلعنا فيها ، وصرنا نكسّر ونلفّ ونلق (نعب بنهم ، والمقصود الحشيش طبعاً مع الويسكي) ، في البداية لم أقبل لأنني ما زلت خارجاً من السجن وكنت قد أوقفت الحشيش . صرت أغني لهما مواويل بدّاوية ، يعني سبعاويات وهي معروفة ، وكل واحد لغرض ، فماذا حصل؟ قام صاحبي «و» غمّق في (دخل بي عميقاً ، يقصد حصل نوع من الانجذاب بينهما) ، غرق بي مظبوط ، على الجامد . يعني أنه تعلّق بي وأخذني معه إلى البيت مع أنه متزوج (ذكر لي «ن» أحداثاً أخرى مشابهة مع رفاق له ، حدست أنه يقصد علاقات جنسية مثلية ، لم أتمكن من طرح السؤال المباشر عليه للتحقق من صحة الأمر بسبب الظروف المحيطة بنا في الغرفة التي أجري فيها الحديث ، لكن كل السياق يؤكد ذلك ، وهو استعمل دائماً تعابير لا لبس فيها) . المهم قال لي أريد أن أسرق معك... (أنظر البقية في الفقرة المتعلقة بالسرقة) .

تعاطيت المخدرات بسبب الحرب وعيشة التعتير ، نشأت نشأة تعتير . لكن قد أعود إلى تعاطيها ، لم لا! أنا لا مسؤولية لديّ وبإمكاني أن أكمل فيها . وفي لبنان ليس هناك أكثر من المال . قد أبيع الخضار ، لأنها مصلحة تعادل الذهب . المتزوج قد يبلي امرأته معه . لكن إذا كنت أنا مقتنعاً بها أنها لا تضرني ولا تنفعني ، فلا بأس لأني وحدي . أما من يريد أن يتعالج من الادمان فما عليه سوى الابتعاد عن الناس الذين يتعاطونها ، يغيّر مسكنه ، ينتقل للسكن والعمل في منطقة أخرى» . يرجع «ن» الادمان بشكل واضح إلى البيئة والصحبة واجتماع العوامل البيئية المسهّلة .

السيد «س» (مقابلة ٨) يقول إن عليه دعوى تعاطي مخدرات: «أنا سلمت نفسي كي أتخلص من المخدرات ، قلت أبقى حوالى الشهرين أو ثلاثة أشهر وأترك السجن . لكن بعد أن دخلت وجدت على النشرة التي

تخصني دعوتي سلب. واحدة بُرِّئت منها والأخرى لا تزال جارية إذ إن هناك التباس بالاسم». (يرى الدركي أنه ينتحل شخصية أخرى). سافر «س» خلال الحرب إلى ألمانيا، وهناك أدمن على المخدرات وهو بعمر الخامسة عشرة أي بعد وصوله بسبعة أشهر، أدمن بعد ١٥ يوماً من تعاطيها. كان يقضي وقته في المراقص بصحبة فتيات ألمانيات وأدمن عن طريقهن. أما عن المال «فهو يتدبر». «حاولت أن أترك المخدرات، كانوا في ألمانيا يسألوني إن كنت أريد العودة الى لبنان، كان بإمكاني أن أقول كلا، فيوقفوني شهرين وعندما أخرج يعطوني إقامة. أنا لم أكن أوافق، كنت أطلب أن يرسلوني إلى لبنان. كنت أفكر أن نزولي إلى بلدي قد يجعلني أترك المخدرات. لكن بعد مدة كنت أعود إلى ألمانيا وأعود إلى تعاطي المخدرات. وأرجع إلى لبنان بعد فترة مرة أخرى، وهكذا. في النهاية اهتديت إلى أناس هنا وصرت أتعاطى المخدرات معهم، ومشيت في هذا التيار». عن سبب تعاطيه المخدرات في ألمانيا، قال: «الفتيات هناك أكثر من الشباب ويتعاطين المخدرات، يعني يتعرف واحدنا على فتاة تتعاطى وهكذا يتعلم أن يتعاطى هو أيضاً. قبل أن نذهب إلى ألمانيا كان عندي قابلية، كنت أشرب مشروبات كحولية. كنت ولداً عندما تعاطيت المشروب. كان عندنا محل مشروبات وكنت أبيع فيه. صرت أشرب البيرة منذ عمر ١٣ سنة وكأس ويسكي. يعني أنا عندي استعداد للتعاطي وصرت أتعاطى. هنا قد يجد واحدنا من ينبهه عن تناولها، الأب أو العم. وتعاطيها هنا يعد شيئاً سيئاً. لكن تعاطي المخدرات هناك مسألة عادية. هذا بالاضافة إلى أنني لم أكن أعرف أن هذا ما تفعله بنا المخدرات. في بداية التعاطي يمكن للواحد أن يتركها، لكن يصعب الأمر في ما بعد. أنا تناولت كل أنواع المخدرات. وكل نوع وله شكل مختلف عن الآخر. عندما كنت أعود إلى لبنان لم يكن باستطاعة أهلي الانتباه إلى إدماني. إذ في كل مرة كنت أعود بعد أن يتم توقيفي لمدة ١٥ يوماً فأنظف منها». يشكو «س» من عوارض الادمان، لكنه لا يريد الاعتراف بذلك، يصف وضعه بأنه أعصاب:« أعاني من الأعصاب منذ أن سجنت في سجن رومية. عندي أعصاب قوية (يقصد أن إصابته بمرض الأعصاب قوية) وشرقطة في رأسي. كنت أتناول دواء أعصاب. لا ليس بسبب المخدرات، بل بسبب مشكلة حصلت. وجّه إليّ الضابط

كلمة لم تعجبني فضربت رأسي بالحائط من شدة تضايقي، وأذيت نفسي. الآن أشعر بالشرقطة عندما أريد أن أنام أي عندما تأتي النعوسة. لا يحصل لي أي شيء في النهار. قد تكون أعصابي مضروبة. أحس برأسي يلمع. أنهض بسرعة (أفزّ) ولا أستطيع النوم. على كل حال لا أستطيع أن أضع رأسي على المخدة بشكل عادي وأنام. أضع خلف ظهري ٣ أو ٤ مخدات، أكون نصف قاعد تقريباً، فأغفو لمدة ساعة أو ساعتين. وقد أغفو بعدها بشكل عادي. لكنني لا أغفو إلا ساعات قليلة. في العادة كنت أنام أكثر من ذلك. أعتقد أن المسألة متعلقة بالأعصاب. يعني هذه الشرقطة الموجودة معي لا بد أنها أعصاب مضروبة (ويدل بيده على مكان محدد في رأسه من الخلف). بعد أن ضربت رأسي لم أحس بها مباشرة. خرجت بعدها وتعاطيت المخدرات. لكن حصل معي هذا في سجني هذه المرة. في رومية كنت أتناول دواء يخلّصني من هذه الشرقطة (يذكر أسماء أدوية مهدئة). عندما تعاطيت المخدرات لم أشعر بوجع رأسي. عودتي إلى السجن فعلت ذلك بي. لا يخف وجع رأسي الآن. أحتاج إلى دواء لا أعرف ما هو. الآن أستطيع أن أكلمك لأنني أخذت الدواء، لكن ريقي ناشف وأحس أن جسمي متعب وخلقي ضيق، وعندي «تنميل» في وجهي كله وفي أصابع يدي. يخف ذلك عندما أتناول الدواء (يسأله الدركي كم حبة تناول من الدواء، ويبدو أنه يحتاج إلى ضعف الكمية كي تخف أعراضه، لكنهم بدأوا بتخفيف كمية الجرعة التي يتناولها إلى النصف). أحياناً أحاول تخفيف كمية الدواء. أنا لا أريد أن أتناول دواء، لكنني أجد أني متعب فأعود وآخذه. الأعصاب هي أقوى مرض في العالم. أحس، بالاضافة إلى ضيق خلقي، بأن ظهري مصقّع ويدي أيضاً مجلدتين. جربت الرياضة، لكن لا شيء ينفعني. جربّت كل شيء. أنا لا أحتاج علاجاً، (يقصد علاجاً من الادمان) أحتاج إلى تخطيط رأس ورئتين أيضاً. أُصاب بالكريب أحياناً ولا أشفى منه قبل شهر ونصف الشهر. لا أعتقد أن سبب ذلك المخدرات. هناك من له من العمر ٦٠ عاماً ويتعاطى المخدرات وينط في الغرفة كالقرد. بدأت هذه الأعراض في العام ٩٢ (بدأ إدمانه كما قال لي في العام ٨٥). الآن أحس أنني انتهيت من المخدرات. وعدت نفسي «مظبوط» أن أتركها، خلص. الآن وعدت

نفسي أن أخلص. في المرات السابقة التي سجنت فيها لم أكن كذلك، كنت أنوي تعاطيها مرة أخرى بعد خروجي، لكن الأمر مختلف الآن، لأنني متعب جداً.

لكن ليس كل من يتعاطى المخدرات أدمنها، هذا ما يمكن استخلاصه من تجربة السيد «ي» (مقابلة ١١)، الذي أخبرني أن المخدرات كانت بالقرب منه لكنه لم يدمنها، إذ إنه جرّبها عدة مرات كما جرّب أصناف عدة. كان يتذوقها ويتركها: «لأنني أرى بعيني كيف تصبح حالة صاحبي المدمن عليها، كنت أذهب مثلاً إلى ساحة رياض الصلح وأرى كيف هي حالة الناس هناك، فاقتنعت أنني إذا أخذتها سوف يتدهور حالي لا محالة. عندما جربتها لم أشعر بأي انبساط، من يتناولها يقعد على الأرض مثل... (يضحك ولا ينهي جملته). لا بسط فيها، البسط عندما يكون الانسان بعقله الكامل. لكنني تعاطيت الخمر. بدأت أشربه من عمر تسع سنوات. تولعت به لدرجة أنني كنت أضع الزجاجة في جيبي ولا أخلو من الويسكي أبداً. في البداية كنت أضع بعض النقاط في حلقي حتى إذا أمسكوا بي يكون عذري أني سكران، هكذا أضحك عليهم عندما أدخل المخفر».

تعرّض السيد «ي» لحادث سيارة ذات يوم بسبب سكره الشديد، ولم يستعد وعيه إلا في المستشفى وقد أجريت له عمليتان جراحيتان.

طقوس السرقة وتقنياتها

يحكي لي السيد «ي» (مقابلة ١١) عن بداياته المبكرة بالسرقة: «كان عمري ١٢عاماً عندما دخلت السجن بسبب السرقة، عام ٨٦. قبل ذلك مددت يدي لكنها لم تكن سرقات، في الأسواق التجارية مثلاً أو في العازارية حيث لم يكن يدخل إليها إلاّ الأولاد الصغار (الوليّدات قال). كنا ندخل من خطوط التماسّ إلى المنازل المهجورة التي تركها أصحابها. لم نكن نشعر أنها سرقة لأن كل الناس كانت تذهب إلى هناك، تدخل، تشيل، تحمل وتذهب». يظهر لنا هذا الكلام نسبية الأخلاق من جهة ودور المحيط في تحديد ما هو مقبول وما هو غير مقبول من جهة أخرى. لم تبد سرقات الأسواق على أنها سرقات. السرقة في بداية الحرب لم تكن «سرقة»، لم تكن تبدو كذلك. كانت إما غنائم

حرب للبعض، أو انتقام، أو مجرد الاستيلاء على أشياء متروكة م
أصحابها، معروضة ومشاعة. «أحسست أنني أسرق عندما بدأت أنه
إلى البيوت والناس في داخلها. السبب الذي جعلني أسرق هو الطم
بالدنيا. أنظري إلي الآن؟ (يقصد أنظري إلى النتيجة). عندما كنت شا
وعمري ١٩ عاماً، يطلع لي واحد يلبس نظارات ويملك سيارة ب ـ أ،
ثمنها ١٣ الف دولار ماذا تريدين مني أن أفعل؟ إنها عدم القناعة بما رزقني
الله والطمع، أطمع بما هو أحلى. كنت أفكر هكذا: هل هذا الشاب
أفضل مني؟ كان باستطاعتي أن أحضِر لو أردت ١٠ آلاف دولار. لكن
قد أضيعها في ما بعد في اليوم التالي بسبب حادث.

أسرق عادة من المناطق الغنية، قريطم مثلاً أو الرملة البيضاء. لا أسرق في مناطق الفقراء أولاً لأن دعوة الفقير مستجابة عند الله (والواحد يذهب فيها). وثانياً ماذا سوف نجد في بيت الفقير؟ مصروف أسرته! في المناطق الغنية مثل قريطم يعني أقل بيت مصروفه ٧ أو ٨ آلاف دولار. هؤلاء يعيشون برفاهية، تستحلي بيوتهم، كنت عندما أسرق أدخل الى الحمام كي أغتسل وأنام إذا لم يكن في البيت أحد. لم أكن أفزع أو أتضايق أبداً. لو سجنت باكراً لما كان أفادني ذلك (كان يدخل النظارة لمدة ١٥ يوماً فقط خلال الأحداث وسرعان ما يفرج عنه). لا يتوب الشخص إلاّ عندما يريد الله له أن يتوب. حتى الآن أخاف على نفسي ولا آمن من مكر الله في تجربته لي. كنت أسرق وحدي، لم أسرق أبداً مع أحد. لم أحمل سلاحاً ولا مرة ولا أي عدة. لا أحب الأذى لأحد. عندما أجد أحداً في الداخل أهرب اذا قدرت وإذا لم أقدر لا أهجم عليه، لأن المال ماله ومن يدافع عن ماله يموت شهيداً، هو يكسب الأجر وأنا أذهب «عونطة».

السيد «ي» لم يحمل سلاحاً نارياً لكنه حمل سكيناً وضرب به: «أطرق سكين، يقول، أكون مضطراً عندما يهجم عليّ أحد أسحب سكيناً بدل أن آكل «قتلة». حصل هذا معي مرات عديدة».

عن تقنية السرقة، يخبر «ي» ما يلي: «أطلع إلى الطوابق العليا، الرابع أو الخامس. أتسلل وأتعربش. الأمر سهل هذه الأيام بسبب البرادي الصفر التي يستعملونها. يسهل الأمر أيضاً وجود عيادة فلان أو تعاونية كذا... التي تكون خالية من أصحابها ليلاً».

أما تقنيات السيد «ن» فهي أكثر دقة كما ذكرها. فهو عندما يحتاج المال لضرورة شراء المخدرات، يضطر للسرقة. ولأن المبالغ التي يحتاجها تكون كبيرة، يروح يراقب المنازل قبل الشروع في السرقة: «يراقب منزلاً يعرف أن فيه هذا المبلغ (الذي يحتاجه)، هناك حرامية يعملون على الخبرة. أقول لك كيف! مثلاً يجد أن شباكاً ما مقفلاً فيعرف أن هذا المنزل فارغ من ساكنيه. يطلع إلى البيت فيجد أنه مقفل بقفل. يقوم بخلع الباب والدخول إليه. قد يجد فيه تحفة عمرها ٤٠٠عام مثلاً (كما يقول). كما أنه لا يدخل إلى منزل واحد بل إلى عدة منازل. سيارته معه فيمشي ويتطلع إلى البيوت، لا بد أن يجد شيئاً ما في منزل ما. سجادة عجمية مثلاً ثمنها «بلوى»، أقل واحدة ثمنها على الأقل ٦ أو ٧ آلاف دولار. وهناك سجاد ثمنه ١٠٠ألف دولار، يشيل السجادة ويبيعها. بالنسبة لمعرفة وجود سجادة قيّمة في مكان ما، هناك من ينشر سجاده على الشرفات. الواحد فينا ينظر إليها من مكانه في سيارته. ويعرفها هل هي عجمية أو صينية أو المانية، فيحاول سرقتها».

أما «ن» الذي أمضى ٩ سنوات من حياته في السجن بحسب ما يؤكد، أول مرة دخل فيها إليه كانت في العام ٨٥ . وهو يجد أنه أُدخل السجن ظلماً حينها ولم يكن قد قام بأي عمل. أُدخل سجن بيروت ووضع في غرفة أحداث. يضحك ويقول ساخراً: «غرفة أحداث قال، شو أحداث وعمر الواحد فيهم ٢٠ عاماً؟ يكون واحدهم «خارب الدنيا» و«عامل السبعة وذمتها»، ماذا أقول لك؟ يقول سرقت مسجلة أو كذا! أقوم أنا أسمع وأقول في نفسي والله سوف أفعل ذلك عندما أخرج. أريد أن أفعل مثله، أريد أن أمثّل الدور. كأنهم جعلوني أحضر فيلم سينما. أنا أحضر هذا الفيلم، طيّب أريد أن أمثّله أيضاً. أريد أن أفعل ما فعلوه! وهكذا صار. دخلت السجن عدة مرات وصرت أعرف بالقوانين وكل شي. أما كيف دخلت السجن لأول مرة: كنا أربعة نجلس سوياً، أتى أحدهم وهو سارق أضوية سيارات مرسيدس. والله العظيم لم يكن لي دخل بذلك ولا علاقة ولا يد لي. المهم، نذهب بعدها كل واحد إلى بيته. كنت والله في البيت عندما كبست علينا حركة أمل. كانت أول مرة دخل فيها أناس إلى بيتنا وشدّوني وقالوا «إمش» معنا. سأل أهلي «شو في ما في؟» قالوا «نحتاجه قليلاً». أخذونا. «العمى» وضعونا في غرفة

كلها صواريخ وفرش للنوم وأشياء لا أعرفها، وقالوا هذا سجن. أتوا بصديقي وقالوا إنني سرقت معه، وضربوني. وسألوني ماذا كنت أفعل لأنهم يعلمون أننا نمشي مع بعض في المنطقة. هو قال إنني سرقت معه (بسبب الضرب لأنه ولد!). تدخّل أهلي عند ضابط في الأمن العام وعضو في حركة أمل في نفس الوقت. ضربني وأرسلني إلى المنزل بعد أن حلفت بأن لا دخل لي. لكن وصلت المسألة إلى الدولة وذُكر اسمي فأحضروني إلى السجن معهم. وبدأنا نستمع إلى الكلام عن المغامرات في الغرفة إلى أن مثّلناها في الحقيقة. وصرنا نسرق وألف قصة».

حكى لي «ن» عن آخر مرة سجن فيها ظلماً أيضاً، وبعد أن اتخذ قراره بعدم السرقة. قصته توضح كيف يتم إغراء الفرد بالمشاركة بسرقة ما والجو المرافق للسرقة. كان «ن» يحكي لي (في الفقرة المتعلقة بالادمان على المخدرات) كيف حاول صديقه أن يجره إلى مرافقته: «قلت له إنني لم أعد راغباً في القيام بسرقات وأنني تركت هذه الأمور واكتفيت واتخذت قراري. قال لي إننا سوف نقوم بذلك وحدنا. وطلب أن أعطيه فرصة ليريني نوع عمله. لم أقبل أن أسقط معه، وأوصلني البيت. لكنه عاد في اليوم الثاني مع فلان الذي يسمّونه «كذا». وهو من كان عرّفني على «و». زمرا لي (استخدما بوق السيارة لمناداتي) وطلبا مني النزول (عندما عرفته في المرة الأولى كان يقود سيارة ب ـ أم ٧٠٠. في هذه المرة كان معه سيارة داتسون مكسّرة وخربة). المهم نزلت معهما وذهبنا. بدأوا كذلك بالتكسير (تناول المخدرات). قلت إنني لا أريد. المهم أخذني إلى منزله، الذي كان في المرة الأولى شيء عظيم، هذه المرة أخذني إلى مقبرة اليهود في رأس النبع. تسه (علامة تعجب) أدخلني المقبرة! أراني سريراً واحداً موجوداً في وسط الغرفة التي تجلس فيها زوجته ومعها تلفزيون صغير. سألته عن سبب ما هو فيه، أخبرني أنه سُجن واضطر أن يبيع البيت والسيارة كي يخرج من السجن. سألته كيف يجعل زوجته في هذه الظروف وما الذي ينوي عمله؟ قال لي الآن أريد أن «أخبط» (أضرب) فهل تريد أن تخبط معي أم لا؟ نظرت إليه متسائلاً كيف كان وكيف صار! وقلت غير معقول أين يعيش مع زوجته. فقلت له «يللا» (هيا) سوف أخبط معك. سألته كيف يتصرف، قال إنه يدخل البيوت بينما الناس نيام. وقال إنه يفعل مثلي وأن فلان حكى له عني ولنجرب

معاً. فإذا أعجبني الأمر كان به، وإلا نترك بعض. وقام بسرقته وصار معه مصاري، فقلت له انتهينا الآن. وأنا لم آخذ منه أي قرش، ساعدته فقط من أجل زوجته. قلت له أتركني الآن بحالي، استأجر شقة وتدبر أمرك بالمال الذي أصبح معك. في هذا الوقت كنت أريد أن أسافر، قال إنه يريد أن يسرق مرة أخرى. هذه المرة ذهبت معه لكن لم أشترك فعلياً بالسرقة ولم أعرف أنه يريد أن يسرق؛ إذ إنه غاب فترة ثم عاد محطماً. سألني إن كان عندي ما أقوم به، قلت لا، فقال إمشِ نشرب قنينتين بيرة. ذهبت معه إلى الروشة. أحضرنا كأسي ويسكي صغار وأفرغناهما في البيرة وشربنا البيرة. جلسنا حوالى النصف ساعة. سألني إن كنت أحب أن أزور صديقنا الذي يسكن عاليه، قبلت. أدار السيارة وذهبنا. كانت الساعة حوالى التاسعة والنصف ليلاً. استقبلنا بترحاب وكان يشاهد التلفزيون. مكثنا حوالى النصف ساعة. وقف عندها «و» وقال ما رأيكما نكمل على الروشة؟ قلت له إمش. نزلنا كلنا. نزل معنا بالدشداشة التي كانت عليه. مررنا بالمصيطبة، اشترينا زجاجتي ويسكي و١٥ قنينة بيرة وذهبنا إلى الروشة، مقابل بربر. تركنا السيارة وبدأنا الشرب. نفتح ونشرب، نفتح ونشرب، حوالى ثلاثة أرباع الساعة. قام بعدها «و» وقال ما رأيكما في أن نكزدر إلى حريصا؟ قلت له هيا بنا، إمشِ. حمّلنا معنا ما تبقى من مشروب وتركنا القناني الفارغة، ماذا سوف نفعل بها؟ وصعدنا السيارة. «و» معه رخصة سوق عسكرية كان أخذها من خدمته بالجيش. لذا صار يمرّ بطرقات عسكرية. قلت عندها في نفسي إنه سكر. قلت له ما بك؟ أردت النزول من السيارة لأنني لا أحب هذه الحركات، ولا أحب أن أتبهدل على الفاضي. ترك القيادة عند ذلك لصاحبنا الذي يملك رخصة قيادة إذ إنه سائق تاكسي. دلّه «و» على الطريق ووصلنا حريصا. وبعد أن برمنا فيها وعندما وصلنا إلى غزير، قال صفّوا السيارة هنا أريد أن أنزل عند صاحبتي. قام صديقنا طوى كرسي السيارة ووضع رجليه على الديركسيون وغفا. نزلت من السيارة، قال لي أين أنت ذاهب عندما ترانا اثنين لن تقبل المجيء معنا؟ فقلت له إنني أريد أن أقضي حاجة (أطيّر ماء). مضى حوالى النصف ساعة وجدت أن الوقت طويل، وعندما عدت لم أجدهما كليهما في السيارة. فجأة سمعت أصواتاً وضجة وصراخاً: حرامية، حرامية، وأمسكوا بنا».

السيد «ح»(مقابلة ١)، موجود في السجن بسبب تهمة سرقة أيضاً، سرقة ذهب. ولكنه ينفي التهمة ويؤكد أنه لم يشارك فيها. لكنه لا ينفي قيامه بسرقات صغيرة كالتي يمكن أن يقوم بها أي مراهق كان دون أن يكون لها عواقب خطيرة على مستقبله: «كنا نذهب عند أبو خضر (محل للسندويش) ونشتري بالفيش الواحد ٤ أو ٥ مرات. نأخذ بيبسي من الخارج أو شوكولا من المحلّ». يرى أن مشكلته في رفاقه الذين كانوا يقومون بالسرقات ومعظمهم موجود الآن في سجن رومية وعددهم حوالى التسعة. إثنان منهم متهمان بقتل الأب وواحد متهم بالمخدرات والباقي سرقات. يقول: «كنت أكزدر معهم ولم يخطر ببالي أنهم يسرقون(!) كنا نجمع المال ونذهب إلى الجبل إلى حمانا». يرجع سجنه إلى رفقة السوء التي انخرط فيها والسبب برأيه غياب رعاية الأهل (يتم مبكر من جهة الأم ويتم في فترة المراهقة من جهة الأب) لكنه لا ينفي المسؤولية الشخصية.

في التعرض المباشر للحرب ومشاهدها، والأضرار الناجمة عنها

السيد «ح» (مقابلة١) يقول: «وعيت على الحرب، أثناء الاجتياح الاسرائيلي. أتيت ناحية مستشفى البربير، رأيت الميتين مكومين فوق بعضهم البعض، كان الأمر عادياً بالنسبة لي، رأيت من هو محروق وأسود، كنت أتطلع، كانت تكز نفسي قليلاً، لكن لا شيء، لم أخف. أخاف عندما تمرّ قذيفة فأهرب إلى البيت عندها. كان هناك قناص يقنص على منطقتنا، أكثر ما حصل ذلك في الحرب الأخيرة (يقصد ما عرف بحرب عون)».

السيد «م» (مقابلة٢) عضو في الحزب التقدمي الاشتراكي وكان مسؤولاً عسكرياً عن محور أثناء الحرب، كان بإمرته أكثر من عشرين مقاتلاً. عندما سألته عن نوع الأفلام التي يشاهدها وهل يرى مشاهد عنف أو يحب ذلك، أجابني: «شو بدي قلك؟ عندما كان يطلع الرصاص عليّ في الحرب في الموقع العسكري الذي أنا فيه لم أكن أخاف، يمكن لعدوي أن يصطادني فأنا في موقع حرب. انتبهي أثناء الحرب اليمينية التي حصلت عندنا كانت المعركة معركة كرامة، نكون أو لا نكون. على الواحد الدفاع عن أرضه وعن وطنه وعن بيته وعن حياته، هذا طبيعي.

شاركت في الكثير من المعارك، كانت حرب تحرير. أردنا أن نحرر بحمدون، دخلت وشاهدت. في المنطقة أيضاً رأيت الكثير، كل واحد يرى، كل العالم رأى والرفاق أيضاً، من شارك في المعارك رأى. ماذا تريدين ان يكون شعوري؟ إنه شخص يحاول أن يهتك عرضنا، كان مصمماً في رأسه أنه يريد السيطرة. ثم لماذا تسأليني هذه السؤالات التي لا أدري كيف؟ أنا ضد المشاكل، أحاول أن لا أردّ على عدوّي عندما يوجه رصاصة إليّ. أما عن شعوري عند رؤية المقتولين فهو سؤالي: ماذا جنى هذا المسكين؟ من سوف يعوض عليه، رئيسه؟ أو حزبه؟ من مشى وراح راحت عليه وعلى شبابه. لم أشمت به ولماذا الشماتة؟ أما عن الانزعاج، فلا تؤاخذيني بهذه الكلمة، أنا مسؤول محور، يعني آمر محور، فكيف تريدين أن أضطرب أو أخاف؟ أنا مبدئي عقائدي، يعني الواحد يهتم بكرامته ويحافظ عليها وعلى أرضه. لست نادماً على شيء، لكن لا أريد لأولادي أن يكونوا حزبيين أو عقائديين».

السيد «أ» (مقابلة ٣) يقول: «أنا لم أصب في الحرب، أنا أُصاب؟ عزرائيل لا يخرب بيته. لكنني شاهدت قتلى أكيد في الشوارع. عند عودتي من عملي وعلى طريق المطار أتفاجأ أن الطرقات فارغة وأن السيارة المصابة طارت مع اللحم الذي فيها. يصبح عندي نوع من القلق، خاصة عندما أُصيب عمي وذهبت لرؤيته في المستشفى وهو ينزف دماً. يعني رأيته مخردق الجسم بالرصاص؛ تأثرت كثيراً. كنت أخاف أن أتعرّض لشيء مشابه. أحياناً أقرف من الطعام».

السيد «ض» (مقابلة ٤) عايش في الحرب انفجاراً كبيراً بالقرب منهم عندما أغار الطيران الإسرائيلي غارة مؤذية على منطقتهم في نهاية الثمانينات، يقول: «نحن الرجال لم نخف، لكن النساء خفن طبعاً. نحن قمنا بالمساعدة، أنقذنا الناس، لأنهم قريبون منا. خاف الأولاد كثيراً وصرخوا لأنهم غير معتادين كثيراً على ذلك. حصلت إنفجارات أخرى طبعاً، أنا شاهدت الكثير. الآن (هلق يقول) عندما يشاهد الانسان قتلى في الأرض ودم، يجب أن يخاف ويقشعر بدنه، لكن يظل الرجل مختلفاً». لكن يبدو أن الأمر لم يكن شديد الأهمية بالنسبة له، ولم يترك آثاراً مهمة.

السيد «ن» (مقابلة ٥) يقول: « ولّع (احترق) منزلنا مرتين. مرة بسبب المشاكل ومرة أخرى أطلقوا النار على أقدام أخي الذي انتحر لأنهم عرفوا

أنه أخ فلان الكردي. عندما أصابوا أخي رموا به خلف الطريق، كنت عائداً بالسيارة عندما قالت لي واحدة اسمها أم حسين: يا «ن» أنظر إلى الدم على الطريق هيدا شو؟ كان الدم يغطي حوالى ١٢ متراً. يطلع الدم ويتشربه الرمل الذي في الحديقة. كان الرمل مفسخاً من الدم الذي وصل إلى الطريق، يعني أن دمه مصفى. عندما لحقت الدم وجدت أنه أخي! المهم بعد أن وجدته أخذناه إلى الجامعة الأميركية، كان هناك خط نار بين منطقتنا ومنطقة الجامعة الأميركية. هو أصيب عند برج المر حيث تتواجد حركة أمل، بينما الحزب التقدمي الاشتراكي متواجد في الجامعة الأميركية. لذا لم نستطع في البداية إيصاله إلى الجامعة؛ أخذته في البداية إلى مستشفى المقاصد حيث لم يقبلوا إدخاله لأنه كردي. أنا خلّطت الكثير من التنظيمات، دخلت مع فتح أبو عمّار ومع الإتحاد الاشتراكي ومع أمل. يعني أقف مع أيِ تنظيم واقف. لذا، عندما رفضوا إدخاله ذهبت إلى البيت وأخذت علم الحزب التقدمي الإشتراكي ووضعته إلى جانبي في السيارة، كما وضعت بارودتي وأخي طبعاً، ونزلت. من أين؟ قرب قصر فرعون حيث يوجد مكتب لحركة أمل. لم أتوقف فأطلقوا عليّ النار لأنهم يعرفون سيارتي، لكنني لم أتوقف مع ذلك. وصلت إلى مكان الحزب التقدمي، رفعوا علي البواريد طالبين مني التوقف، قمت رفعت العلم ونزلت من السيارة: سألوني من أين أنا؟ قلت لهم من عند أبو عبد الكردي من عند «أبو جينكو». عندها أخذوا أخي إلى الجامعة الأميركية (كنت في منطقة الكليمنصو). واتصلوا بهذه (أشار بيده ويقصد اللاسلكي) وقالوا ممنوع أن يتعاطى معه أحد. ذهبت عندها لزيارة أخي، كان في غرفة العمليات واحتاج إلى ٣٢ وحدة دم». هذا هو نفس الأخ الذي عاد وانتحر.

السيد «غ» (مقابلة ٦) يسكن في منطقة قريبة من مخيمي صبرا وشاتيلا، يروي ذكريات متقطعة، يقول لي: «أصبت مرتين ولكنني أنسى كثيراً. أُصبت مرة في الاجتياح وأُصبت مرة بعدها». يقول إن: «أكبر واحد (من إخوته) توفي. أصبت أنا فذهب لرؤيتي لكنه لم يتمكن من ذلك، أقفل أبواب المحلات ولحق بي. نزلت القذيفة الثانية، تصاوب جسمه كله وتخردق. أنا أُصبت في رجلي وتكسّرت تكسيراً وأُخذت إلى المستشفى حيث تحسنت وعدت». عن مجازر صبرا وشاتيلا يقول: «بعدما

خلّصوا المذبحة خرجت نهار الأحد. نزلنا وصرنا نتفرّج. بيتنا قرب المدينة الرياضية. أثناء المجزرة لم نهرب. بقينا في البيت. قبل المجزرة وزعوا إعاشات، صارت النسوان تلم حالها وتذهب. نحن نبهنا عليهم أن لا يذهبن إلى هناك، أمي أيضاً راحت. عندما وصلن صاروا يطلقون النار فوق رؤوسهن، تركن الإعاشات وهربن. حصل قصف من قرب البيت، قلنا لهم لا تقصفوا فلم يردوا علينا. كانت أمي تتكلم مع مقاتلَين اثنين فأطلقت الدبابات الإسرائيلية النار عليهما وأصابتهما. إلتقحا على الأرض (سقطا). لكننا بقينا في المنطقة بشكل عادي. قالوا لنا عن المجزرة، فذهبنا كي نتفرّج. لم أحس شيئاً ولم أخف، تسه.. تسه.. تسه.. لا أخاف من هذا الشيء كثيراً. شاهدت الكثير من الجثث، الكثير من خير الله، كانوا يرشون الديمول على هذا المنفوخ وتلك المرمية على الزبالة. يعني رائحة غريبة الشكل. نسيت كل ذلك ولم أفكر فيه أصلاً».

أما السيد «ع» (مقابلة ١٥) فقد روينا مشاهداته في الفقرة المتعلقة بالجروح النفسية.

السيد «ج» (مقابلة ١٤) شاهد الكثير من القتلى والجرحى بحكم مشاركته في معظم المحاور الساخنة أثناء الحرب، يقول: «أُصيب الكثير وقتل الكثير، في كل محور كان «يروح» (يصاب) معنا قتيل وجريح أو جريحين بسبب انفجار لغم، شباب كثر أُصيبوا وتقطّعوا. كنا ننقلهم مباشرة إلى المستشفى. لم أكن أخاف، كان ذلك يدعمني إلى المزيد من الصمود. كنت أول ما أقوم به أضبط نفسي ونحاول عمل إسعافات أولية إذا استطعت. لا نرتبك، لا نستطيع الارتباك في أرض المعركة. مرة كنت أنا وشاب صاحبي أصيب بالقرب مني، أُصيب بحوالى العشر رصاصات من فوق إلى تحت وبلعط أمامي (تخبط بدمه). أخذت الأمر بشكل طبيعي، حملته وربطته ووضعته في عربة وأخذته إلى المستشفى. كنا على خطوط التماس وأخذناه إلى مستشفى الروم حيث عولج. كان الوضع حينها دقيقاً جداً، يعني لا يمكن لبرغشة أن تطير. والمكان الذي أصيب فيه كان خطراً جداً. هو الآن يشكرني كلما رآني لأني أنقذت حياته ويحكي دائماً أن فلاناً أنقذه وخلّصه من الموت».

هكذا نجد أن معظم السجناء عايشوا أحداثاً صعبة. لكن يبدو أن السيطرة على القلق المتولّد، خاصة إذا كان كبيراً، هي ضرورة كي

يستطيع الإنسان الاستمرار بالحياة. لذا قد يغلّف مشاعره بدرع وقائية قائلاً: لم أخف ، ولم أهتم أو ما شابه. ذلك أن على الرجل أن يكون قوياً وأن لا يتأثر!

السيد «خ» (مقابلة ١٣) (يبدو أنه تعرض هو نفسه للإصابة أثناء الحرب، أصيب من جرّاء قذيفة أثناء الحرب في كتفه ورجله). يقول: «إن الواحد يتذكر أشياء كثيرة، كانت تتساقط القذائف ونرى الناس قتلى ونركض للمساعدة. عندما أُصبت أنا وكانت إصابتي خفيفة اهتمّيت بإيقاف السيارات وإرسال المصابين إلى المستشفى. أصيب الكثير من الناس في حينها. كنا نوقف السيارات بالقوة لأن الناس تخاف على جلد مقاعد السيارة من الدم وكذا، كان أحدهم مقطعاً لأنه كان ينتظر دوره خارج محل الحلاقة».

السيد «ي» (مقابلة ١١): « في منطقتنا (كان لا يزال يقيم في وادي أبو جميل وهي كانت لا تزال منطقة مهجرين) يوجد الكثير من المعاقين، ثلاثة أرباعها مصابين. هناك من هو بدون رجلين أو بدون أيدي. هناك الكثير من الألغام في منطقة ساحة الشهداء القريبة منا. شاهدت كل رفاقي الذين أصيبوا مثلاً ولا أخاف، لأن اللغم لا يصيب إلا مكانه. كذلك لا أخاف من منظر رجليه، عادي، كل شيء عادي. كان هناك ستة أو خمسة نازلين في الأسانسير ووقعوا من فوق، العالم كلها انضربت (يضحك). عندي أخوان إثنان مصابان (يصمت) ثلاثة. أحدهم أصيب عندما وقع من بناية، رأسه من هنا (يشير إلى مكان في رأسه) لا وجود لعظم فيه. وقع في العتمة بينما كان يصعد إلى البناية مع رفاقه. وقع دون أن يحدث أي صوت فلم ينتبه له أحداً. وقع في الماء على قطعة من الحديد ضربت رأسه وعطلته. عندما نزل صاحبه للبحث عنه، أمسكه في رأسه في المكان الذي أصيب به (سامحه الله). أخذوه إلى مستشفى الجامعة (يقصد الأميركية). إنه الآن مشلول في جانبه الأيمن، باستطاعته أن يجر رجله جراً. مكث في المستشفى حوالى ستة أو سبعة أشهر. وهو تزوج وأنجب ولدين.

الأخ الثاني أصيب وهو يلعب في الصواعق (عندما سألته هل يلعبون دائماً بهذه الأشياء ضحك)، كنا حوالى الخمسة أشخاص قاعدين مع بعض نلعب بالصواعق، أخذ أخي شيئاً عن الأرض وقام برميه، كنا نولّع نحاساً، سمعنا «بووو..» كان أخي يركض وبعد حوالى الخمسين أو

ستين متراً، صار يركض على البطيء ووقع ونحن ننظر. تبين أنه مصاب في صدره وعينه وجسمه كله (يدل بيديه على الصدر) مفتق. أخذوه إلى الجامعة الاميركية ووضعوه في البراد. الجامعة لم يكن يدخلها إلا من معه المال أو السلاح، وهو لم يكن معه أحد ذلك أن الناس لمّوه وأخذوه من الطريق. أمي رأته من النافذة فركبت سيارة ولحقت به. قالت لهم «إبني ما إبني» لم يريدوا أن يدعوها تراه في البداية. قالوا لها إبنك مات. لكنها لم تقبل ونزلت إلى البراد وسحبته. وجدته ملفوفاً بحوالى الستة شراشف، كانت كلها مليئة بالدم. لو لم تكن أمي فلسطينية لما كانوا قبلوا تطبيبه. طببوه بقوة السلاح. أخي الآن في الجيش. أخي الثالث مصاب أيضاً برصاص كثير بسبب عمله السياسي. انه أخي المتحزب، مصاب عدة مرات. آخر مرة أطلق الرصاص على نفسه حتى لا يذهب إلى النار، لأن الإخوة صاروا يتقاتلون عند معركة الجنوب بين حركة أمل وحزب الله. فضّل المجيء إلى البيت وإطلاق الرصاص على نفسه، على رجله ويده. أمي أيضاً أصيبت في تل الزعتر والنبعة في ظهرها. كان الرصاص يدخل إلى البيوت، وهي الآن عادية. أبي أيضاً أصيب بكتفه بينما يقرأ الجريدة في الحمام، جاءته شظية».

أواليات العلاقة بالميليشيات

يقول لي «ن» (مقابلة ٥): «وعيت على الحرب، وعيت على حرب ودخلت الكثير من التنظيمات. دخلت كذا تنظيم وكان عمري ٩ سنوات. قبل ذلك كنت أذهب إلى المدرسة بشكل عادي، لكن عندما كنت في الصف الثاني اختلطت بتنظيم، جاء ناس وسحبوني من المدرسة. ذهبت معهم لأن لكل واحد فينا خلطة وجوّ وتيار، قل لي من تعاشر أقل لك من أنت، يعني من يعاشر المنيح يكون مثله. وماذا يعني الصف الثاني إبتدائي؟ كنت في صف الروضة عندما أدخلت فرداً (مسدساً) معي إلى الصف. كنت في الحزب التقدمي الإشتراكي، كانوا رفاقي في المدرسة، من عمري وأكبر قليلاً. صرنا نعمل عصابات ونتولدن، نحب فتاة وسني شيعي وألف قصة. كان لي رفيق في الحزب (لا أدري كيف دخله) أتاني ذات يوم وقال لي: «يا «ن» والله أنا أشتغل في الحزب، ما رأيك أن تدخل معي؟»».

سررت أنا لأني حملت عندها مسدساً ومشيت معهم. ينبسط الولد من ذلك، لكنه لو كان ذكياً وعقله تمام وألف قصة فهو لن يحمله. لكن يكون عقله «مولدن». لا أدري لماذا دخلت الحزب، كنت من قبل أحب المدرسة لكن هناك من جاء وكرّهني فيها. وكان الجو جو سلاح وحرب، يأتي الأزعر يسحب سلاحه وأنا لا يناسبني ذلك، أن آكل بهدلة كرماله (من أجله). كان عدد الزعران في المدرسة كثير، وخاصة أنها كانت مدرسة حكومية. حدن بقولك مدرسة حكومية؟ على كل حال لا بد أن يكون في العائلة واحد أزعر، وأنا لم أكن أخاف. صرت أغيب عن المدرسة. كنا نقوم في إطار الحزب بمداهمات وغزوات، نحن لم نكن نسرق، لم نكن نعرف أن نسرق، هم يفعلون ذلك. كنت أداهم ولم أكن أخاف، وكان معي دائماً رشاش ومسدس.

كما سبق وقلت، «ن» مثلي جنسي (homo sexuel)، حكى لي عن ذلك كالتالي: «قمت مشيت في جو بعيد بعد أن تركت المدرسة وتركت العمل أيضاً. آخر مرة أحببت واحد صاحبي، عاشرته. هو صديقي ولا يزال حتى الآن. المهم قام وأخذني معه إلى المنزل، مكثت عنده فترة طويلة، في المساء قال لي ماذا تريد؟ هل تريد العودة إلى المنزل؟ لا تذهب بل إبق معي ونم عندي. قبلت ونمت عنده،.أهلي خربوا الدنيا، شو هيدا؟ وين راح؟ سألوا أين اعتدت أن «ألفي» (أن أذهب) ووصلوا إلى صديقي، وجدوني معه في السرير، «نايم معه في تخت واحد». أمسكتني أمي وصارت تضربني، وكان عمري حوالى ١٣ عاماً. صارت تضربني والضرب ليس أسلوباً، هناك أسلوب الكلام. المهم بدأت النوم خارج المنزل، وصرت أندفع في ذلك».

كذلك الأمر مع «ش» (مقابلة ٧) الذي يقول: «أنا إنتشأت على الأحزاب، هكذا ركبت برأسي. سجن أبي ٦ سنوات في إسرائيل كنا صغاراً عندما دخلت إسرائيل. دسّ له عميل وهو كان يقوم بعمليات ضد إسرائيل. كل أفراد أسرتنا قاوموا إسرائيل، نحن مع حركة أمل. ثم انشقيت عن الحركة وعدت دخلت حزب الله وكذلك الحزب القومي السوري. وعندما حصل معي متاعب مع القوميين سافرت إلى ليبيا والتشاد كي أقاتل من أجل المال. وعدونا بـ ٥٠٠ دولار، لكنهم ضحكوا علينا وأعطونا ١٠٠دولار فقط. ندمت على ذهابي. أنا قمت

بأشياء كثيرة ضد القانون لكني لم أسرق أو أشياء مثل هذه. كما أنني مختلف في البيت عني في الخارج، يعني أكون مهذباً في البيت. أنا، اختصاصي متفجرات تمرّنت في إيران على ذلك، كنت بدأت عملي مع المقاومة ضد إسرائيل منذ أن كنت في سن ١٧ عاماً. قبل ذلك كنت أعمل، عملت في فرن لأنني لم أحب عمل أبي في المقهى، لا أحب خدمة الناس. قاومت في الجنوب، كنت مسؤولاً عن أكثر من ٣٠ عنصراً وكنا نعيش في المغاور. أنا الآن لا أحب أحداً من الزعماء الذين تعاملت معهم ولا أحب الدولة وعلى استعداد للقيام بالأشياء نفسها. قمت بتفجيرات عدة، تفجيرات لمحلات تبيع الخمور». أشار لي هنا إلى أنه كان يشرب الخمر منذ سن ١٨ عاماً. وعندما سألته كيف لشارب خمر أن يفجر محلات تبيعه، ضحك وقال يكون الواحد هو مقتنع ويُطلب منه ذلك أيضاً. «قمت بتفجير سيارات ضد أشخاص وأنا لم أندم على عمل قمت به، لكنني مع ذلك أشعر أنني مظلوم وأنني ملدوغ. أنا يجب أن أُحاسب لكن ليس هذه المحاسبة. يعني هناك غيري من هو مسؤول أيضاً، هناك من غرّقني. أنا الآن خرجت عنهم وخرجت عن الدين كله، كنت أدرس «الإنجيل» و«ما الإنجيل» لفترة، يعني أردت ترك الإسلام والذهاب إلى المسيحية. ذهبت إلى الشرقية وإلى عكار وكنت عند ناس مسيحيين. زهقت من حركة أمل ومن كل الأحزاب. أنا الآن مقتنع بهذا الأمر، ركب برأسي. هم حاسبوني على أشياء قديمة و«حطوا حطاتي» (جعلوني نصب أعينهم) وسلّموني. لكنني الغلطان، ولم يعد يهمني البلد كله الآن، لم يعد يهمني سوى نفسي. كان يهمني الوطن وكان يهمني أهلي الآن لا أهتم لأحد. عملت كل ذلك من أجل الحركة، لأنني نشأت على ذلك واخترته أيضاً. موسى الصدر يعجبني وعلى رأسي وعيني، لكنني أعجبت بقصة السيد المسيح دين وما دين وكيف يحيي الإنسان والصلاة. عندما أخرج سوف أتعمّد وأسافر إلى المانيا وأي بلد لم أعد أهتم».

أحسست أنه يريد الانتقام من تاريخه وإيذاء من عنوا له أشياء كثيرة في ما مضى. يريد إيذاءهم في معتقداتهم خاصة. إنه الشعور بالظلم وبانعدام العدالة!

بادرني السيد «ج» (مقابلة ١٤) منذ بداية المقابلة بالإشارة إلى أخيه الذي استشهد في معارك الجبل، «أكلها» قذيفة في المعارك بين «القوات

والدروز». الأب أيضاً كان مسؤولاً في الحزب «على أيام الكتائب والأحرار لا يزال الناس يحلفون بحياة أبي لأنه لم يترك أحداً من إخوان المسلمين يغادر المنطقة، تعلمين عند الحرب كان عمري ٦ سنوات، كنت صغيراً وصار هناك تذبيح وكذا، هو خلّص الكثير من العائلات المسلمة.. أتت فترة كان عندنا في البيت ٤ عائلات تعيش معنا. قبل موت أخي كنت أكره البارودة والسلاح والأحزاب وأكره الضرب والقصف، لكن عندما فقدت أخي الذي مات، وصرت أسمع أنه استشهد من أجل الحزب والدفاع وكذا، قلت أنا أيضاً أريد أن أكون مثله. ذهبت مكانه يعني برغبتي وصرت أذهب في المهام الصعبة دون أن تفرق معي، وأتمرّن في أصعب الظروف دون أن أهتم. كان يطلب منا أن نقفل هذه الجبهة أو نطلع إلى تلك ودورات تدريبية. كنت صغيراً وكانوا يستغربون مني تصرفاتي. ما شجعني أنهم كانوا يقولون لي نريدك أن تكون مثل أخيك المرحوم وكنت أتشجّع أكثر. كنت أول من ينفّذ في الرصاص الحي، وأقوم بالرياضة الصباحية عارياً من فوق وحافياً فوق الثلج. عندما سلّموني إلى الثكنة، وكنت صغيراً، كان يدق الاستنفار ويطلع الشباب في مهمات كنت «أكب حالي» (أرمي بنفسي). يعني يأتي المسؤول ويقول لي إبق في الثكنة وأنا أقول لا أنا لم آت كي أخدم كحرس أذهب عندها إلى منزلي يكون أفضل، إذا لم أنزل في مهمات لا أريد البقاء. حصل عندنا انتفاضات كثيرة وكان يراني أهل المنطقة، كنت رأس حربة، كانوا يستغربون مني أن أنزل دائماً بإرادتي. رغبت في ذلك خاصة عندما أسمع عن سلوك أخي في أرض المعارك، كنت أتشجع. ذهبت إلى الشياح وإلى خطوط التماس والأسواق وإلى الشمال. قتل حولي الكثير وكنت أتضايق. كان ذلك يربي فيّ الإجرام، يجب أن أدافع وأن أبقى».

سبق أن أشرنا إلى بدايات التشرّد عند السيد «ع» (مقابلة١٥) في الفقرات السابقة بسبب مرض الأب ثم موته، ما أضعف السلطة والرقابة الضروريتين لتنشئته وما جعله يترك المدرسة ويبدأ سباقاً من التشرّد والالتحاق بالمنظمات المسلحة الفلسطينية بسبب موقع مسكنه المجاور لتواجدهم الجغرافي.

يقول «ع»: «كنت في الثالثة عشرة من عمري عندما فلت (أفلتت) على حل شعري مع الفدائيين ومع التنظيمات. ربيت مع التنظيمات ووصلت

إلى مرحلة كنت فيها ضابطاً. تعلمت الميكانيك، درست هندسة الميكانيك في معهد تابع للتنظيم الذي كنت فيه ونلت شهادة معترف بها دولياً لأنني تخرجت من معهد في موسكو. كانوا يسألونا دائماً من يحب أن يتعلّم؟ وخاصة صغار السن، وكنت دائماً أوّل من يرفع يده. كنا ندرس يومياً ثلاث ساعات بدلاً من ست كما هو الحال في المدرسة العادية. يعني كان لديهم طريقة لجعلي أستوعب في ثلاث ساعات ما يعطى في تسعة عادة. لأن الشرح أوضح وأحسن من المدرسة بكثير لأن من يدرسنا يمكن أن يكون دكتوراً ويدرس صف إبتدائي. من المؤكد أن الطفل يستوعب عندها بشكل أفضل. إستعملوا هذه الطريقة حتى كبرت وسفّروني وجعلوني أدرس في الخارج. وأنا لا فرق لدي إذا كانت شهادتي معترف بها أم لا، لست مهندساً عليه أن يبني بناية، أنا أقوم بفحص السيارة أقول له هذه القطعة غير صالحة، يعني مهارتي هي التي تشفع لي.

كنا في التنظيم المسلّح مدللين، وكنت أقوم بإطلاق الرصاص طوال الوقت، واذا لم أجد أحداً أطلق عليه النار، أطلقه على الحيطان. كانوا يراهنون علينا، كنا رصيد المستقبل، يعني إبن ١٣ عاماً سوف يخدم على الأقل حوالى الأربعين عاماً، أي قد يستفيدون منه ٤٠ عاماً في عمليات انتحارية وأشياء أخرى كثيرة. الآن أكلمك وأشعر بمرارة، استغلونا كثيراً. سوف أقص عليك حادثة صغيرة حدثت معي وشعرت بها لكنني لم أكن أقدر أن أنسحب، كان من الممكن أن يغتالوني. عام ٨١ ضرب الطيران الإسرائيلي منطقة الفاكهاني. أدرت عندها سيارة إسعاف وطلعت (يقول سيارة أمبولانس). لم يكن باستطاعة أي سيارة الدخول وانتشال الجرحى، لا سيارة إسعاف ولا سيارة عادية لكن كان عندي حماس قوي. دخلت كي أُخرج الجرحى، لكن عند دخولي مباشرةً أتت طائرة وقامت برش الشارع بالرشاش وليس بالصواريخ، فمت أكلت الضرب أنا. أُصبت من صدري إلى ظهري، ففقدت رئة من رئتي أثناءها. إنفجر الرصاص في آخر السيارة، لو انفجر فيّ كنت انقسمت الى جزئين. يداي تخردقتا و قطبتا قطباً عديدة. وأصبت يعني في كل الأماكن، هناك عظمة بقيت عالقة على شعرة. يعني حصل عندي عجز ٦٧٪. عندما قاموا بتسفيري إلى ألمانيا الشرقية أتيت بتقرير يقول إنني عاجز بهذه النسبة. كنت في هذه الأثناء تزوجت وصار عندي أولاد. عندما عدت وجدت

فرقاً كبيراً بالمعاملة: تسه . . في البداية كانوا يثقون بي ثقة عمياء وما أريده يحصل وكل ما أطلبه من مال يعطوني إياه. لكنهم صاروا يعذبوني كي آخذ المئة ليرة. لم أدر السبب لكن الأرجح بسبب عجزي، لم أعد أصلح لشيء. في الوضع الذي أنا فيه صرت مريضاً وغير قادر على العمل. لم أعد أقدر على رفع ٣ كيلوات عن الأرض. لكني لم أعد أستطيع أن أنسحب. تركت التنظيم الذي كنت فيه لأنه سحب يده مني بالمرة. في التنظيم الثاني الذي انضممت إليه صرت أعمل كمدرب، إذ إن إختصاصي متفجرات الطيران: «م ـ ط» مضاد الطيران. كنت صغيراً جداً عندها، لكنني كنت أستوعب بسرعة، فالأسلحة عبارة عن قطع ميكانيك ثقيلة أوخفيفة وكبيرة أو صغيرة. وكله مكوّن من سكة ومجراية ونابض ونتاش ومثل هذه القصص، كله حديد بحديد لا شيء صعب. الانفجار هو ضغط على الغاز. وسرعة الطائرة كذا وسرعة الرصاصة كذا تحتاج إلى هذا القدر من الوقت كي تصل إلى الطائرة، إنها عمليات بسيطة. لذا دربّت الشباب الجدد وكنت ناجحاً في عملي. لم أفشل بشيء في حياتي سوى بزواجي، لأنني أنجبت الأولاد، لم أفكر أنني قد أدمر اولادي. ترتب وضعي في التنظيم الجديد وصرت أترفع وأحصل على الرتب إلى أن حصل الإجتياح وذهبوا (يقصد مغادرة القوات الفلسطينية). بقيت أنا على علاقة سرية معهم. بعد الإنتفاضة في ٩ شباط (يقصد ٦ شباط)، رجعنا وتحسن الوضع. أمدوني قليلاً، إذ عندي إمرأة وأولاد ومسؤولية وكنت مضطراً للبقاء معهم، لكنني أصبحت شديد الحذر. بعد الـ٨٥ و٨٦ إنسحبت إسرائيل من الجنوب فذهبت فوراً إلى منظمة التحرير (كان من قبل في تنظيم سري بحسب ما قال، حزب شيوعي روسي، وهم أنفسهم من تبنوه بعد أن تخلّت عنه الجبهة الديمقراطية عند إصابته). هذه الجماعة ساعدتني كثيراً، وهم كانت عيونهم تبقى مفتحة على كل من ذهب إلى روسيا، ساعدوني ربما لأنني ذكي ويستطيعون الاستفادة مني بأشياء كثيرة، لا أعتقد أنهم أكثر انسانية، المسألة مسألة فائدة، فلان يفيد فلان، وفي الآخر تعود الأمور كالدائرة (المقفلة). حاولوا أن يدخلوا أولادي إلى المدارس على حسابهم. لكن عند صدور قانون العفو في العام ٩٠، تركتهم وعدت إلى بيروت (كان في صيدا). لم أندم على تركهم كما لم أندم على أي شيء قمت به. كنت أتمنى أن يتحسن

الوضع في البلد ويعود إلى حالته الطبيعية، مهما يكن كانوا غرباء هنا في البلد وكنت أرى الكثير من الناس مذلولين. اللبناني كان يذلّ، كان لغير اللبناني عزّ لم يكن يعرفه هذا الأخير. كان عندي جرح لهذا السبب، لكنني كنت مضطراً لا أكثر ولا أقل من أجل مستقبل أولادي».

السيد «ح» (مقابلة ١) يقول: «كان هناك شباب محزبين في الحي، نذهب معهم إلى قصقص، نطلق النار بالبواريد على قناني زجاجية فارغة. لم أكن أصيب جيداً. كانوا منوعين من عدة أحزاب، لم أنتظم معهم في الحزب لأنني خفت أن أموت. كنت أذهب معهم للتسلية وهم لم يطلبوا منا. كنا عندما نجدهم قد تجمعوا ٤ أو٥ نهرب، نقول لبعضنا البعض قوموا ونذهب. عندما يسألونا لماذا ذهبتم، نقول لهم كنا ناسيين شغلة، أو رحنا إلى البحر». وهكذا نجد أن هناك من لم يكن يحب الانخراط في الحرب والاقتتال.

الوضع الأسري للسجناء

السجين العازب: مقابلة ١ ـ ٥ ـ ١١ ـ ١٣

السجين «ح» (المقابلة ١) ينتمي إلى أب سني وأم مسيحية. وحيد والديه اللذين تزوجا في سن متأخر. تزوج الأب وطلّق ٣ مرات ولم ينجب إلى أن تزوج الأم، وكان قد أصبح في سن متقدمة نسبياً. ما جعل الأسرة، أي الأخوة، يتضايقون إذ كانوا قد وطدوا النفس على أن يرثوا أموال الأب. وكان زواجه من مسيحية وإنجابه منها عاملاً موتراً للعلاقة بينه وبين إخوته. لا يزال السجين «ح» في مطلع عشريناته، وبالتالي فإن عزوبيته تبدو طبيعية وهي ليست سوى مسألة وقت وبسبب السجن، إذ هو خطب فتاة قبل دخوله السجن وكان لا يزال أقرب إلى المراهقة، يقول: «خطبت واحدة من آل كذا... عام ٩٢، قبل دخولي السجن بحوالى ٤ أو ٥ أشهر. لم آخذها عن حب بل عن طريق واحد صاحبي، طلبها لي وهي بنت منيحة، معترة، ووافقت. كان هذا الشاب مقرباً مني كثيراً. صرت أمشي معها ولكن لم أحبها. حاولت أن أتعلّق بها ولم أقدر أبداً. لم أستطع التعرّف على أفكارها. كانت تندار (أي لا رأي لها ويتم التلاعب بها) لأخواتها البنات، ولم تكن جميلة، فتركتها».

السجين «ن» (المقابلة ٥) الذي قضى منها ٩ سنوات في السجن ينتمي إلى أسرة كبيرة العدد، مكونة من الأم والأب، اللذين تزوج «خطيفة»، أي دون رضى الوالدين. هم عشرة أولاد وهو بينهم. «ن يمارس العلاقات المثلية وسبق أن نقلت كلامه الحرفي عندما سردت علاقة بالميليشيا، حيث يقول: «ضبطتني أمي في نفس الفراش مع صديقي»، ويستخدم تعبير «عاشرته». لا يبدو أن «ن» يفكر في الزواج أو الاستقرار، لأنه أثناء كلامه عن المخدرات يقول: «أنا باستطاعتي العودة إلى المخدرات إذا أردت، لأنني غير مسؤول عن أسرة». ذلك يعني أنه في المدى المنظور ينظر إلى نفسه كعازب. «ن» كردي الأصل وهو بالنسبة لمحيطه تأخر على الزواج.

السيد «ي» (المقابلة ١١) يبلغ من العمر ٢٣ عاماً، ينتمي إلى أسرة مكونة من ٧ أولاد. شيعية لجهة الأب أما الأم فهي فلسطينية، عن الحب والزواج يقول: «أنا لا أحب من ناحيتي، لا أحب. لكن هنا (يقصد هذه المرة) صرت أحب، لأنني بقيت معها سنتين أو ثلاث سنوات برا (قبل أن أدخل السجن). يعني كون فتاة مثلها بنت بيت ومحترمة ولم تتخلَّ عني منذ سنة وعشرة أشهر وهي تعلم أنه لا يزال هناك دعاوى ضدي ولن أخلص بسهولة. وهي ما تزال تأتي وتعود لزيارتي. يعني حرام على الإنسان أن لا يكافئ الناس الذين يحبونه». هكذا يبدو من كلام السيد «ي» أنه يخطط لمستقبل آمن ومستقر، خاصة إذا ما حافظ على سلوكه المتدين المستجد وصمد أمام الإغراءات التي لا يزال يتوجّس منها.

السيد «خ» (مقابلة ١٣) وحيد أيضاً بين تسع أخوات. الأم والأب أقارب أي أولاد خالة. يصف نفسه بالبيتوتي (يبقى في المنزل معظم الأحيان)، لديه بعض الأصحاب يشرب معهم القهوة في المقهى ويعود إلى البيت. يبرر عدم زواجه بسبب أنه كان يتحمل مسؤولية أخواته. ويقول إنه من الممكن أن يتزوج عندما يترك السجن. لكن يبدو لي إن هذا الموضوع لا يشغل تفكيره كثيراً.

المتزوج: مقابلة ٢ - ٣ - ٤ - ٧ - ٩ - ١٠ - ١٢ - ١٤

السيد «م» (مقابلة ٢) درزي متحدر من أسرة تضم عشرة أولاد (والدته أنجبت ١٨ ولداً). له من العمر أربعون عاماً، ومتزوج من امرأة

متعلمة، حاصلة على البكالوريا وتعلمت الخياطة أيضاً. أحبها منذ أن كان في المدرسة بعمر الـ ١٧ عاماً وترك المدرسة وتزوجها. له أربعة أولاد كبيرهم في الرابعة عشرة ويليه آخر في الثالثة عشرة اضطرا إلى ترك المدرسة من أجل إعالة الأسرة. يقول: «نحن أولاد قرية إذا لم نقم بعمل لا نأكل. ليس لدينا لف ودوران، نحن جماعة أصحاب مبدأ. (لكنه يضيف) هذا عدا عن أن الأخ ليس لأخيه هذه الأيام». كان يسكن مع أسرته قبل دخوله السجن في بيت مكوّن من غرفتين ومطبخ وحمام بالقرب من والديه. يسكنون جميعهم في شقق صغيرة تكوّن نوعاً من المنزل الكبير. لم يكن يعاني مشاكل أسرية قبل دخوله السجن. يقول إن أسرته لا زالت مترابطة حتى الآن. هذه الفكرة يوردها كل السجناء مع أنهم يعترفون بأنهم لا يجدون الدعم الذي كانوا ينتظرونه، وأن الأخ لم يعد لأخيه، لكنها فكرة ذهنية تعشش في الرأس وتوهم بالأمن.

السيد «أ» (مقابلة ٣) (وهو سني) يشكل حالة خاصة جداً في ما يتعلق بالزواج. يقول إنه تزوج ١٦ امرأة، وهو يعد نفسه دون جوان ليس باستطاعة امرأة أن تقاومه «لأنني أعرف أن أتكلم مع المرأة، أقنعها أنها أجمل وأحسن امرأة في العالم». يقول إن لديه دائماً عدة نساء «على اسمه»، بحسب ما يسمح له الشرع. عندما سألته عن سبب إكثاره من الزواج أو تقلبه، أجاب: «لم تكن غايتي بصراحة من الزواج، الزواج بنفسه. كان هدفي بصراحة الوصول من خلف كل امرأة إلى هدف معين. فهذه قريبة عقيد وتلك عمها وزير. أنا أمتلك لساناً حلواً مع النساء، يعني أصوّر للمرأة على أنها ملاك العالمين وهبطت على الأرض وأنا تلقفتها. يعني أنا أضحك عليها لأنني لا أريد أن أحبها، أنا لا أحب لأن من أحببتها اغتصبها رجال من الكتائب أمامي، لذلك صار عندي حقد على كل النساء. وكان ذلك فيلماً ركب علي بسببها. تبين لي أنهم كانوا يعرفونها. بعد ذلك صرت أخرج معها وأضحك عليها ولا زلت مقهوراً منها حتى الآن. أكثر واحدة بقيت معها هي الزوجة الكبيرة السن (٧٣ عاماً)، وهي التي دخل السجن بسببها. يقول إن زواجه دام منها هذه المدة (الطويلة؟) بسبب قضائه ثلاث سنوات في السجن وكان قد مضى على زواجه منها ثلاث سنوات أيضاً. هناك أيضاً زوجة أخرى تزوجها منذ ٨ سنوات ولا تزال معه حتى الآن. يقول: «بعد خروجي

سوف أطلّق الكل، ما عدا العجوز على ما أعتقد. سوف أطلّق زوجتي الأخرى لأنها لا بد خائنة إذ هل يعقل أن تنتظرني كل هذا الوقت؟ أربعتهن لا بد خائنات!» توفي له أثناء مدة سجنه إبنة بعمر ١٧ عاماً في حادث سيارة وإبن غرقاً أثناء رحلة كشفية !عن أولاده يقول: «عندي الآن ٣ أولاد بعمر أربع سنوات و٢ بعمر سبع سنوات وواحد ٣ سنوات، كانت أمه حامل به عند دخولي السجن». عن علاقته بأولاده يقول: «هناك أولاد يقون عندي وهناك أولاد باي باي، يذهبون مع أمهاتهم». يقول إن عنده الآن ٦ أولاد.

السيد «ض» (مقابلة ٤) شيعي وله من العمر حوالى ثلاثين عاماً. ترك المدرسة بعمر ١٦ عاماً بسبب الحب، خطب إبن ١٧ وتزوج إبن ١٨ عاماً. عنده ثلاثة أولاد أكبرهم له من العمر ١١ عاماً، ما زالوا جميعهم في المدرسة. وهو يفضّل لأولاده أن يكملوا تعليمهم. هذا السجين كان قليل الكلام.

السيد «ش» (مقابلة ٧) شيعي وله من العمر حوالى الثلاثين عاماً أيضاً، لا أولاد لديه. يقول: «أمي زوجتني كي تهديني كما تقول، لكنها لم تنجح. تزوجت بشكل عادي. أحببتها عندما تزوجتها، لكن كيف سأحبها الآن وأنا في السجن منذ أربع سنوات؟ لم أقرر بعد ما الذي سوف أفعله هل أطلّقها أم لا، أمي تزورني كل خميس وسبت وهي لا تأتي إلا كل عشرين يوماً أو كل شهر». سألته إن كان عاتباً عليها فضحك ولم يجب. ما يعني «فهمك كفاية». يقول أيضاً: «لم أكن أفكر بالبنات، لكن كان هذا رأي أمي، إختارتها لي أصغر مني بحوالى التسع سنوات، هي إبنة خالتي وكذا... هي كانت مبسوطة في البداية. وأنا الآن لم أعد كذلك (ذلك يعني حرفياً أنها لم تعد كذلك)، لم تعد تزورني ويوجد قصص بيني وبينها. إذا أردت تطليقها فذلك من أجل مصلحتها هي، فحكمي ما زال يحتاج إلى الوقت كي ينتهي (وقراري أيضاً) وهي مظلومة معي طبعاً لكن أمي وأمها أردن هذا الزواج ولا يزلن يردن ذلك».

السيد «ط» (مقابلة ٩) شيعي ينتمي إلى أسرة عادية مكونة من ١٠ أولاد. تعرّف الى زوجته بالصدفة العابرة كما يقول: «كنت كاتب كتابي (عقد قرانه) على فتاة أخرى، لكن حصل مشكل بيني وبينها، كنت قد

قمت بفرش المنزل وعندما أتت لرؤية الأثاث صارت تقول: هذا سيّئ وهذا جيّد، ذوق والدتك غير جميل! نزلت معها بشكل عادي، أوصلتها لبيتها وقلت في نفسي هل من المعقول أن أتوافق مع هذه الفتاة؟ تعرّفت بعدها علي واحدة لكن أنا من قام باللحاق بها، أعجبتني مع العلم أنها أكبر مني سناً بخمس سنوات. أعجبتني ولحقت بها وتصوري الصدفة إنها ابنة عمتي وأنا لا أعرف ذلك؟ وهذا بسبب وجود خلافات قديمة بين أبي وأسرته التي أرادته أن يطلّق أمي لأنها لم تنجب له أولاداً في بداية زواجهما، ثم فجأة أنجبت له عشرة مرة واحدة. ارتبطت بفتاتي بعد شهرين». أنجب صبياً وبنتاً، ومرض الصبي هو الذي أدخله السجن.

السيد «ط» رجل مستقل كما يصف هو نفسه، اختلف مع والده وقاطعه في الفترة الأخيرة: «أنا كوّنت نفسي بنفسي وبسرعة. أبي يحاول دائماً أن يربحني جميله، يقول لي أنا علّمتك عندما يقول لي أحد ذلك أحس أن عليّ أن أهرب منه ولو كان أبي؛ هـو يـرى أنه ساعدني في تجميع المال، أي اقتصاده. وهذا صحيح لكن ليس عليه أن يقول لي ذلك طوال الوقت! وصار يفرض عليّ أنني يجب أن أعطيه مبلغ كذا كل آخر شهر، فصرت أتضايق، أراد أن يسيطر عليّ، فرفضت».

السيد «ز» (مقابلة ١٠) شاويش الغرفة من أصل مصري متزوج وله ثلاثة أولاد، كان متحفظاً ولم يعط هذه المعلومات إلا لرفع العتب. فهمت أن زواجه تقليدي ولا شيء خاص عنده.

السيد «ف» (مقابلة١٢) درزي في الخمسين من العمر، أب لأربعة صبيان وبنتين، عمر أكبرهم ٢٤عاماً، لا يشكو من مشاكل زوجية، تزوج بطريقة تقليدية وهو متهم بقتل زوجة أخيه في بلد خليجي.

السيد «ج» (مقابلة١٤) ماروني متزوج وله إبنة بعمر الست سنوات، يقول: «تعرفت على زوجتي بسبب عديلي، كان هو المسؤول في المنطقة على خطوط التماس. كنت أرافقه دائماً في روحاته كلها ونعطي الأوامر للشباب ونوزّع المهمات. وكنت أرافقه إلى منزله أيضاً. وهكذا ذات مرة كنت داخلاً بالصدفة، وكانت أخت زوجته تلبس بلوزة وما بلوزة (هذه طريقته في الكلام). مزحت معها وقلت لها إن البلوزة غير جميلة فقامت بتغييرها. استلمتني أختها ومزحت: هكذا القصة إذاً ؟ قال لي صديقي عندها، سوف أجعلك عديلي. كانت هي تصنع القهوة في هذا الوقت

وعندما أرادت أن تقدم لي القهوة قامت بسكبها عليّ فاستحت كثيراً لأن طبعها خجول. طلبت مني أن أترك القميص كي تغسله. مرة أخرى طلبت مني شتلة غاردينيا فأحضرتها من حديقتنا وقدمتها لها، وهكذا صار النصيب، وتزوجنا خلال شهر أو شهرين. لم أفكر أبداً أنني صغير على الزواج فأنا أحمل مسؤولية نفسي وأعيش وحدي. كنت أنام في الثكنة وأستحم فيها وأزور أهلي زيارات عادية. أمها لم تقبل بهذا الزواج لأنها كانت نادمة أن إبنتها الأولى تزوجت من حزبي وهي تكره الأحزاب. قالت لا أريد تزويجها لأنها سوف تسافر إلى إخوتها الذين في الخارج (كندا والسويد) وتكمل تعليمها، فهي لا تزال في المدرسة وقد قمت بتحضير أوراقها. كان عمر زوجتي حوالى ١٥ عاماً وأنا أكبرها بثلاث سنوات. قال لي عديلي: خلص أخطفها. وهكذا كان، تزوجنا خطيفة (بمعنى دون رضى الأم فعلياً). عندما دخلنا عند الخوري ضحك لأنني كنت أنا وهي تحت السن. أحضرت أهلي كي يوافق الخوري على زواجنا، ووافق وزوّجنا. أمها لم تقبل أن تأتي بسهولة. تعرقلت المسألة كثيراً قبل أن تأتي الأم. نحن متفقان أنا وزوجتي في كل شيء، وهي تحبني وتنتظرني وتأتي لزيارتي وتحضر لي إبنتي من وقت إلى آخر وتحضر لي ورقة علاماتها. إبنتي شاطرة في المدرسة. زوجتي كانت يتيمة وعمرها الآن حوالى أربع وعشرين عاماً».

المطلّق أو مطلّق ومتزوج مرة أخرى: مقابلات ٦ - ٨ - ١٥

السيد «غ» (مقابلة رقم ٦) سني ينتمي إلى عائلة كبيرة العدد. حكايته مشحونة بالكثير من الضعف. يقول: «أنا تزوجت من أجل الأولاد، لم أتزوج من أجل النسوان. تزوجت عندما كان عمري ٢٢ عاماً. تعرّفت عليها في المستشفى عندما أُصبت عام ٨٢»، وعندما أسأله بدقة أكبر، يقول إنه تعرّف عليها عندما كان والده في المستشفى حيث مكث فيها حوالى الشهر فتسنى له التقرّب إليها. بقي معها لمدة سنتين وسكن معها في المخيم، إذ إنها فلسطينية. أنجب منها طفلاً توفي في عامه الأول بسبب مرضه بالقلب. طلّقها لأنه وجدها بصحبة رجل، كان يأتي لأخذها من البيت. يقول: «كانت تزور والدتي، رأتها أمي (التي كانت خارج البيت تتبضع) تكلّم أحداً عن البلكون، ثم نزلت وصعدت معه في سيارته ال

ب- أم. أتت أمي إلى المحل وأخبرتني. فلحقت بها إلى عين المريسة، وجدتها معه في السيارة، عادي، هو وإياها يمارسان الجنس في السيارة. قمت سحبتها من شعرها وبدأت أخبطها: أين يؤلمك أين كذا. . . لم أعد أعرف. ضربتها كثيراً واقتلعت لها أسنانها. جاء الدركي فأخبرته أن زوجتي تخونني، فقال لي خلص بدون خبيط. طلّقتها بالثلاثة وقمت أدرت سيارتي وعدت. وذهبت إلى المحكمة ورفعت عليها دعوى. كانت تحبني وتموت فيّ لا أدري لماذا فعلت ذلك؟

أختي عرّفتني إلى زوجتي الثانية التي طلّقتها أيضاً لأن أخلاقها سيئة (مش منيحة)، لم أرتح لها وشكّيت بأخلاقها». سوف تتوضح تفاصيل حكايته في الفقرة المتعلقة بالتهم.

السيد «س» (مقابلة ٨): «أنا الآن متزوج للمرة الثانية. تزوجت في المرة الأولى وطلّقت، تعرفت عليها بسبب الأحداث. جاءت أمها مهجرة من الشرقية وطلبت مني بيتاً لتسكن. كان عندي القليل من السلطة في حارة حريك وكان المسيحيون قد تركوا منازلهم. جاءت إلى أحد مكاتب أمل تطلب ذلك، لأنها كانت تسكن في بحمدون أيام المعارك. أنا كنت أحتل منزلاً مثل باقي العالم فطلبت مني البيت لشهر ونصف أو شهرين إلى أن تفتح الطريق. قلت إذا كان الأمر كذلك أعطيها بيتي الذي كنت أنوي أن أتزوج فيه، ذلك أنها تباكت كثيراً (تبكبكت). سكنت البيت مع إبنها وإبنتها وزوجها الثاني. وهكذا تعرفت على البنت، كنت آتي أشرب عندهم الشاي وكذا، وهكذا أحببتها وتزوجتها بعد حوالى الشهرين وسكنا معاً، مع أمها. بقينا معاً كزوجين لمدة ٣ سنوات. طلاقي منها كان بسبب الأم. عندما حكى لي زوجها الأول عنها، قلت إنه يفعل ذلك لأنه يكرهها. لكن عرفت بعد ذلك من آخرين أن سير أمها غير صحيح. وأحسست أن البنت تريد أن تفعل مثل الأم، لأن الأم تعيش معنا في البيت نفسه. لم تكن تدع البنت تقوم بأي عمل يعني كأنها ملكة، تقول لي أنا أعمل لك ما تريد، أنا عندك سيريلانكية، خادمة، لكن لا تدع إبنتي تعمل. كان عمر الفتاة ١٦ عاماً وأنا كان عمري ٢٢ عاماً. لم أنجب منها أولاداً. قالوا في البداية إنها صغيرة ولكن لم ننجب في ما بعد أيضاً. كنت أقول لها أنا ذاهب أبحث عن أمك. كانت الأم تخرج كثيراً ورأيت صور حفلات لها بالصدفة. أحسست أن البنت سوف تعمل

مثل الأم، صارت ترقص مثلها. الأم كانت ترقص في المطاعم؛ لو كان معها هوية لكانت مثل هويدا الهاشم، لكنها هي وأولادها بدون هويات. مرة تمّ توقيفها من أجل ذلك. تزوجت زوجتي الأولى بعد أن تمّ سجني في عام ٨٤ بتهمة قتل. لكنني هربت من السجن ككل السجناء. تزوجتها وبقيت معها حوالى السنتين أو الثلاث. تركتها وتزوجت زوجتي الحالية وهي قريبتي، بعد ذلك طلّقت الأولى. من الأفضل للواحد أن يتزوج من أقاربه. أحب زوجتي الحالية كثيراً لأنها عاقلة ومتعلمة وكل شيء. زوجتي تعلم أني أتعاطى المخدرات، وتتقبل الأمر!».

السيد «ع» (مقابلة ١٥) يقول: «شفت بنت الجيران، تزوجتها غصباً عن أهلها، لم يكن أحد بقادر على ردعي، كنت فلتان فلتة واحدة. تزوجت في بدايات الثمانينات (يعني بالكاد كان عمري حوالى ١٤ عاماً) كان وضعي جيد حينها، وكانت أمي قد تزوجت ولم تعد تعمل في المنازل وارتحت أنا قليلاً (لأنه كان يساعدها مادياً قبل زواجها). صرت أنجب الأولاد، ولم أحس حينها بالغلط الذي كنت أرتكبه، إنني ولد وأُنجب أولاداً. كنت كأنني أحضر لعبة وأسرّ بها؛ أنجبت ٥ أولاد. بعد ذلك، عندما كبرنا صارت هي تفكر وأنا أفكر، لم يعجبها الأمر ولم يعجبني، فطلقتها. لم أدر تماماً ما السبب، لكن لم نعد نتفق ولم يعد عقلها يركب على عقلي. أنا مثلاً أهتم بمستقبل الأولاد وهي لا يهمها سوى البذخ (الجخ) والحفلات. وهي اعتادت على مستوى حياة أعلى من مستوانا. وهذا الجو لم يعد يناسبني. طلّقتها في عام ١٩٨٨ وأخذت الأولاد. كان عمر الأخير فيهم ٤٠ يوماً. وبقيت أهتم بالأولاد بمساعدة أمي حوالى السنتين. أما هي فتزوجت فوراً بعد طلاقها وأنجبت أولاداً. بعد أن طلقت زوجتي تزوجت مرة أخرى، تزوجت ثلاث مرات غير زوجتي الأولى وطلقتهن لأنني أريد من الزوجة أن تربي لي أولادي ولا أريد واحدة قاسية معهم. أردت إمرأة من أجل تربية أولادي لأن والدتي تعبت. زوجتي الجديدة (الخامسة) إمرأة ممتازة. اخترتها أكبر مني سناً بحوالى ١٦ عاماً. عندي خمسة أولاد، من باستطاعتها تحمّلهم؟ كانت لا تزال بنت بيت عندما تزوجتها. أعزّها كثيراً وأحترمها لأنها تحب الأولاد كثيراً وأنا عندي أولادي بالدنيا كلها. الحمد لله أنجبت هي لي أيضاً إبنتي الصغرى».

هكذا من الملاحظ أن الحياة الأسرية للسجناء عادية بشكل عام، أما الذين طلّقوا بينهم فهم فعلوا ذلك لأن زواجهم لم يكن تقليدياً في حالة السيد «س» (مقابلة ٨) كان زواجه الأول مبكراً جداً ومن بيئة مختلفة جداً عن بيئته. وكان مبكراً جداً بالنسبة للسيد «ع» (مقابلة ١٥). أما السيد «غ» (مقابلة ٦) فهناك نوع من الاضطراب يلف الأسرة بأكملها في ما يتعلّق بالسلوك الجنسي سوف يتوضّح عند الحديث عن التهمة. إذن يبدو أن الزواج يصمد عادة عندما تتوافر فيه الشروط التقليدية، القرابة أو الجيرة في معظم الأحيان.



التهمة والسبب المباشر للسجن

القتل: مقابلات ٢ - ١٢ - ١٤

السيد «م» (مقابلة ٢) يروي قصته كالتالي: «أنا إنسان ما بعرف عن هذه القضية إطلاقاً ونهائياً. لم أجد نفسي سوى معباً في صندوق السيارة. خطفتني الهيمنة السورية وألبسوني هذا الثوب الذي ليس لي إطلاقاً. أما أهل الفقيد فهم أهلي وروحي. قبضوا عليّ وعلى روحي ودمي في شهر ١٠ عام ١٩٩٠، وبدأوا يضربونني (خبيط يقول). أخذوني إلى صيدا وقالوا لي عليك أن تلبس هذه التهمة إن شئت أو أبيت، أو سوف تموت (يحكي عن تعذيبه). رجوتهم وكذا. لم ينفع ذلك. إستلمتني الشرطة القضائية اللبنانية نصف بني آدم وبغير وعي ولا أعصاب لي من كثرة التعذيب. بعد ذلك استسلمت وقلت لهم لا حول ولا قوة إلا بالله. وجدت أحدهم أعطاني القليل من النور، قال لي سوف يعدمونك في النهاية إذا لم تحمل هذه الجريمة. عليك أن تحملها، أتت أوامر بذلك. أما أنك تريد الموت أو تريد الحياة. القتيل وأهله أصحابي، إنهم أهلي وأصحابي وكل ما يمكن. تعرفت عليهم في كازينو الجبل في بحمدون. كان الرجل مثل والدي وكان عمره ٦٤ أو ٦٥، كان والداً لي عزمته لعندي وعزمني لعنده وكان كل شيء طبيعي. عندما ذهبت لأعزي به قال لي أهله إنه اختلف مع ناس في الكازينو عام ٨٨. يا حسرتي لم أكن أعرفه بعد في ذلك الوقت. فقالوا لي أن أساعدهم وأشوف أين قتل والدهم. يبدو أنه مات بالرصاص بحسب أسئلة القاضي، أنا لا دخل لي إطلاقاً بذلك، إنني مظلوم ظلم بهذه الشغلة، ألبسوني هذا الثوب. وجد مقتولاً ومرمياً على الطريق وكل ماله معه وساعته وكل شيء. هناك أولاد حرام في المنطقة لا يريدون لي الخير لأنهم رجعيين وفئويين».

السيد «ف» (مقابلة ١٢) يقول: «مشكلتي أنني اتهمت بالقتل. إتهموني بقتل امرأة أخي، توفيت في البحر، امرأة أخي. كلا لم تتوف وحدها،

أخي كان معها وأنا أيضاً. كنا كلنا سوياً على البحر». سألته هل غرقت، فأجاب: «أغلب الظن أنها غرقت». والظن الثاني سألته، أجاب: «الآن أقول لك الظن الثاني. عندما توفيت كنت أنا شلتها (حملتها) وركضنا لعند خفر السواحل القريب منا، قلنا لهم يا عمي معنا غريق تعالوا ربما استطعنا إسعافها، نحن ليس معنا إسعافات ولم يمر علينا هذا الأمر من قبل. كنا في بلد خليجي وكنا نسبح في البحر. لماذا السباحة ليست مسموحة؟ ثم إننا لا ننزل البحر متفرعين، يعني ننزل ونبقى بملابسنا، بيجاما أو ما شابه. حاصله، جاء خفر السواحل واتصل بالدفاع المدني، الذي سأل عندما جاء عمن انتشلها، فقلت له إنني من فعل ذلك. وقلت له كيف حصل الامر وإننا كنا نتصيد وتركناها في القارب. كنا نتصيد السمك، منذ أربع سنوات ونحن نتصيد السمك، إنه ليس مشوارنا الاول، وهي كانت في القارب. فجأة رأينا القارب يمشي، قلت لأخي شو هيدا (ما هذا) ليش راحت؟ كنا نحن على الصخور. سألت كيف تذهب إلى الشاطئ دون أن تتكلم؟ نظرنا إلى القارب ولم نجد أحداً. قلت له إنها جالسة في القارب. ذهب هو إلى القارب ونزلت أنا أتطلع في المياه، ناديت أخي وقلت له إن إمرأتك هنا غارقة. لم يكن هناك من أحد غيرنا وكانت الساعة الثانية بعد الظهر». عندما استغربت أن يصطادوا في بلد خليجي الساعة الثانية بعد الظهر. فقال: «هذا طبيعي، نحن نذهب إلى هناك ونخيم على البحر. نقضي هناك أسبوعاً أو ثمانية أيام. نأخذ خيمنا وننام مع عائلاتنا. يأتي الكثير من العائلات أيضاً. المهم أخذ الدفاع المدني الجثة وحققوا معنا. أتينا بشهادة طبية من الطبيب الشرعي تقول إنها وفاة طبيعية، يعني غرق طبيعي. وفاة طبيعية لأن لا وجود للعنف حتى ولو ماتت غرقاً. في البلد الخليجي الذي كنت فيه القاتل يقتل، ليس هناك محامٍ أو ما شابه. (يعلق الدركي هنا: طيب لم يستطع أحد أن يمسكها من رجليها مثلاً ويكون نفسه طويلاً ويمنع غرقها)! يعلق السيد «ف» يا أخي طيب لماذا نود قتلها؟ ثم ما هو السبب الذي سوف يدعونا لقتل أم لثلاثة أولاد؟ أي مجرم يمكن أن يعمل هذا؟ حاصله إدعى علينا والدها لأننا لم نحضر الجثة إلى لبنان. أبوها، وهو عمي لأبي، إدعى علينا على أساس أننا احترنا في البداية ولم نعرف ما هو الأمر الصحيح لكي نقوم به وأنه من لمفروض إحضارها إلى لبنان. والأدهى من ذلك أنني جمعت مشايخ

ضيعتنا عندما علمت بالأمر وقلت لهم كيف يقوم عمي بهذا الأمر؟ هو يريد المال بصراحة، وهذا شيء عيب. يعني لو دفعت له المال لا أعود مجرماً وإذا لم أدفع أصبح كذلك؟ طيب، قلت في نفسي، لن أدفع أي قرش وليعمل ما يريد. ليست المسألة لعب عيال وهناك شهادة طبية». يقول المتهم إنه سافر إلى البلد الخليجي في بداية الحرب وبسببها. وذريعته في عدم نقل الجثة إلى لبنان هي الحرب في العام ٨٥، لكنه يعود ليورد أنه عاد إلى لبنان في العام ٨٥، عاد ومعه ٦٠٠ ألف ليرة ولكنه وضعها في المقاولات، مع ذلك طلب مني مساعدته لإيجاد محام. يقول إنه يملك طابقين لو أجّرهما لصار معه ما يلزم من المال! وكأنه يحاول إقناع محدثه بأن المشكلة هي مشكلة مادية! بعد الكثير من النقاش يعترف بحصول بعض الزعل مع أخيه عندما تزوج، لكنه لم يقبل أن يفصح كيف حدث ذلك ولماذا، واعتقدت أن التحقيق الجنائي ليس مهمتي على كل حال.

السيد «ج» (مقابلة ١٤) موجود مع أخيه في السجن، الأخ من أجل تهمة سرقة صيرفي، وهي قصة قديمة أدخل السجن من أجلها عند عودة سلطة الدولة. أما تهمته هو فهي القتل بسبب «مشكل» (خناقة يقصد) حصل معه على الطريق بالصدفة وبسبب أولوية السير. لم يكن يعرف القتيل ويسمي الحادثة «مشكل فوري». كان الطرفان مسلحين وكل منهما رفع سلاحه بوجه الآخر. وكلاهما ينتمي إلى تنظيم مسلح، لكن دون معرفة سابقة فكل منهما ينتمي إلى منطقة مختلفة وحصل الحادث في منطقة ثالثة. . يقول «كان يمكن للواحد أن يتفادى الحادث، أنا عندي نقطة ضعف، لا أعود أستطيع أن أسيطر على نفسي. كان من الافضل لو سيطرت على نفسي، لم أستطع ذلك لأن الوقت كان وقت أحزاب وكل واحد يحمل فرداً (مسدساً) الكبير والصغير، حتى إبن ١٢ أو ١٣ عاماً. حصل هذا في العام ٨٧. كان يوجد حينها ١٠٠ حزب و١٠٠ جهاز، وكل شخصٍ يتبع لحزب، وكل واحد «خود إيدك والحقني». لقد تسرعت قليلاً وهو أيضاً تسرع. كنت مع شاب صاحبي وهو الذي تسرع أكثر مني لأن المشكل حصل مع صاحبي في البداية، لكنني لحّقت حالي وأصبته. لماذا؟ عندي إبن عم مات بهذه الطريقة، مات غدراً. يعني مشكل فوري أيضاً ومات. هو أراد تفادي المشكلة، لكن خلص هم كان الشر في رأسهم. تدخل الكثير من الناس وحاولوا أن يردوهما عن بعض،

وكان السلاح مع الطرفين. ترك إبن عمي المكان، لكن الآخر كمن له ورشّه بالرصاص. لذلك أنا حاولت أن أتوقى الغدر، قلت حتى لا يحصل معي كما حصل مع إبن عمي وكنت أسرع منه. صاحبي الذي كان يرافقني غلِط (أخطأ) لأنه صفّ السيارة، ما كان عليه أن يفعل ذلك، هم صفّوا السيارة (ركنوها جانباً) ونزلوا منها، هو لم يكن عليه أن يفعل مثلهم، كان باستطاعته أن يكمل سيره وكان خلص. نزل إثنان منهم وكان الثالث يهم بالنزول ورفع فرده يريد أن يقوص، لكنني كنت أسرع منه وأطلقت النار عليه مباشرة، أصيب برقبته، أربع رصاصات أصابت رقبته. أدرت السيارة بسرعة، وكنت أقود عربية الحزب، وذهبت وبلّغت عن الحادث وكيف حصل، وسألت إن كان عليّ أن أسلّم نفسي إلى القضاء التابع للقوات، فقيل لي أن لا لزوم لذلك نحن سوف نرى و«نظبطها». أجروا إتصالاتهم وإجراءاتهم. قالوا «أتركوه في الشكنة» وننزل إلى المجلس ونرى، نقول إن الأمر متعلق بمواكبة وما شابه، أي في إطار مهمة. كان الحق عليهم، أنا لم يكن عليّ أي حق لأنهم نبهونا كثيراً من الغدر بسبب وجود الحساسيات الكثيرة والقوية. كان الكثير من شبان الحزب «يضربون» (يتعرضون للاعتداءات) في هذه الأثناء، وكنا نخاف وجود كمائن وما شابه. من أجل ذلك إرتأوا أن أقطّع الوقت حتى الأربعين يوماً من وفاته، لأن أهل القتيل عرفوا بالأمر. ويتم تقديم الأمر علي أنه حصل أثناء مرور مواكبة وأنه غلط بغلط. وقالوا لي لا «تعتل هم». أنا قلت لهم طيب، لكنني مستعد إذا لزم الأمر أن أسلّم نفسي إلى الشرطة NP (الشرطة العسكرية للقوات اللبنانية). قالوا لا داعي لذلك، وافقت وقلت طيب. لم يمر عشرون يوماً وجاء الأمن الداخلي: «عايزينك وما عايزينك» (يقصد أتوا للتحقيق معه) ونحن قيل لنا كذا. كان قد أخبرهم أحد الشبان أن المشكلة التي حصلت لم تكن قصة مواكبة وأخبرهم ما حدث. فقلت لهم إنني سوف أذهب معهم. طلب مني الحزب أن أسلم نفسي وأن كل شيء سوف ينتهي بسرعة. سلمت نفسي وأخبرتهم كيف حصلت القصة على أساس إمكانية تظبيط الأمر وأن ينتهي كل شيء ويحصلون لي على إسقاط حق. سلّمت نفسي للقضاء وأوقفت في سجن رومية سنة وثمانية أشهر. كانت تجري حينها أحداث التحرير (وما التحرير كما هي عادته في الكلام) ثم بدأت حرب الإلغاء بين الجنرال

عون والقوات. عندما انتهت الأحداث وراق الوضع ودخل الجيش (يقول جيش لحود) انضبط الوضع وعاد القضاء إلى العمل وصرت أذهب إلى الجلسات على أساس قالوا إن الأمر طبيعي، فالحادث مشكل فوري فلا تخف لأنه دفاع عن النفس، يعني ال٤٧ وليس ال٤٩ (أي ينطبق عليه أحكام المادة ٤٧ التي تبدأ بعقوبة سجن من ١٥ عاماً وأقل بينما المادة ٤٩ تعطي عقوبة إعدام أو مؤبد)، قلت إنني لست خائفاً. لكن القاضي الذي حكم عليّ لم يرحمني بسبب حقده عليّ (ينتمي السجين إلى عائلة معروفة). القاضي الذي مثلت أمامه كان شديد الحقد على القوات وكان يكرههم. لم أكن أحمل أي هم في ما يتعلق بالحكم لأنني لم أكن أقصد أن أقتل الرجل، فأنا لا معرفة سابقة لي به، وجاء شهود ممن كانوا معه في العربية وأخبروا ما حدث، وكنت قد تعرّفت عليهم. «أكلت راس الحكم» (يقصد أن القاضي حكم عليه بالحدّ الأقصى للمادة المطبقة عليه وهي ١٥ عاماً) يعني عندما عرف القاضي أنني سوف أستفيد من قانون العفو أعطاني الحد الأقصى للحكم. إنتظرت أن يحكمني ٥ سنوات أو ٦ سنوات إذا ما أراد أن يظلمني، لأنني لا أقصد القتل، لم أكن أنوي أن أقتله، هو مشكل وفرِض عليّ. يعني إستغرب كل المحامين هذا الحكم. أرسلت بطلب زوجة القاضي وهي محامية قوية، هي أيضاً استغربت الحكم، رحمه الله الآن فقد توفي. توفي على القوس (في المحكمة) من قسوته وظلمه مات في المحكمة، جاءته جلطة ومات وهو يعطي الأحكام ولم يكن كبيراً في السن. كل أحكامه كانت قاسية ضد شباب القوات.

الآن أندم على قتل هذا الرجل. القتل صعب كثيراً، يحمل الواحد دم غيره، يعني هذا شيء صعب. أفكر فيه وأصلي له عندما أفكر فيه. وأنا سألت عنه وعرفت من هو، إذ من غير المعقول أن لا أفعل ذلك. أذكره بصلاتي كما أذكر أخي أيضاً وأذكر كل الشهداء والميتين. إنه شيء وصار ولم أكن أقصده. ليس كمن يذهب ليسرق أو لعمل شيء، لقد حدث الأمر بالصدفة. في المعارك التي قمت بها وعندما يكون الرصاص «شغالاً» يموت بعض الناس، لكنني لم أقتل أحداً وجهاً لوجه. المعارك هي من أعمال ربنا».

أما عن المشكلة التي حصلت معه في سجن رومية ونقل بسببها إلى سجن بيروت، فيقول: «نقلوني كقصاص. أنا الآن سجين لا أروح ولا

آتي، نقلي هو قصاص لأهلي. أنا أحمل عقوبتي لكن ما ذنب أهلي؟ أنا أقول إن الحق معي، صار غلط، إذ لم يكن عليّ أن أمد يدي على ر دولة، على دركي أي على رقيب. لكن عندما تتنبش (تفتش) غرف الساعة الواحدة في الليل أو الساعة الثانية. وقانون السجن يمنع فتح الباب بعد الساعة الخامسة بعد الظهر! ممنوع بأمر من النيابة العامة إلا في الحالات الطارئة، مرض أو ما شابه. هم يطلع برأسهم أن يأتوا ويكونوا سكرانين يحملوا المفاتيح ويصعدون إلينا. حصلت عدة قصص، ينبشوا الغرفة يطلعوا يخربوا، يعني مش معروف أغراض مين أين صارت. بيطلعو يرموا في كذا غرفة. حصلت شكاوى كثيرة بسبب ذلك. أنا كنت أهاجمهم كثيراً، فأنا قديم جداً فوق وأعرف قوانين السجون. في سجن الموسيقى (إسمه هكذا) الذي كنت فيه، وهو كان مفتوح جديد. كله نظارات والسجناء القدماء فيه قليلو العدد. أرسلت رسالة مغلقة إلى آمر السجن، إن الأمر كذا وكذا وحكيت القصة. تشكينا عدة مرات دون فائدة. لا يصل المكتوب، يصل إلى ضمن إدارة سجن الموسيقى فقط ويمزق هناك. كنت قبل ذلك في قسم ال A، نزلت إلى قسم ال B من أجل أخي. نزلت من أجله لأنه موقوف فيوضع مع الموقوفين، بينما أنا محكوم. أخي أيضاً عصبي نوعاً ما ونرفوز، صرت أحاول أن أروّقه. أنا صرت أتحاشى الكثير من القصص والمشاكل، جاءت فترة صاروا ينزعوا فيها صور العذراء والقديسين عن الحيطان. لكل تخت (سرير) له طاولة، وضعت عليها أناجيل صاروا يفلشوها ويرموها إلى الارض كي يصيروا ممسحة للرجلين. كان هناك أيضاً شباب مسلمين معنا في الغرفة عندهم قرآنهم وكذا، يصيروا يمزقونه. كلنا إشتكينا لكن لم يرد علينا أحد. نحكي لضابط الدوام يروح في اليوم الثاني يملطشها (يضيع المسألة) ويتركها ضمن جدران السجن الذي نحن فيه كي لا تصل إلى فوق. عندما صرت أضايقهم وأكلمهم في وجههم وأمام آمر السجن، حطّوا بحطاطي (صاروا يضايقوني ويفترون علي). جاءت فترة كنت نائماً في الصباح الباكر سمعت صوت أخي يقول له ولو يا رقيب هذا أخي ألا تعرفه؟ إنه سجين قديم. سمعته يسب له «ك..» أختك على أخته. أنا لم يعد عندي أعصاب، يعني أن يسب أختي؟ ركب المشكل بيني وبينه وتدخل بعض الدرك. بعد عشر دقائق أو ربع ساعة يرسلوا خلفنا من أجل محضر تحقيق.

شرحنا لهم ما يحدث منذ شهرين، وأنهم يضايقوني بشكل خاص وهيك هيك القصة، وواضح أن أخي مضروب بالمفتاح على رأسه والدركي رئيس حرس داخلي في الطابق الارضي ولا يحق له بالتالي أن يصعد إلى الطوابق العليا ولا يحق له فتح غرفة سجين. عندما حكيته بالقانون، أنزلوا عندها الدركي في جدول الخدمة في الطوابق (كي لا يعود مخالفاً لأنظمة السجن الداخلية). أتى سجين من تحت وقال لي هيك هيك (حكى له ما حصل). قلت له لن يؤثروا عليّ وسوف يطالون وكل شيء سوف يظهر. أخذ التحقيق مجراه وأرادوا تسفيري إلى القبة وأخي إلى صور. إضطرينا إلى استخدام الوسايط من أقربائنا ومعارفنا كي نبقى في بيروت بانتظار المحكمة العسكرية. حكم الدركي بعدها بالسجن لمدة شهر».

السرقة: مقابلات ١ـ ٥ ـ١١ ـ ١٥

سبق أن وصفت كيف تتم السرقة، وكي لا أكرر أشياء سبق ذكرها سأكتفي بإيراد المعلومات الإضافية المتعلقة بالسرقة.

السيد «ح» (مقابلة ١): «أخبرني أبي أنه يعاني من تقصير مادي. قلت له سوف أعمل. صرت أذهب مرتين أو ثلاث إلى المدرسة، وفي الوقت الباقي أذهب كي أكزدر مع رفاقي، نذهب إلى السينما أو ننزل إلى البحر، نستأجر بيسكلات. كنت آخذ «خرجية» من والدي أجمعها وأصرفها عندما نخرج. كنا نقوم ببعض «الشغلات» (الأعمال) مثل السرقة من محل أبو خضر: نشتري بنفس الفيش ٤ أو ٥ مرات، أو ندخل إلى المحل لنأخذ قناني بيبسي وشوكولا. . أفكر لو أن أمي كانت موجودة لما حصل معي هذا، لكنني لا أندم على شيء ولا ألوم أبي، ألوم نفسي فقط لأنني لو ملكت الإرادة لما وصلت إلى هنا. لا أندم على شيء لماذا الندم؟ سررت لدخولي السجن لأنني عرفت هكذا صاحبي من عدوي وفي نفس الوقت تعلمت أشياء كثيرة مثل معاملة الناس. أقول تعلمت أشياء كثيرة، منها الجيد ومنها العاطل. المحتال تعلمت منه كيف يساير ويحكي ويضحك على الآخرين في نفس الوقت. تعلمت كيف نعاشر العالم كيف أبدأ معهم وكيف أنتهي. كنت منيح من قبل لكن أصحابي هم خربوني. كلهم في سجن رومية الآن، إنهم حوالى تسعة. إثنان منهم فقط متهمان بالقتل (قتل الوالد من أجل المال) وبتعاطي المخدرات. أحدهما حكم بالسجن المؤبد

والثاني ثماني سنوات ونصف. لم أفكر عندما كنت مع أصحابي ولم يخطر على بالي بأن ما كنت أقوم به كان سيئاً، كنا نجمع المصاري ونكزدر، نطلع إلى الجبل وحمانا. كنا نركب الموتوسيكل. كان ركوبه هوايتي لأنني أحبه منذ صغري، نفسيتي هكذا، أقوده على دولاب واحد، أنبسط عندها ويصير عندي ارتياح. عندما حصلت السرقة كنت برفقة صديقي، كنت جالساً على الموتوسيكل ودخل هو وسرق ذهباً. كنت وسيلة دون أن أدري. أنا أمام الناس حرامي، أمام الله وبيني وبين نفسي مظلوم، لكني مظلوم من رفيقي وليس من الدولة، مظلوم من نفسي».

السيد «ن» (مقابلة ٥) الذي نقلنا ما يقوله عن السرقة وتقنياتها في الفقرة التي خصصناها لذلك. هو يعترف أنه سجن أحياناً لأنه قام بالسرقة ويستحق السجن، لكنه سجن مرات أخرى دون ذنب، ولم يكن هو القائم بالسرقة. يقول إنه أمضى في السجن ٩ سنوات من سنواته التي بالكاد تتعدى العشرين. يقول: «بعدما دخلت السجن صرت أعرف في القوانين وكل ما يتعلق بها. يكون عندي محامية مثلاً، هي لا شيء أمامي، لا تفهم قدر ما أفهم أنا. (هذا رأي معظم السجناء، يجدون انهم أفهم من المحامين) في السجن وأمام القاضي لا تهمني المحامية ولا أحتاجها، تهمني مسألة واحدة، أن تحرك لي أوراقي فقط. أول مرة دخلت فيها السجن لم أكن قد سرقت ولم أكن في أي حزب. في كل مرة أدخل فيها السجن أتعلم أشياء جديدة، نتطور في كل مرة. أول مرة نمت في السجن ستة أشهر، خرجت وبقيت شهراً واحداً خارج السجن. صرت فوت لمدة شهر وأخرج لمدة شهر، وهكذا. ذات مرة دخلت السجن «كتّرت فيها كتير». يعني عندما مرت حرب عون لم أرحم أحداً. ماذا فعلت؟ «ولك صرنا نسرق وألف قصة». عندها كنت أستحق السجن. أما الآن فلا علاقة لي بالسرقة. كنت خارجاً من السجن وجاء صاحبي لعندي. لم أسرق معه رافقته فقط (هناك توسيع لما حدث في فقرة تقنيات السرقة). عندما جاءني كنت أعمل ونويت أن أنصلح وأن أسافر. دخلت معه في المرة الاولى بجناية ولم آخذ منه أي فرنك. لكن هذه المرة سجنت ظلماً».

عندما ذهبت إلى السجن بعد عطلة العيد في ذلك الوقت كان حكم «ن» قد انتهى وأفرج عنه، ولم أره مرة ثانية.

السيد «ي» (مقابلة ١١) قام بالسرقة وهو يعترف بتهمته ويقضي حكمه

بانتظار إطلاق سراحه ويخاف على نفسه من معاودة السرقة بعد أن تاب عنها وأصبح متديناً . نقلنا كيف يقوم بسرقاته في الفقرة المتعلقة بذلك. يحكي عن سوابقه في السجن: «كنت أدخل السجن حوالى خمسة عشر يوماً وأخرج. . في الزمانات كان القاضي . . يقول إنه لن يسجن أحداً طالما هناك متراس واحد في لبنان. كان قد عاهد نفسه أن لا يوقف الناس. كان المستنطق يأتي إلينا في النظارة، لم يكن هناك من محاكم. كان يسألنا: ماذا معك؟ خمسة آلاف ليرة لدفع الكفالة؟ إذا لم يكن يملكها كان يتم إيقافه».

السيد «ع» (مقابلة ١٥) نقلنا أيضاً تهمته وطريقة القبض عليه في الفقرة المذكورة.

الاحتيال: مقابلة ٣

عندما سألت السيد «أ» لماذا هو في السجن، أجابني: «إسألي القاضي لماذا أنا في السجن»! وعندما قلت له ما الذي أخذك إلى القاضي، قال: «التحري هو الذي أخذني». من أين أخذك؟ «من بيتي أكيد وليس من الجامع». يتبين من أجوبة السجين قدرته على المناورة ومدى ثقته بنفسه. تهمته الإحتيال، بدا لي أنه لم يخبرني إلا جزءاً من حكايته، فالأرجح أنه متهم بعدة قضايا إحتيال، منها على ما أعتقد قضية احتيال كبيرة، لكنه لم يرد التحدث عنها وتواطأ معه الباقون. فاكتفيت بما قاله لي وهو كافٍ على كل حال.

عند سؤاله هل اعتقلت؟ أجاب: «لا والله ضحكوا عليّ، قالوا لي عايزتك النيابة العامة، لأنهم يعرفون أن لا شيء عليّ (لا تهمة ضدي). أفاجأ في النيابة العامة بما حدث، لأنني متزوج من امرأة كبيرة في السن قليلاً، واعتبروا زواجي منها احتيالاً عليها لتشليحها أموالها. ثم وضعت في السجن». وأصرّ على أنها التهمة الوحيدة ضده. وأن تهمته إحتيال وتزوير وأن تهمة التزوير أعطيت له بدون وجه حق: «إعتبروا أن الأوراق التي تزوجنا بها مزورة. أحضرت لهم إخراجات القيد من دائرة النفوس والمستندات الأصلية من المحكمة الشرعية، لم يأخذوا ذلك بعين الاعتبار. كل الأوراق صحيحة وزوجتي تأتي إلى المحكمة وتقول لهم إن هذا زوجي وأنا أعطيته مالي. سألني القاضي ماذا أخذت منها؟ قلت له إنني لم آخذ

منها، هي التي أعطتني وقدمت لي. مع ذلك حُكِمت رأس الحكم (يُقصد بذلك دائماً الحد الأقصى من العقوبة). هي لا زالت زوجتي، وهي بنت صغيرة في السن (يقصد التهكم) عمرها ٧٣ سنة فقط. لم تكن متزوجة من قبل ولا أستطيع أن أذكر اسمها لأن لها وضعها الإجتماعي (يقصد الجيد) وهي ذات شأن وعائلة. إن عائلتها هي التي حرّكت القضية. أنا أعتقد أنني مظلوم، لست بريئاً لكن مظلوم، إنتبهي !صحيح أنني تزوجت هذه الإنسانة وصحيح أن عمرها ٧٣ سنة وصحيح أنني أخذت أموالها، لكنني أخذتها بحسب الشرع ولا يطالني القانون لأنني متزوج منها رسمياً. صحيح أن ما قمت به ليس جيداً، لا تتصوري كم هو مقرف أن يتزوج الواحد من إمرأة في عمر ٧٣ سنة، لكنني فعلت ذلك من أجل أموالها. ماذا أريد منها أنا سوى أموالها وإسم عائلتها والوصول إلى كرسي معينة! لكن التهمة غير صحيحة أنا لم آخذ أموالها، الشرع ينص على أن مالها مالي إنها إمرأتي (دينه يختلف عن دين زوجته). الشرع يقول إنها عندما تتوفى فمالها مالي. صحيح أنها لم تنقبر بعد (يقصد لم تمت بعد) لكنها سجلت لي أموالها. وأنا لم أضغط عليها ولم أحمل كرباجاً أو قلت لها أعطيني بالقوة؛ لكنه اللسان الحلو أترين كيف؟ ماذا تعتقدين بامرأة في عمر ٧٣؟ ترقصين معها «سلو» و«ديسكو». وعندما تندهين لها تأتي يدها وبعد نصف ساعة تتبعها رجلها (يقصد أنها عجوز ولا تستطيع الحركة)، يعني بعد شوي «خالصة» (يضحك). هي لم تكتب لي المال، أعطتني إياه مباشرة، سجلت لي بإسمي حتى يعرف ذلك الجميع». عندها سألته ألا تخاف أن أنشر هذا الكلام؟ قال: «ولا يهمك، إنشريها لا تفرق معي. هي ذهبت لتكتب لي في دائرة النفوس؛ تبين أنهم يريدون ٧ مليون دولار رسوم وضريبة للدولة على المبلغ على أساس أنه هبة، على أساس أن الدولة تأخذ نسبة معينة. ذهبت عندها وسجلت المال بإسمي مباشرة. يعني سحبت المال «كاش» وأعطتني إياه ووضعته في البنك». سألته عندها إن كان سوف يطلقها بعد خروجه من السجن (لأنه كان قد أعلمني أنه سوف يطلق زوجاته بعد خروجه لأنهن لا بد خائنات). لكنه أجابني أنه لن يطلّق هذه المرأة. (موقف مبدئي رغم تعبيره السلبي عن مشاعره!). يقول إنه من غير المعقول أن يتركها: «ولحم أكتافي من ورائها، قبضت منها ٣٧ مليون دولار. إن شاء الله هذه لن أطلّقها، أطلّقهن جميعهن ما عداها».

التزوير (معاملة حصلت لاستعادة أرض في اسرائيل): مقابلة ١٣

السيد «خ» (مقابلة ١٣)-يروي تهمته كما يلي: «لي صديق وهو في نفس الوقت مهندس وعنده مكتب، جاء وعرض عليّ ان أعمل معه محاسبة، فهو يملك مكتب للعلاقات العامة. عرض علي معاشاً مغرياً في الشهر، أثناءها كان مغرياً، ٢٠٠ دولار في العام ٨٧ على اللبناني كانوا حوالى ال٧٥ ألف ليرة، الدولار كان صار ب٢٥٠ ليرة. قبلت العمل عنده. توظفت وبعد شهرين أو ثلاثة أو أربعة يأتي ليعرض عليّ أن عنده قطعة أرض في أريحا في فلسطين وإنه يريد تحريرها. في الحقيقة إعتقدت في البداية أنه يمزح. لم يخطر الموضوع على رأسي أبداً. قلت له من سوف يحررها؟ قال نحن نريد أن نحررها. قلت له روح يا إبني أنت تضحك عليّ. قال لي والله أتكلم جد. هو لبناني لكن تعرفين كانت الطرقات مفتوحة من قبل. هي أرض ورثها، كانوا في البداية يذهبون في التران (القطار). المهم أصرّ الرجل. في البداية لم أصدقه فعلاً لكني قلت له لنفرض أنني صدقتك فماذا تريد أن تفعل؟ وكيف سوف تحررها ولماذا إنتقيتني أنا وأنا أعلم أن لديك إخوة؟ قال لي بصراحة أنا جربتك في العمل معي هذه الأشهر ووجدت أن باستطاعتك ذلك وأنك كتوم. طلبت أن يريني أوراقاً تثبت ما يقوله، وبالفعل أحضر ورقة تثبت أنه يمتلك قطعة أرض في مدينة في فلسطين هو وأولاد عمه. وهي أرض كبيرة تبلغ ٩٧,٩٣١ متراً مربعاً. المهم قلت له انني مستعد، يعني ماذا سوف يكون موقفي؟ فأنا أعمل عنده وبصراحة فكرت أنني سوف أستفيد. قال لي إن معاشي يظل سارياً وأسافر إلى مصرعلى حسابه ويتكفل بكل مصروفي هناك. فنحن كلبنانيين ليس باستطاعتنا السفر إلى فلسطين. ليس باستطاعتي الدخول ألى فلسطين إلا إذا كنت أعمل معهم، يا ليتني عملت معهم (الإسرائيليين) لما تجرأ أحد أن يقول لي ما أحلى الكحل بعينك! المهم إتكلنا على الله واشترى إلي بطاقة سفر وسافرنا إلى مصر. كنت أذهب إليها للمرة الأولى، هو يعرف مصر لأنه درس الهندسة فيها. ذهبنا إلى مصر وصرنا نسأل ونستفسر. بعدما سألنا وجدنا أنك في مصر عندما تقولين إسرائيل، مع أن عندهم صلح مع إسرائيل، يتضايقون منهم ولا يحبونهم، صرنا نخاف أن نقول لنا أرض في إسرائيل، لأن الوضع ليس كما يجب. إهتدينا أخيراً إلى محام قيل لنا أن له علاقات وله أهل في

إسرائيل (يقول هناك). سألناه إن كان لنا أرض هناك والقصة كذا. كذلك صار يضحك مثلما ضحكت أول مرة. قال لنا اننا نطلب المحال. قلنا له نريد أن نجرب إذا كان هناك من أمل. بدأنا الإتصالات عن طريق المحامي لأن زوجته من فلسطين وأهلها لا يزالون في بيت لحم. صار يتصل وقال إن هناك أمل لكن هناك شروط كثيرة، مثل واحد يقول هذه أرضك ولا أريد أن أعطيك إياها؛ فماذا يفعل؟ يصعّب الأمر ويخترع القصص كي لا تقدري أن تأخذيها. طلبوا الكثير من الأوراق، كلما أحضرنا أوراقاً طلبوا غيرها. تطلب ذلك عمل ٥ سنوات، أنا أختصر لك كثيراً. كنا نبقى هناك ثمانية أشهر أو سنة ونعود. حتى وصلت إلى مرحلة لم يعد المال يهمني، لا تؤاخذيني بهذه الكلمة، إنكسر هو في هذه السنين الخمس وصرت أدفع من جيبي، عرفت كيف؟ صارت المسألة مسألة تحدّ. كانوا يتصلون بنا وينصحونا بأن نرفع أيدينا عن الأرض. كيف عرفوا عنواننا وكيف وصلوا إلينا؟ الأرض كان قد استلمها الحاكم العسكري ويستمرها عميد في الجيش الإسرائيلي. كانوا يرسلون من يقول لنا إرجعوا إلى بلادكم، فهذا أفضل لكم. مرة حاولوا إغتيالي ورموني في النيل، لذلك أصرّيت على أن أكمل وفكرت: يا أنا يا هم (أو أنا أو هم). قالوا إن هذه الارض أرضكم لكن ما دمتم لبنانيين فلا يمكن أن نسلمكم إياها، لو أن أحد الورثة عنده جنسية أجنبية لكان باستطاعته أن يستلمها. قال لي المهندس أن إبن عمه أميركي وعنده جنسية أميركية. إتصل به وكلمه، فطلب منه عمل وكالة عنه وعن إخوته حتى يستطيع أن يتصرف. أتى إبن عمه إلى لبنان وأعطاه وكالة عنه وعن إخوته في مدة ١٥ يوماً. أرسلنا الأوراق إلى الحاكم العسكري من مصر فقال إن هذا الشخص يحصل على حصته. في البداية قالوا إن أي واحد أميركي من الورثة يستلم كل الارض. الآن قالوا إنه يأخذ حصة واحدة من ١٩ حصة، تصوري؟ لحل المسألة تم التنازل عن الارض في السفارة اللبنانية لشخص واحد هو أنا. لم يقبلوا الاعتراف بشيء إسمه لبنان فأخذنا حكماً من المحاكم المصرية وتكرس التنازل وتحررت الارض بالقانون ورفع الحاكم العسكري يده عنها. هم (الإسرائيليون) في الحقيقة يلتزمون بالكلمة. إعملي بالقانون وأحضري أوراقك وخذي الأرض. لكن الصعوبة تكمن في معرفة القانون. المهم تحررت الأرض وأردنا بيعها. دفع الإسرائيليون فيها ثلاثة

ملايين دولار ونصف، لكننا بعناها لفلسطيني بماية وخمسين ألف دولار. نحن لم نعمل خمس سنوات على تحريرها من الإسرائيليين كي نبيعهم إياها مرة أخرى. بيعت الأرض وعندما عدت من السفر أوقفت في المطار بتهمة تزوير. تبين أن توكيلات إبن عمه مزورة. رفع أولاد العم قضية إن توكيلاتهم مزورة. أنا لا دخل لي من الأساس والأرض ليست أرضي. حكمت ٤ سنوات».

الاتجار بالمخدرات: مقابلات ٤ - ٩

السيد «ض» (مقابلة ٤) يقول: «والله العظيم أنا دخلت هذه القضية ظلم بظلم، وانحكمت بخمس سنوات». عند سؤاله هل الآخرون مظلومون أيضاً، أجاب: «كلا ليسوا مظلومين. لكن حصلت القصة على أساس أن لا يتم الإعتراف على الشخص الأساسي الذي أعطاهم البضاعة. إعترفوا عليّ أنا لأن الرجل الآخر كان قوياً جداً. خافوا منه لأنهم إذا اعترفوا على الشخص الآخر ودخل السجن فسوف يتسبب لهم بقصة بعد خروجه. أنا لا دخل لي بهذه العملية ولا بغيرها. القصة قصة جيران وجيرة. ذهبت لإيصال الرجل إلى . . دخلت الموضوع لأنني أوصلت الرجل إلى . . . (مدينة أخرى)، فصرت شريكاً في القضية. والمشكلة أن هذا الرجل وُجد عنده مخدرات ودولارات، ٥٠ ألف دولار مزوّرة بحسب التحقيق، لكنني لم أكن أعرف ماذا عنده. أنا أكلت قتل كثير (ضرب) عند التحرية وبقيت على نفس الكلام (الشهادة). كل ما أعرفه عن الموضوع أنني أوصلت الرجل من مدينة إلى أخرى. حصل ذلك بسبب الجيرة، الزلمي (الرجل) جاري، جاء لعندي وقال لي أعمل معروفاً وأوصلني إلى مدينة كذا. إنه جاري والباب بالباب. لم يقل لي شيئاً، صعد معي في السيارة هو وزوجته وأولاده. لم آخذ منه مالاً لأنه جاري وأنا لا أعمل بالأجرة. أخذته خدمة على أساس الجيرة. حكيت نفس الكلام عند التحري وعند المستنطق وعند القاضي. لكن مع ذلك انحكمت مثلهم، مثلي مثلهم. الرجل نفسه قال إن لا دخل لي، لكنهم لم يصدقوه. الرجل متزوج من إمرأة من المدينة التي أسكن فيها، وهو أصله من المدينة التي ذهبنا إليها. يعني هناك نوع من شبكة. لكنه اعترف أن لا دخل لي. لكنه عندما تعرض للكثير من الضرب، قال إن الأغراض من عندي. في المحكمة وعند

المستنطق إعترف عليّ، قال إن فلان أتى بي وإن الأغراض من عندي. عندما تواجهت معه، لأنني سلّمت نفسي للتحري، أتيت من مدينتي إلى بيروت وسلّمت نفسي، وتمت المواجهة بيني وبينه؛ حكيت ما عندي وحكى ما عنده وبقينا على نفس الكلام. لكنه كان قد اعترف عليّ في التحقيق الفوري، أي أنني من أحضره ومن أعطاه البضاعة. مع أنه جاء لعندي وقال لي هل توصلني، فقلت له تكرم عينك، فالباب بالباب، فلو قال لي تعال وأوصلني إلى آخر الدنيا لكنت فعلت ذلك. بحق الجيرة طبعاً، فعندما يقصد الجار جاره يقوم بذلك من أجله. قمت بإيصاله وذهبت، عدت إلى بيتي. طبعاً هناك سيارات أجرة، لكن تعرفين الدنيا شتاء ولا عمل عندي حينها، ومنزلنا في البساتين، فعندما طلب مني هذه الخدمة قبلت وأوصلته. لكنه كان مُراقباً وعرفوا السيارة التي أوصلته. كانت المسألة عملية استدراج من رجال أمن الدولة. جاء أحدهم وسأله أن يؤمن له كذا وكذا، طلب ذلك منه. عندما أوصلته أخذ نمرة السيارة، وعلى الخبيط (الضرب) إعترف لأنه خاف. وخاف أن يعترف على أهل بلدة كذا.. لأنهم أقوياء فاعترف عليّ أنا لأننا ضعاف ولسنا كثيرين (يقصد أنه ليس من عشيرة قوية). بعد الضرب إعترف على الآخر الذي حكم ١٠ سنوات غيابياً، وهو شخص كبير جداً من حزب الله.

السيد «ط» (مقابلة ٩). للسيد «ط» قصة طويلة مع المرض والطبابة والمستشفيات؛ وهو بسبب مرض إبنه وإصابته في رأسه وسوء تصرف الأطباء أو استعصاء الحالة عليهم، اضطر إلى أن يصرف كل ما كان معه من مال (لأنه غير مضمون صحياً) و تأخر عمله المهني (يعمل في الديكور) بسبب إهماله له. يقول: «كان وضعي الاقتصادي قد بدأ يسوء، كنت أترك عملي وألحق بالصبي. أترك ورش العمل التي استلمتها وأترك شريكي الذي تقاتلت معه. صرت أتدهور ولم يعد معي أي شيء. كنت قد استأجرت بيتاً في مار الياس وكان عندي شقة في حي السلم. صرت أبيع عفش بيتي في مار الياس وأنتزع المرايا وأبيع كل ذلك. هنا كان وضعي الإقتصادي قد بدأ ينهار. المهم ضربت في آخر مستشفى لجأت إليه. أخذت إبني من المستشفى وقلت سوف أتركه في البيت، وإذا كان سوف يموت، فليمت. لا أريد أن أتبهدل أكثر من ذلك. لكن قلت في نفسي فلأتصل بالمنطقة الشرقية، وقصدت الدكتور فلان، هناك أشياء لا

أستطيع أن أحكيها. بعد أن اجتمعت بالطبيب قلت إنني سوف أمشي في الغلط. لأنهم قرروا إجراء عملية جديدة في الدماغ. يدخل الواحد في الغلط بسبب اليأس. يصير يبحث عمداً عمن يغلط معه. لاحظت شيئاً، إن الخطأ يأتي بنفسه إلى الناس، فبمجرد ما أن تفكري فيه تجدين أنه تصور (تجسد) أمامك. لو ركبت سيارة سرفيس تلاقينه. هذا ما حصل معي. كان محلي مقفلاً، وكنت قد أفلست، هذا الكلام حصل منذ خمس سنوات، ولم يعد عندي شيء. وصلت إلى المستشفى وهناك بدأوا بطلب المبالغ الضخمة. وكان هناك أمل في أن يشفى. خرجت من المستشفى في الثانية عشرة ليلاً، وكان هو يعاني من نزيف حاد في باب بدنه، طُلب مني أن أذهب لأحاسب. طُلب مني هناك ٤ آلاف دولار كتأمين. قلت له أوكي، خمس دقائق. صدقاً كانت الليلة ليلة سبت، تركت إمرأتي وطلعت في سيارتي وانطلقت لا أدري إلى أين، ولا أعرف من أين آتي بالمال ولا أعرف من سوف يعطيني أربعة آلاف دولار. فجأة كما قلت لك يأتي الغلط لعندك. بعمري كله لم أجتمع مع بعض الناس. أعرف شخصاً مصرياً، ذهبت لعنده على أساس أنه من المحتمل أن يعرف أحداً أتدين منه المال بالفائدة. طرح علي الموضوع مباشرة ورضيت (يقصد فاتحه بمسألة شراء مخدرات). وكأنه كان ينتظرني، سبحان الله، قلت له إمش. صعدنا حينها إلى قرية.. (نفس القرية التي سماها السجين السابق) كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كي آتي بالمخدرات. ويا ليتني كنت أعرف هذه القرية أو كنت قد لمست المخدرات سابقاً. ذلك أن المصري طلب مني أن أؤمّن المخدرات لشخص مغربي كي يعطيني المال. قلت له ما الذي عليّ أن أؤمنه هيرويين؟ وأنا فعلاً وقسماً بالله لا أعرف ما هو وليس عندي تجربة. قال لي أن أؤمن البضاعة وآخذ المال «كاش». أنا كنت قد سمعت أن أخ صهري يقع في مشاكل كثيرة ويتاجر في المخدرات، أسمع ذلك عنه فقط، لكنني لم أكن قد جلست إليه أبداً. قلت أوكي إذن وطلعت إلى منطقة بعلبك مباشرة في الثانية بعد منتصف الليل. وصلت إلى الشخص قريب صهري وقلت له أريد مخدرات، قال لي أي نوع؟ كنت قد نسيت إسم النوع، قلت أورو.. (يقصد انه لم يكن يعرف أن يلفظ كلمة الهيروين) لا أدري ماذا. سألني كم أريد؟ قلت له كيف يبيعونها؟ قال بالغرام. سألني هل معي مال؟ قلت له أعطيني

أنت وأبيعهم وأحضر لك المال. سألني كم أريد، قلت له أعطيني كيلوغرام واحد. قال إن ثمنه أربعة آلاف دولار، الغرام الواحد بأربعة دولارات. صدقيني أنه كان عليّ ان أبيعهم بأربعة آلاف دولار. قلت آخذ الطلب وأذهب وليشتكيني. لكنه لم يقبل أن يعطيني، قال لي هذه «مسطرة» (يقصد عينة)، إذا وافق على النوعية تحضر المال وتدفع وتأخذ البضاعة. قلت له لم لا! أخذت المسطرة (العينة) للرجل ووافق على الشراء، طلبت منه عندها المال، أعطاني ألفي دولار. فكرت وأنا أمسك بالألفين، روح يا صبي إدفعها للمستشفى. كنا لا نزال في نفس الليلة، كنت أصعد وأعود. صارت الدنيا صباحاً وإبني وزوجتي في المستشفى لا أعرف عنهما شيئاً. أخذت الألفين وقلت يا صبي بلا هيروين، بلا مغربي وبلا بطيخ، روح إدفع المال للمستشفى. أخذت الألفين ومررت على صاحبي وسألته هل يشتري العدة، عدة العمل خاصتي؟ سألني عن سعرها وكانت الساعة الخامسة والنصف صباحاً. قلت له يا زلمي ما معي ولا فرنك. قال طيب كم يلزمك! قلت له هل تعطيني ألفين دولار كدين؟ قال لي خذ هذه ألف دولار ودبّر نفسك. أخذني كذلك إلى أخيه الذي أعطاني خمسماية دولار، صار معي الآن ٣٥٠٠ دولار. برمت على بعض الشركات التي كنت أتعامل معها ودبرت الأربعة آلاف دولار وطلعت إلى المستشفى باكراً حيث وجدت زوجتي والطفل على ركبتيها وقد وضعوا القطن في مخرج بدنه كي لا ينزف وينتظرون الأربعة آلاف دولار. دفعت المال واطمأنيت على الصبي ونزعته من رأسي. أين صار المشكل الآن؟ صار في الألفين دولار ثمن الهيروين، والمغربي وأصحابه هم عصابة، تعرفين مغربي ومصري وإبن . . (يسمي القرية البقاعية) يعني كارثة. قلت لنفسي ليست مشكلة، أغطس معهم. ذهبت لرؤية الرجل المغربي وقلت له دفعنا المال وأحضر لك البضاعة هذين اليومين لأن ما هو موجود لم يعجبني. قال لي أتريد أن تكذب عليّ؟ قلت له لماذا أكذب عليك وهل أعرفك كي أفعل ذلك؟ قلت له أعْطِ ما تبقى من المال إلى فلان (الرجل المصري). أعطاه المال. سبحان الله ظبطت معي، ذهبت معه إلى القرية مع الألفين دولار فأعطانا نصف كيلو ولم يعطنا كيلو (يضحك وهو يتكلم)، أعطانا على قدر المال. يا فلان يا حبيبي سوف نحضر لك الألفين الباقيين نحن نعمل بشرف وأخلاق. لم يقبل. فماذا

فعلت؟ تصوري غطست معهم، سرقت الهيروين من بيته، لحقت بالصبي الصغير إبنه: عمّو ما عمّو لا أدري ماذا أيضاً، دخلت الغرفة فأهل المنزل يعرفونني (كان قد قال إنه لم يكن قد تعرّف عليهم من قبل!)، أمسكت بكيس وخرجت مباشرة قائلاً، يللا هل تريد شيئاً يا فلان؟ قال لي كما قلت لك لا أحد يبيع هذه البضاعة هكذا، قلت له أجل وذهبت. هل تصدقين أنني حتى الآن لم ألمس المخدرات بيدي، هذه لا أعرفها. أوصلت الهيروين إلى الرجل المغربي وبقي عليّ الألفين دولار للصبي. الآن ماذا؟ راقت لي المسألة ودخلت برأسي. بعت سيارتي وصرت أشتري الهيروين وأبيعه وصرت أربح سألته عما فعله عن النصف كيلو الذي سرقه، قال: «لا شيء، ضرب الرجل زوجته لأنهم يسرقون بعضهم هناك وانتهى الأمر».

«أنا فعلت كل ذلك من أجل إبني. لا يمكن أن تتركي إبنك يموت أمام عينيك ولا تقومي بشيء! إذا كنت أريد أن أبيع إبني، كيف بإمكاني أن أفعل ذلك! أليس هو إبني؟ أليس من صلبي؟ كيف أتركه يقف هكذا أمامي وأتركه يتعذب ويموت؟ والله إنني أبيع نفسي من أجله. أنا متأكد أن من يقول إنه لا يفعل ذلك ، عفواً، أقول لك إنه كذاب. أنا لا أبرر موقفي، والله إنني أقف على رأس السطح وعلى الشبك (شبك السجن حيث يقابل المساجين زوارهم) وأفتخر بما قمت به. أنا لم أعمل الغلط، لم أعمله، الأيام هي التي أوصلتني لذلك. ساعة التخلي نزلت إلى الروشة أريد أن أنتحر، أنظري مللا قصة! عندما أتت ساعة التخلي، أفقت في الثانية والنصف أو الثالثة بعد منتصف الليل. كنت وحدي في البيت وزوجتي وإبني في المستشفى. لبست ملابسي وتركت سيارتي ولم آخذها وذهبت مشياً على الأقدام. وصلت إلى الروشة وأنا أقول لنفسي يا صبي تريد أن تقتل نفسك؟ والله العظيم نزلت لتحت إلى البحر وقلت لنفسي طيب أنا لا أعرف السباحة. تصوري تتطلعت إلى المياه وتطلعت إلى الله وقلت له أنت خلقتني وأنا سوف أدفع؟ لا أريد أن أقتل نفسي وعدت وصعدت».

الإرهاب: مقابلات ٧ ـ ١٠

السيد «ش» (مقابلة ٧). أطل برأسه بينما كنت أجري مقابلة وقال لي إنه يريد أيضاً أن أجري معه مقابلة. سألته ما هي تهمته فأخبرني

«إرهاب». بادرني بالقول إنه مظلوم. لماذا؟ سألته، هكذا، قال، «ظلموني. ظلمني الحكم لأن من معي في الدعوة (المتهمون الآخرون) حكموا كل واحد منهم سنتين، سنتين. أما أنا فحمكت ٨ سنوات». قلت له ربما لأنك الرأس المدبر! «ولو كنت كذلك، أجابني، ليس عليه أن يحكمني هذا الحكم». مع أنه يعترف فيما بعد أن الحزب الذي ينتمي إليه اشتغل من أجله كي لا يحكم بالمؤبد. السجين عليه أحكام في ١٧ دعوة: تفجيرات محلات تبيع الخمور وتفخيخ وإرهاب...

يقول: «إنتشأت على الأحزاب، وانتشأت على الفوضى، هكذا. كنت في المقاومة المؤمنة. قبل ذلك كنت في حركة أمل. نشأت على البارودة. مع الحركة قاتلت في إقليم التفاح. كنت بعمر ١٩ عاماً. أخي الدركي هو أيضاً كان في حركة أمل وقاتل، لكنه عاد ودخل الدرك لأنه تعلم وأنا لم أتعلم لأنني لم أحب ذلك (أنظر علاقته بالمدرسة في الفقرة المتعلقة بذلك). سجن أبي ست سنوات في إسرائيل وهو كان يقوم بعمليات مقاومة. نحن عائلتنا كلها هكذا. إنتشأت على الفوضى؛ هناك أشياء قمت بها وهي جيدة وأشياء أخرى غير جيدة. يعني أن أدخل الحزب هذا مبدأ. عندما انشقيت فعلت ذلك لأن حركة أمل وجزب الله اقتتلا مع بعض، وهذا شيء سيّئ. من الأشياء السيئة التي قمت بها إنتمائي إلى الحزب القومي وذهابي معهم إلى ليبيا وإلى أوزو ـ التشاد. ذهبت معهم من أجل المال.

قمت بأشياء كثيرة ضد القانون، الواحد يقوم بكل شيء. أعطي لكل واحد حسب مستواه. وضعي مميز في البيت وفي المنطقة؛ عندما أمشي الجميع يحسب لي حساباً. يخافون مني ليس فقط جسدياً». سألته لماذا هل لديك شخصية قيادية؟ أجاب بنعم. «كنت مسؤولاً عن ٣٦ عنصراً. كنت في الجنوب في منطقة . . . كان عندي مكتب هناك، لم يكن يبعد كثيراً عن الاحتلال. كنا في المغاور والزيتون. ولم يكن يعرفنا أحد. كنت أنفذ عمليات وأقوم بعمليات إستطلاع كنت مع فلان المسؤول عن غرفة العمليات، ألم تسمعي باسمه؟ فُرِزت عنه فيما بعد وفتحت لحالي وصرت آخذ التمويل وأعمل. الشباب الذين كانوا معي هم معي هنا، ولا يقولون لا لكل ما أقوله لهم». سأله الدركي: ينادونك الريس هنا؟ قال له: «ريس كلاب، يا عمي نحن هنا تحت أيديكم. ما هو السجين؟ إنه كلب شو يعني»؟ يقول السجين إنه أخذ إلى وزارة الدفاع حيث بقي لمدة شهرين

وسبعة عشر يوماً ولم يعترف. لم يعترف أحد من رفاقي عليّ أقسم بالله. . «حكمني القاضي لوحده».

«سجنت من أجل تفجيرات محلات في الجنوب (في عدة قرى ومدن) لبيع الخمور. وأجد أنها طريقة مهمة لمنع الناس عن هذه العادات. فجّرت المحلات ولم أندم عليها. نحكي معهم في الأول ونضع البيانات ونحذرهم. بعد ذلك نأخذ فتوى من مرجعنا ونقوم بالتفجير. لأن هذه المحلات محرمة». عندما سألته هل هو مقتنع بهذا السلوك لردع البشر، أجاب: «يكون الواحد مقتنع وهم من طلبوا منه تنفيذ هذا الشيء أيضاً. كذلك حوكمت من أجل قيامي بتفجير سيارات في المنطقة. برأيي يمكن أن أحاسب لكن ليس بهذه الطريقة. لم أندم على ما قمت به. لم أندم على أي شيء قمت به. الناس الذين ماتوا كان يجب أن يموتوا؛ خاصة لأنني ملدوغ منهم، لأنني متصاوب (مصاب) من نفس الشخص-الذي فجرت له سيارته، المسألة فيها نوع من أخذ بالثأر. لكن ليست كل التفجيرات كذلك، فجرت سيارات لحزب الله والآن أنا نادم على ذلك. الآن لست راضياً عن نفسي لأنني أشعر أنني غرقت، غرقوني وأنا شو كان بدي. الآن أنا خرجت عن الدين كله. كنت أدرس الإنجيل قبل دخولي السجن. كنت في منطقة في الشمال عندما قبض عليّ. كنت أريد أن أدخل الكنيسة. كنت أعمل في مهنة يدوية. ذهبت إلى هناك؟ هكذا ركبت براسي. خلص إقتنعت وركبت براسي. الآن لم يعد يهمني أي شيء. إكتشفت أنني غلطان، كان يهمني الوطن وكان يهمني أهلي، لكن الآن لا يهمني أحد ولا يهمني البلد كله. لأنني وضعت في بوز المدفع. حطّوا حطاطي (وضعوني نصب أعينهم) وسلموني تسليم اليد وعملوا لي كمين، حاجز طيار. إكتشفت أنني غلطان. غلطان أني مشيت هذا المشي، لكني نشأت على ذلك، بيتنا كله مؤسس على هذا. عندما أخرج أريد أن أسافر وأن أتعمد. أعجبتني قصة سيدنا المسيح، يحيي الإنسان وما يحيي الإنسان. . ». قابلت السيد «ش» مرة واحدة ولم يقبل أن يراني مرة أخرى، ولم ألحّ عليه.

السيد «ز» (مقابلة ١٠) شاويش الغرفة يقول: «إتهموني في البداية بقضية إرهاب لكن طلعت منها براءة والحمدلله. إتهموني بقضية إرهاب «أنتربول» في الخارج. يعني أنا أنتمي إلى جماعة معينة، لكن pardon يعني

«إرهاب». بادرني بالقول إنه مظلوم. لماذا؟ سألته، هكذا، قال، «ظلموني. ظلمني الحكم لأن من معي في الدعوة (المتهمون الآخرون) حكموا كل واحد منهم سنتين، سنتين. أما أنا فحمكت ٨ سنوات». قلت له ربما لأنك الرأس المدبر! «ولو كنت كذلك، أجابني، ليس عليه أن يحكمني هذا الحكم». مع أنه يعترف فيما بعد أن الحزب الذي ينتمي إليه اشتغل من أجله كي لا يحكم بالمؤبد. السجين عليه أحكام في ١٧ دعوة: تفجيرات محلات تبيع الخمور وتفخيخ وإرهاب...

يقول: «إنتشأت على الأحزاب، وانتشأت على الفوضى، هكذا. كنت في المقاومة المؤمنة. قبل ذلك كنت في حركة أمل. نشأت على البارودة. مع الحركة قاتلت في إقليم التفاح. كنت بعمر ١٩ عاماً. أخي الدركي هو أيضاً كان في حركة أمل وقاتل، لكنه عاد ودخل الدرك لأنه تعلم وأنا لم أتعلم لأنني لم أحب ذلك (أنظر علاقته بالمدرسة في الفقرة المتعلقة بذلك). سجن أبي ست سنوات في إسرائيل وهو كان يقوم بعمليات مقاومة. نحن عائلتنا كلها هكذا. إنتشأت على الفوضى؛ هناك أشياء قمت بها وهي جيدة وأشياء أخرى غير جيدة. يعني أن أدخل الحزب هذا مبدأ. عندما انشقيت فعلت ذلك لأن حركة أمل وحزب الله اقتتلا مع بعض، وهذا شيء سيّئ. من الأشياء السيئة التي قمت بها إنتمائي إلى الحزب القومي وذهابي معهم إلى ليبيا وإلى أوزو - التشاد. ذهبت معهم من أجل المال.

قمت بأشياء كثيرة ضد القانون، الواحد يقوم بكل شيء. أعطي لكل واحد حسب مستواه. وضعي مميز في البيت وفي المنطقة؛ عندما أمشي الجميع يحسب لي حساباً. يخافون مني ليس فقط جسدياً». سألته لماذا هل لديك شخصية قيادية؟ أجاب بنعم. «كنت مسؤولاً عن ٣٦ عنصراً. كنت في الجنوب في منطقة... كان عندي مكتب هناك، لم يكن يبعد كثيراً عن الاحتلال. كنا في المغاور والزيتون. ولم يكن يعرفنا أحد. كنت أنفذ عمليات وأقوم بعمليات إستطلاع كنت مع فلان المسؤول عن غرفة العمليات، ألم تسمعي باسمه؟ فُرِزت عنه فيما بعد وفتحت لحالي وصرت آخذ التمويل وأعمل. الشباب الذين كانوا معي هم معي هنا، ولا يقولون لا لكل ما أقوله لهم». سأله الدركي: ينادونك الريس هنا؟ قال له: «ريس كلاب، يا عمي نحن هنا تحت أيديكم. ما هو السجين؟ إنه كلب شو يعني»؟ يقول السجين إنه أخذ إلى وزارة الدفاع حيث بقي لمدة شهرين

وسبعة عشر يوماً ولم يعترف. لم يعترف أحد من رفاقي عليّ أقسم بالله. . «حكمني القاضي لوحده».

«سجنت من أجل تفجيرات محلات في الجنوب (في عدة قرى ومدن) لبيع الخمور. وأجد أنها طريقة مهمة لمنع الناس عن هذه العادات. فجّرت المحلات ولم أندم عليها. نحكي معهم في الأول ونضع البيانات ونحذرهم. بعد ذلك نأخذ فتوى من مرجعنا ونقوم بالتفجير. لأن هذه المحلات محرمة». عندما سألته هل هو مقتنع بهذا السلوك لردع البشر، أجاب: «يكون الواحد مقتنع وهم من طلبوا منه تنفيذ هذا الشيء أيضاً. كذلك حوكمت من أجل قيامي بتفجير سيارات في المنطقة. برأيي يمكن أن أحاسب لكن ليس بهذه الطريقة. لم أندم على ما قمت به. لم أندم على أي شيء قمت به. الناس الذين ماتوا كان يجب أن يموتوا؛ خاصة لأنني ملدوغ منهم، لأنني متصاوب (مصاب) من نفس الشخص الذي فجرت له سيارته، المسألة فيها نوع من أخذ بالثأر. لكن ليست كل التفجيرات كذلك، فجرت سيارات لحزب الله والآن أنا نادم على ذلك. الآن لست راضياً عن نفسي لأنني أشعر أنني غرقت، غرقوني وأنا شو كان بدي. الآن أنا خرجت عن الدين كله. كنت أدرس الإنجيل قبل دخولي السجن. كنت في منطقة في الشمال عندما قبض عليّ. كنت أريد أن أدخل الكنيسة. كنت أعمل في مهنة يدوية. ذهبت إلى هناك؟ هكذا ركبت براسي. خلص إقتنعت وركبت براسي. الآن لم يعد يهمني أي شيء. إكتشفت أنني غلطان، كان يهمني الوطن وكان يهمني أهلي، لكن الآن لا يهمني أحد ولا يهمني البلد كله. لأنني وضعت في بوز المدفع. حطّوا حطاطي (وضعوني نصب أعينهم) وسلموني تسليم اليد وعملوا لي كمين، حاجز طيار. إكتشفت أنني غلطان. غلطان أني مشيت هذا الممشى، لكني نشأت على ذلك، بيتنا كله مؤسس على هذا. عندما أخرج أريد أن أسافر وأن أتعمد. أعجبتني قصة سيدنا المسيح، يحيي الإنسان وما يحيي الإنسان. . ». قابلت السيد «ش» مرة واحدة ولم يقبل أن يراني مرة أخرى، ولم ألحّ عليه.

السيد «ز» (مقابلة ١٠) شاويش الغرفة يقول: «إتهموني في البداية بقضية إرهاب لكن طلعت منها براءة والحمدلله. إتهموني بقضية إرهاب «أنتربول» في الخارج. يعني أنا أنتمي إلى جماعة معينة، لكن pardon يعني

لا أستطيع أن أخبرك عنها. عدا من أنني طلعت منها براءة فلماذا أقولها لك؟ (بعد إلحاحي يقول) دعوى تفجير (يسمي البلد الأوروبي) مع جماعة إحدى الجماعات الإسلامية.

هو مصري الجنسية، بدأ بالمجيء إلى لبنان منذ العام ٧٥، بداعي العمل، مثل كل العمال المصريين يقول. سبق أن حكم عليه في السجن في بعض البلدان الأوروبية، أوقف ٥ أيام (يذكر ذلك في معرض مقارنته للمعاملة بين السجون اللبنانية والسجون الأجنبية). كان منتسباً إلى فريق رياضي وبدأ بالسفر منذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره. يعترف بأنه اضطر لأن يزوّر كي يسافر.

تعاطي مخدرات وسلب والتباس في الإسم: مقابلة ٨

السيد «س» (مقابلة ٨) يقول: «سلّمت نفسي، أنا سلّمت نفسي حتى أتخلص من المخدرات. قلت أبقى هنا ثلاثة أشهر أتخلّص منها وأطلع. أنا دخلت من أجل تعاطي المخدرات لكن جاء على نشرتي دعوتا سلب. واحدة حكمت بها براءة وهي الأساس. والثانية (كان هناك مذكرتان إحداهما في المحكمة العسكرية والثانية في جبل لبنان في بعبدا) طلعت من المحكمة العسكرية إسترداد. المذكرة كانت إلتباس بالإسم، حكمت بالبراءة كذلك. الآن عندي قضية أخرى عالقة في بعبدا كذلك التباس في الإسم. وهي نفس القصة: هناك عصابة من ٧ شباب، جميعهم أنكروا معرفتي، سبق أن فعلوا ذلك في المحكمة العسكرية. لكن الشخص الذي أتى بي إلى هنا كان قد أنكر معرفتي ثم عاد وقال إنه يعرفني، قال ذلك عند مستنطق جبل لبنان. إنه حر كما يريد. صار لي في السجن سنتين ونصف السنة. الجميع قالوا إنهم لا يعرفونني، الشهود والمسلوبين والشباب السبعة، ما عداه هو. أفراد العصابة عرفوا على بعضهم البعض. سألهم العميد في المحكمة العسكرية: طيب فلان الذي يلبس جاكيتة سوداء؟ عني أنا، يقولون لا نعرفه ولم نره من قبل، ما عداه. وأنا لا أعرف هذا الشخص لكن تبين أن زوجته من نفس عائلتي (!)، ما الذي طلع برأسه لا أدري، يمكن أن يكون أحدهم قد دفشه عليّ (حرّضه ضدي)؟ لا أعرف.

سبق أن سجنت في العام ٨٤ في نفس هذا السجن بتهمة قتل. لكن

عندما فتح السجن هربت مثل باقي السجناء. لم يكن هناك دولة وكانت أيام انتفاضة وأحزاب. كانَ والدي يلحّ عليّ كي أسلّم نفسي، لكن القاضي قال لوالدي إن الدنيا معارك والمحاكم لا تعمل ولا وجود للدولة، فليبق في ألمانيا ويسلم نفسه عند عودة الدولة كان هذا في العام ٨٧. المهم سجنت مرة أخرى في العام ٨٨ عندما عدت من ألمانيا وبقيت في سجن رومية حتى العام ٩٢ كان ذلك بسبب تهمة قتل السفير ... ليست مسألة سرقة أو اغتيال سياسي، كان عندي علاقة مع زوجته، أنا اشتركت ولم أقتله. تم الأمر بتحريض من الزوجة، وكان معي واحد آخر والمسألة لها علاقة بالمخدرات، كان لي ضلع بهذه القضية لكني لم أكن أعرف ذلك لأنني كنت مخدراً بشدة أثناء تلك الحادثة لم أعرف كيف تورطت فيها، والدولة عرفت هذا الشيء. عدت ودخلت سجن رومية في العام ٩٣ وبقيت فيه سنة وثلاثة أشهر. أما الآن فلا دخل لي بذلك. لا بد أن أحدهم قد حرّض الولد عليّ، لأنه ولد عمره ١٨ عاماً وأخجل أن أمشي معه. ذلك أني بقيت عدة سنوات في رومية، لا بد أن أحدهم قد حرض عليّ ولا أدري لماذا؟ لكن المدعي العام أمر بسجني لأنه قال لي إنني هددت هذا الفتى بالقتل إذا تكلم عني. أنا والله لا أعرفه ولم أره أو أكلمه. أنا طلبت من إبن عمي أن يفسد عليّ بتهمة تعاطي المخدرات كي أدخل السجن وأتخلص منها، لكنني لم أقم بأي عمل آخر. لا دخل لي بالسلب أو بأي شيء آخر. لكن إسمي عند الدولة. وهي ليست قضيتي وحدي هناك الكثير بهذا الوضع، فلان يحضر فلان إلى السجن. الواحد يقدر أن يحضر إثنين او ثلاثة. أنا مثلاً أخذوني التحرية إلى التحقيق «من أنت وماذا فعلت» أنا أستطيع أن أحضر من أريد، يقطعوا له نفس التذكرة. يدخل السجين تحت الظنّ، يمكن أن يحكم فيما بعد أو لا».

الإغتصاب: مقابلة ٦

السيد «غ» (مقابلة ٦) يقول: «إذا خرجت من السجن سوف أعود إليه مرة ثانية. لأنني دخلته ظلماً. حقي لن يذهب ضيعاناً. الآن أصلي وأدعو الله أن يأخذ لي حقي قبل أن أخرج. وإذا لم يأخذ لي حقي آخذه بنفسي. يعني يا قاتل يا مقتول، هذه التهمة التي ألبستني إياها ليست لي نهائياً. إرتبط لساني أصلاً لم أعد أستطيع أن أتكلم. يمكن رجع لي

السكري. معي سكري أريد أن أفحصه (يتوجه إلى الدركي) أتفحصوه لي، ريقي ينشف وأبول كثيراً، أنظري إلى جسمي كيف أصبح؟

أختي هي التي أدخلتني السجن في هذه الدعوة لا وفقها الله. إنها أختي الكبيرة، عمرها ٣٧ سنة وهي متزوجة. هناك مشاكل بيني وبين زوجها. أراد أن يأخذ محلاً من محلات أبي، قلت له إنني لا أستطيع أن أعطيه المحل. أنا أبيع الخضرة في محلٍ من المحلات (هي ثلاثة محلات) وهو يبيع الخضرة أيضاً. قال لي سوف يرموني في الشارع، قلت له فليرموك. هو يملك بسطة يبيع تحت ألواح توتياء (صفيح). قلت له إنني لن أعطيك المحل لأن عمك (الأب) أعطاك المحل وأنت لم تطلع مثل العالم والناس (لم يعرف أن يتصرف)؛ أراد أن يتسلبط (تحوير ليتسلط، أي يأخذ الشيء بالقوة هنا) على المحل بالقوة، أحضرنا المخفر لكي يتركه. قال إنه يريد تعويضاً. لذا قلت له لن أعطيك المحل! قال ماشي، طيب ضع لي هذه المالية كيس عندك في المحل الفارغ. وضعت له الأكياس لكني إحتجت المحل بعد فترة فطلبت منه أن يأخذ أكياسه. أرسلت وراءه أول مرة وثاني مرة وثالث مرة، ولم يأت؛ فأحضرت عتالّين إثنين وطلبت منهما أن يرميا الأكياس في قطعة البور. وأرسلت أقول له إن فحماته في البورة. جاء لعندي وسألني لماذا فعلت ذلك وتقاتلت معه وصار مشاكل بيننا وضرب. قال لي أختك شرموطة وعكروتة (زوجته) وكذا. قلت له أختك على أخت تركيا (هو كردي). كانت أختي زوجته منذ تسع سنوات وله منها ٥ أولاد. ذهب بعدها بحال سبيله. ومرت مدة إلى أن جاء ذات يوم إلى بيتنا. كنت نائماً وكانت الساعة الخامسة صباحاً، صار يقول لأمي: إبنتك شرموطة لا أمان لها وكذا. هنا أيضاً لم أتحمل ذلك فصرت أخبطه. جاءت أختي إلى البيت وأرجعتني عنه. قلت لها ألا تسمعين ماذا يقول هذا النذل الواطي؟ رحم الله أبيك، لم يكن يريد أن يعطيه إياك. المهم طردته من المنزل، وقال لي لن أتركها لِك (هذه القصة). حينها كانت العلاقات بيننا عادية، أختي تأتي لزيارتنا وأنا أذهب أنام عندها. كانت تشكو منه كثيراً، لا يعطيها مصروف البيت فتأتي وتأخذ مصروفها منا. ذهبت الأيام وجاءت الأيام إلى أن نزلت أمي إلى سوريا هي وأختي وأخي الصغير. ذهبت لزيارة أقارب لنا. كنت يومها في المحل وجاء إثنان من الدرك وأختي وصهري، شو في ما في؟ قالوا لي تفضل معنا قليلاً إلى

المخفر. قلت لهم أريد أن أعرف لماذا؟ قالوا تعرف ذلك هناك. أخذونا إلى المخفر، جاء الرائد فلان، بقيت أختي وزوجها في الخارج. سألني ماذا فعلت مع أختك يا «غ»؟ قلت له ماذا فعلت؟ قال نايم معها ونايم مع إبنتها التي عمرها ٥ سنوات. قلت له أنا؟ قال إن أختك تقول هذا. قلت له أين الشهود أحضر لي الشهود. قال هي تقول ذلك. قلت له إن هذا الأمر غير صحيح كله غلط، هذا لحمي ودمي وعرضي، إبنتها إبنتي. قال الآن تعترف على الضرب والخبيط، سوف نرى. نادى لأختي وقال لها إن إخيك ينفي هذا الشيء. قالت له إن ما حصل معها صحيح. نادى العساكر وقال لهم أضربوه فروج وطاق، طيق وطاق، طيق. تسعة أيام ولم أتكلم بأي شيء، لكن لم أعد أستطيع في النهاية فاعترفت تاسع يوم بعد أن عادت والدتي. مكثت في المستشفى تسعة أيام. مكثت حوالى الشهر أو الشهرين في بربر الخازن ومنه أتوا بي إلى هنا. أنا لم أعترف بلساني، قلت كما قالت أختي، لأنه لم يبق لي فم، كان جسمي أزرق مثل النيل ورجلي تؤلمني حتى الآن، إنها نفس الرجل المصابة في الحرب ضربوني عليها. أختي قالت إني نايم معها، وإني بعد أن نمت معها قمت بغسل كيلوتها وعلقته على الحبل وإني نايم مع إبنتها، والبنت طلعت بنت. إسألي الباش (لقب لدركي) ألم أصرخ في المرة الماضية في الخارج وكفرت وقلت إن هذا لا يصير هكذا؟ إنحكمت تسع سنوات ظلماً هذه الأوراق الطبية وخذي الصغيرة إلى الطبيب، أقول هذا الكلام منذ سنة ونصف، أقول لوالدتي خذيها. وهي ليست لديها شهود، يأخذون بكلامها فقط (يتدخل الدركي ويقول إن الفحوصات أجريت مباشرة)، يقول لم يحضروا طبيباً شرعياً، أخذتها إلى مستشفى المقاصد ودفعت ٥٠ دولاراً منذ سنة ونصف. فحصها الطبيب وقال إن البنت الصغيرة لا تزال بنت (ما إشبها شي). أمي تعرف أنني لا أقوم بهذا الشيء، كنت متزوجاً مرتين والثالثة كانت على الطريق. أخته للواحد هل يمكن أن يعمل هذا الامر مع أخته من لحمه ودمه؟ هذه أختي الأرملة تعيش في البيت معنا وعمرها ٢٧ سنة وملكة جمال وعندها إبنتان واحدة ٨ سنوات وواحدة ٩ سنوات. لم تدخل برأسها هذه القصة. يتوجه للدركي ويسأله: طيب إذا أنا عملت هذا الشيء معها لماذا تركها زوجها عنده في البيت؟ يقول له الدركي: إذا كان غصباً عنها وعنده أولاد يريد أن يحافظ على أسرته. يقول السجين عندها:

كشف لي المحامي في المحكمة الكثير من الأسرار، هناك من سمع في المحكمة أن هناك رجلاً يزورها، يأتي الرجل الذي يصلح الغسالات، يعني وضعت التهمة عليّ أنا. لا أدري لماذا فعلت ذلك، ربما كي لا يطلقها زوجها وربما متفقة معه إذ إن بيني وبينه مشاكل كثيرة، لكن لا أعرف العلم عند الله. أنا قلت للقاضي إني مظلوم وإني لن أسكت عن حقي وسوف أدافع عن نفسي. طلبت البراءة مرتين لأن هناك من يأتي لعندها إلى المنزل في الليل وينام معها لأن زوجها يظل على البسطة في الليل. لا أعرف لماذا لم يتوسعوا في التحقيق، حكمني القاضي بناء على اعترافي وإمضائي. إبنها الصغير إعترف بأن الرجل يأتي لعندها إلى البيت. أنا أريد أن أنتقم منها، أريد أن أقتلها هي وزوجها، أريد أن أقتلها من أجل الخبر الذي سمعته لأن الشرف غالي. إبنها الكبير عمره ٨ سنوات، لم تتأخر كي تتزوج لكنه زواجها الثاني، كانت متزوجة من مقاتل فلسطيني ولم تقبل أن تذهب معه إلى تونس. بقيت معه حوالى ثلاث سنوات وأنجبت بنتاً وصبياً عاشا مع جدتهما، لكن الصبي هرب لعندها الآن وهو يساعد زوجها في بيع الخضار والبنت بقيت مع جدتها».

لفت نظري في هذه المقابلة كثرة المشاكل ذات الطابع الجنسي في الأسرة والخيانات والطلاق والزواج. منذ بداية المقابلة عندما سألت السيد «غ» عن أفراد أسرته أخبرني ما يلي:«عندي أخوان توفيا في الحرب، أحدهما تعرض لقذيفة أما الآخر فقد قتله عديله (متزوج من أخت الزوجة) في قصة دعارة وما دعارة وهو كان متزوجاً من درزية. كان أخي عائداً إلى البيت فوجد عديله عنده في البيت، نايم مع إمرأته. فتح الباب ووجده نايم معها. فما كان من العديل سوى أن سحب مسدسه وأطلق النار على أخي. ووجد نفسه غلطاناً فأطلق النار على نفسه فيما بعد. كان العديل ينتمي إلى الحزب التقدمي الإشتراكي. كان أخي مهجراً ويعيش في شقة محتلّة في الروشة». يفسر «غ» المشكلة كالتالي:«من يأخذ من غير ملّته، يموت في علته».

لم أتدخل في كيفية رواية السجين لحيثيات تهمته، بل نقلتها كما رواها ومن دون تدخل للتدقيق في المعلومات، فتلك مهمة المحامي. ولا يهدف البحث الى معرفة هل هو مذنب أم لا، بل كيف يعيش تهمته وكيف يقدم ظروفه الذاتية.

الصداقة والقراءة

الصداقة في السجن

السيد «ح» (مقابلة ١) يجيبني: «في السجن تعلمت الإرادة والإتكال على النفس (بعد الله)، وعدم الثقة بالناس، ليس كلهم، يعني بالأخص الأصحاب القدامى لم أعد أثق بهم. حاولت أن أتخذ صديقاً في السجن، لم أستطع. كلهم غايتهم المصلحة. السجن يُظهر الصاحب. عندي صاحب لم يقف بقربي. كلهم لم يقفوا جانبي. لا وجود هنا لصديق. يتصايحون على مصالح، يخانقون على ملعقة وسكينة وشفّة قهوة. من يكونوا مناح بينهم هم الكبار في العمر».

السيد «م» (مقابلة ٢) يقول: «نعم؟ أنا لا أتخذ واحداً، نعم أي واحد. ولا إنسان ولا إنسان، لأن ما حدا منيح. ولم أحاول منذ البداية، أقعد لحالي، آكل وأشرب لحالي. لا أتعاطى مع مخلوق. وهم يحركشون طوال الوقت. إذا كنت مرتاحة مثلاً هناك من يأتي ويتحرش بك، كي يسود لك سمعتك في الإدارة. لأنهم ليسوا بشراً».

السيد «أ» (مقابلة ٣) يقول: «الحمدلله هناك ٣٠٠ واحد هنا في السجن كلهم يحبوني، حتى العساكر يحبوني أيضاً. وذلك لأنني لا أؤذي أحداً ولا أرمي حرام ولا أخبط احداً (يعني لا يتهم أحداً بأنه قام بمخالفة يكون هو قد ارتكبها). من يفعل ذلك قد يحلقون له قرعة. أنا لا أرتكب الخطأ، صحيح أنني مسجون لكني لا أقوم بما يخالف القانون. والله يعلم إذا كنت أساعد السجناء. ولا أفعل ذلك كي يراعوني، أنا لا أريد أن يراعيني أحد، لا أطلب منهم أن يراعوني، لكني أحاول أن أكسب عطفهم بأي طريق كانت. يعني أحتال عليهم لأكسب عطفهم، مع أنهم الله يساعدهم، يعني أقول للواحد يا حبيبي ويا عيوني ويللي بدك إياه. شو عايز أعطيه. أحاول أن أكسبه لأنني قد أحتاج هذا السجين في الخارج. قد يأتي يوم ويريد أن يسافر أو أي خدمة فيأتي إلى مكتبي».

السيد «ض» (مقابلة ٤) يقول: «عندي رفقة في السجن نتحدث مع بعض، مسايرة ومرضاة خواطر. لا صديق عندي من هنا، عندي صديق من خارج السجن. تعرفت في السجن على الكثير من الأشخاص لكنني لم أتخذ منهم صديقاً، بمعنى الصداقة المتينة والمظبوطة. لا يمكن أن تأخذ صديقا في السجن لأنه كله حكي فاضي. كثر يصاحبون في السجن لكنهم ينسون بعضهم في الخارج. أنا سجين مثلي مثل الآخرين لكن هناك ظروف لا تناسبني، أنا آكل وأشرب معه وأحكي، لكن لا أقول أشياء خاصة بي، لا أحكيها ولا أتحدث عن عائلتي. كيف تعيش الآن وكيف هم أولاده، هذه أمور تظل ضمن الواحد ولا مجال ليبوح بها أمام أحد. دخولي السجن؟ إنه قدري. من المؤكد أنني تعلمت درساً لولد الولد. أنبههم في البداية من الأقارب ومن الصداقة ومن الجيران ومن كل الأمور التي حصلت أمامي أو معي بالذات. لا يعني هذا أنني سوف أمنعهم عن الأصحاب، لكن هناك صاحب يفرق عن صاحب. إبن عائلة متينة أو إبن بيت لا مانع أن يمشي معه. الناس مخباية في ملابسها. صديقي هو الوفي ومن يحميني. عندما يغار عليّ أغار عليه. إذا كانت المسألة متعلقة بالثأر فهو عليه أن يحميني، مجبور أن يحميني بالنسبة لنا نحن كعشائر. لكن لا يحميني إذا تعلق الأمر بالمخدرات (أحس أن هذا الكلام موجهاً اليّ بشكل خاص، لا أدري إذا كان يعتقد به حقيقة إذ الحماية عند العشائر يجدر أن تشمل كل شيء).

السيد «غ» (مقابلة ٦): «عندي في الخارج أصدقاء كثيرون، زاروني مرتين أو ثلاث مرات، لكنني منعتهم. داخل السجن؟ تسه، تسه، تسه، نهائياً. لا يجب أخذ أحد كصديق من السجن».

السيد «خ» (مقابلة ١٣):«أول شيء استفدته من السجن أن لا يصاحب الإنسان أحداً في حياته، ولا يقول عن أحد إنه صاحبه إلا بعد أن يجربه ويحكّه. استفدت لأننا عندما ندخل السجن لا أحد يسأل عنا، إلا الأهل طبعاً، إذا كنت منيحة مع أهلك يسألون عنك. تأتي الحاجّة لزيارتي وأترجاها أن لا تأتي وأن ترتاح، لكنها تقول لي لو كنت عاطلاً معي ما كنت سألت عنك. حسب معاملتك بدّك تتعاملي. الأكثرية هنا في السجن مساكين، ٧٠٪ من السجناء معتّرين. الوضع سيئ في السجن لأن معظم السجناء لا يراعون بعضهم البعض. لا ضمير لديهم ليحكّموه ويعملوا بموجبه، عندهم نفسيات سيئة. المسألة متعلقة ببيئة البيت على ما

أعتقد وبالتربية. أنا مثلاً أزعل من أحدهم أكون قد ساعدته قبل قليل ويعمل معك ضرب، وأقول إنني لن أساعد أحداً بعد الآن. أقول هذا لكن لا أستطيع. اتخذت صديقاً في السجن وتبين أنه ما بيسوى (سيئاً)، الآن أتخذ لنفسي صديقاً آخر إن شاء الله يكون منيح. ألتقي معه من وقت إلى آخر في نفس الغرفة. تبين أننا كنا في نفس المدرسة، صادقته لأن رأسه يركب على رأسي وهو متعلم ورايق».

السيد «ج» (مقابلة ١٤) يقول: «عندي أصدقاء، لكن لا يمكن اتخاذ صديق في السجن، لا في السجن ولا في خارجه. عندي أصدقاء اتخذتهم، يعني عشت وإياهم فترة منيحة برا، يعني خارج السجن. دخلوا عليّ في السجن وعشت معهم فيه وخرجوا. المثل يقول الصديق عند الضيق. رأيت أن العالم كلهم اليوم والأصحاب على غاية أو مصلحة. ولا يبقى للواحد إلا الذين ربّوه وخلّفوه. لكن عندي الآن صاحبان أينما ذهبا أو سافرا يسألان عني، يعني من الخارج أيضاً. كانا معي في ثكنة واحدة وعشنا مع بعض أيام صعبة وأيام حلوة. وأنا وقفت معهم مواقف حلوة وبينت معهم. جاءت فترة تهدد فيها هذا الشاب وتهددت أسرته وأرادوا أن يحرقوا له بيته، وهم أحرقوا منزل أحد أصحابنا، بقينا ١٧ يوماً نحرس له بيته كي لا يحرقوا له المنزل فهو شاب وحيد وعنده أخوة بنات ووالده متوفى. يعني عرف أنني من حمى له بيته. وهو إلى الآن يرسل لي المكاتيب ويزورني كل فترة ويريدني أن أسافر. لكن لا أعرف إذا كنت سوف أسافر، عندما أخرج من هذه البوابة التي هنا أعرف عندها. إذا لم أسافر سوف أعمل في التجارة الحرة».

السيد «ع» (مقابلة ١٥) يقول عن الصداقة: «يعني هيدي الشغلة الوحيدة التي أحترمها، لأن الصداقة تعني أن يتجزأ الشخص إلى قسمين، الشخص ذاته يتجزأ إلى قسمين. التفاهم، الصداقة هي التفاهم، الإخلاص. كلمة الإخلاص تعني شيئاً كبيراً. لا يقدر أي إنسان أن يملأها. الصداقة صعبة لأنني عندما أصادق أحداً يعني أمّنته على كل شيء، صفّى (أسلمته) سرّي وهذه مسألة خطيرة. يعني الصداقة بنظري شغلة كبيرة، ولا يحصل الإنسان على الصديق في كل حين. استطعت الحصول في السجن على صديقين. خارج السجن عندي أصدقاء كثر، هناك ثلاثة أصدقاء أعدهم أصدقاء حياتي».

القراءة

السيد «ح» (مقابلة ١): «لم أكن أقرأ من قبل. هنا أجلس للقراءة: القرآن، القصص، لا يوجد أشياء تعجبني، كتب عبير ممنوعة. أقرأ أيضاً التسالي والكلمات المتقاطعة ومجلة العربي. أقرأ بحسب الغرفة التي أنا فيها، كتب دين. يجب طلب إذن للقراءة».

السيد «م» (مقابلة ٢) أجاب عن سؤالي عن القراءة: «يا حسرتي، أقول لك كيف أقضي وقتي معظم الاحيان، إذا واحد معه شبكة الرياضة مثلاً، أقول له: بعد أمرك، أطال الله بعمرك ويخلي لك أهلك خليني أتسلى قليلاً؟ لا يقبل. ألعب الشطرنج فقط وألعب ورق مثل لعبة ال٥٠٠ أنها لعبة محترمة. ألعبها مع آخرين، يعني مش ضروري أن أكون جاموساً (يقصد كالحيوان) ولا أحكي مع أحد. لكنني أظل متحفظاً».

السيد «أ» (مقابلة ٣) عندما سألته عن القراءة أجابني: «أنا أكتب في السجن. عندي كتابات حلوة. صرت كاتب حوالى الكتابين، يعني دفترين. لكن عندي كتابان للنساء. كتبت شيئاً جميلاً لهن. وصفت المرأة وجمالها عن قرب، المرأة الجميلة أتعرفين؟ هناك الكثير من الأشياء ممنوع أن تدخل السجن. لم أطلب إدخال شيء لأنني أعرف أنه ممنوع».

السيد «ض» (مقابلة ٤): «نركّز هنا على قراءة القرآن وتفسيره. نمضي النهار بالكلام مع رفاقنا. نتحدث عن مشاكل بعضنا البعض. القلم هنا ممنوع».

السيد «غ» (مقابلة ٦) يقول: «أقضي وقتي في السجن (لعب ورق) دق ١٤ دق ٤٠٠ دق ليخة دق طاولة. لا أقرأ، ما هلق أكلت إيدي ندم لأنني طلعت حمار ولا أعرف القراءة. طلعت من المدرسة أعرف التهجئة. ندمت كثيراً لأنني أرى الناس يرسلون رسائل ومراسيل وأنا لا أعرف أن أكتب رسالة».

لا أحد يقرأ في منزل السيد «غ»، ربما الأم تقرأ القرآن فقط.

السيد «س» (مقابلة ٨): «استفدت كثيراً من حبستي السابقة، مطالعة وقصص. كان عندي في رومية مكتبة كاملة وقرأت الكثير من الكتب، قرأت تاريخ العرب المطول لفيليب حتي وكتب جرجي زيدان وكل مجموعة جبران خليل جبران ومجموعة ميخائيل نعيمة. أحب القراءة

كثيراً وعندي أسلوب قوي جداً (في الكتابة). عندي كتابات قليلة وإن شاء الله سوف أكتب مذكراتي».

السيد «ي» (مقابلة ١١) يقول: «ندمت كثيراً لأنني لم أتعلم لكن لم تفت الفرصة ما زلت قادراً على أن أتعلم، أتعلم ما هو أفضل من العلم. قادر أن أتعلم أموراً أفضل. مثل الحوزة العلمية يعني، أتعلم شيئاً يفيدني في آخرتي، كوني لم أستفد من الدنيا. أنا عندي كتب ومتعلم يعني، أقرأ مثلاً في البلاغة وأميز أيضاً». عندما سألته كم ساعة يقرأ في النهار، أجاب: «يعني الآن عندي صلاة، عندي وقت منيح للصلاة، حوالى سبع أو ثمان أو تسع ساعات. ذلك أنني لم أصلِّ منذ حوالي سبع أو ثماني سنوات، فأنا لم أصلِّ في حياتي وعليّ أن أقضي كل هذه السنوات (يصلي بدلاً عنها)».

السيد «خ» (مقابلة ١٣) يقول: «أنا لم أكن أقرأ كثيراً خارج السجن. الحياة في الخارج صراع لا مجال لأن تقرئي أو أي شيء آخر. أحياناً أشعر هنا بالحاجة لأن اقرأ لكن القراءة تضيق لي نفسي حقيقة (لا تؤاخذيني) يعني أنا أصلي والحمدلله وأحياناً أقرأ القرآن، في الخارج كنت أرتاح عندما أقرأ فيه، لكن هنا حتى مع القرآن أجد نفسي أختنق احياناً، فأقفله وأضعه جانباً».



هل للسجن من فائدة ؟

السيد «ح» (مقابلة ١) يقول: «لا أندم على شيء، سررت لدخولي السجن. عرفت صاحبي من عدوي وتعلمت في نفس الوقت. تعلمت كل شيء، ما لا أعرفه صرت أعرفه. تعلمت شغلات كثيرة، مثل معاملة الناس. أقول تعلمت شغلات منيحة وأخرى عاطلة. المحتال تعلمت منه كيف يساير ويحكي وفي نفس الوقت يضحك على العالم. تعلمت كيف يعاشرون العالم (يقصد الناس في كل مرة يقول فيها العالم)، كيف أبدأ وأنتهي معهم. السجن الذي أنا فيه ليس جيداً طبياً (يقصد غير صحي). لكني ربما أستحق السجن بسبب أعمالي؛ لكن في نفس الوقت السجن جيد لمن له أعمال أكبر من أعمالي. أنا أعرف أنني بريء. السجن جيد لمن أخطأ فعلاً ويحتاج إلى عزل عن العالم. بعد الخروج من السجن هناك ربما من يراجع افكاره ويصلح خطأه وهناك من يتعلم الغلط من غيره ويخرج كي يكمله. بصراحة صادفت في السجن من هم في الخارج أصحاب شخصيات ضعيفة، يأتون إلى هنا ويتباهون بأنفسهم، يقومون بالتفنيص: أنا سرقت أكثر منك. يسرون بدخولهم السجن. عند وصول الطعام لهم يتباهون فيه. هؤلاء لا أعتقد أنهم قد ينصلحون. من يستفيد من السجن هو من يشغل عقله. هنا ناس يراجعون أفكارهم: الإمرأة والأطفال، فيبكون ويتحسرون على حالهم، وهناك من يجدون أن الأمر طبيعي. الأولاد يعطون السجين مجالاً للتفكير فيهم وفي وضعه وفي زوجته. حضرت عدة مشاكل على الشبك، يتعاتبون مع بعضهم البعض، تفرض المرأة سلطتها على الرجل لأنه في الداخل، يصبح باستطاعتها أن تربحه جميلها. من يفعل ذلك يستحق أكثر من ذلك. عندما يعرف الرجل نفسه متزوجاً وله أولاد لمَ يقوم بهذه الاعمال؟».

السيد «م» (مقابلة ٢) أجابني عندما سألته عن رأيه بفكرة السجن: «أنا لا أعطيك رأيي لأنني لست خاطئاً، أنا دخلت ظلماً إلى السجن (وبعد

إلحاحي) لكن سوف أقنعك بكلمة واحدة: الخاطئ لا ردّه الله، المجرم لا رده الله وخاصة الظالم، الله لا يقيم باطه (إبطه)، لازم تتعلق مشنقة للمجرم، لكن المظلوم؟ لماذا يحكم ظلماً؟» عندما سألته كيف نعرف المجرم من غير المجرم، أجاب: «ولو يا أختي لا شيء يختفي اليوم (يمكن إخفاؤه). لكن إذا دخل أحدهم السجن بعد أن أخطأ مرة، إنتبهي يمكن أن يكون مرّ بظروف بسبب الحرب، بعض السجناء سرق أو نهب وقاموا بأشياء لاأخلاقية، لكن إدخالهم السجن يجعلهم يخرجون وقد تعلموا أشياء لا يتصورها العقل، يتعلمون من أناس خطأة، إنتبهي، معظمهم يتعلم اشياء. أنا في السجن منذ ٥ سنوات. فات عليّ أناس وخرجوا خمس مرات، إنتبهي أين النقطة! السجن هنا سيّئ لأنهم يجعلونك تتعرفين على أشخاص لا تحبين التعرف عليهم. إيه.. ليسوا من المجتمع، لكن إنتبهي، إبن البيت يظل إبن بيت. إنتبهي، لا يتغير. أي إنسان لا يضع في رأسه أشياء سوداء يظل محافظاً على تقاليده وعلى أصالته وعلى مبدئه. ويظل على الخط الصحيح الذي كان عليه في الخارج. يشتكي أمره لرب العالمين هو الذي يأخذ بحقه كإنسان مظلوم».

السيد «أ» (مقابلة ٣) أراد أن يعرف من أين أنا وحجته في ذلك أنه يريد أن يستفيد من دراستي لانه يريد: «أن يعرفوا أن أرواحنا مأسورة هنا، صدقيني أرواحنا ليست ملكنا. أتيت وحصرونا في غرفة مع ٣٠ شخصاً. هل جربت السجن قبلاً؟ تصوري أن لا ترين أهلك إلا مرة واحدة في الاسبوع؟ تصوري أن نقعد هكذا (يقعد متربعاً على الارض) ٢٤ ساعة على ٢٤ والغنم كلها حولك، تعرفين كيف نقعد؟ هكذا. كذلك من الأفضل أن يكون الموظفون في السجن مدنيين. يعني من غير المعقول أن تطلبي من الدركي: please أحضر لي هذه الورقة. أكيد هناك نوع من السلطة التي تلتصق بالدركي، إذا فتح الباب عليّ وأحس بغلطة يركعني ويجلدني وله الحق. المدني لا يجرؤ على أن يعاملنا هكذا لأنه سوف يتحاسب. الموظف هناك من يحاسبه هناك وزارة وقضاء. الدركي لا. العسكري معه حق على طول إجمالاً. المدني ممنوع أن يغلط. لتحسين الوضع في السجن قليلاً يمكن إيجاد مكتبات مثلاً، فوتبول، حركة صغيرة، بينغ بونغ أو نادي صغير مثلاً. وجود الجمعيات الإنسانية مسألة جيدة أيضاً. وجود هيئة أو جمعية تتلقى الشكاوى. أما عن وظيفة

السجن؟ فالله يستر، عندما يخرج السجناء من هنا الله يستر. لأنني سمعت ليس من واحد أو اثنين أو ثلاثة، سمعت أن هناك من يريد أن يخرج كي يقوم بالمشكلة على الشبك (يقصد أن هناك من سوف يعيد الجنحة فور خروجه). لأن من دخل من أجل سرقة ٥ آلاف أو ١٠ آلاف دولار، انصرفت الآن (لم تعد بحوزته). سوف يخرج السجين متوفاً، يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يطعم أولاده. هناك من كان له أهل، كان متزوجاً وتركته امرأته، سوف يخرج بعد ٥ سنوات ولا يجد لا إمرأة ولا أولاد، أو سوف يجد أولاده ضائعين مشردين. ماذا تريدين أن يفعل؟ لا بد أن يغلط».

السيد «ض» (مقابلة ٤) يقول: «إذا نظرت إلى المساجين لوجدتهم كلهم أولاد الأحداث وتربوا في الحرب. في الحرب لم يكن هناك دولة ولا بوليس. قبل الحرب لم يكن هناك هذا القدر من السجناء. كل الأجيال الآن تربت على الحرب وعلى عدم وجود دولة ولم يكن هناك قانون، ولم يكن هناك من يطال المجرمين. كان هناك حرب اقتصادية وحرب كل شيء. الواحد يعمل البدائع كي يجلب المصاري: يقتل، يشلّح، يتاجر بالمخدرات. لم تعد تفرق مع أحد لأن لا أحد يطالبه أو يحاسبه على هذا الشيء. وفجأة تطلع الدولة هكذا، لم يعمل حسابها. أنا لم أتعلّم شيئاً في السجن (يضحك). السجين يتعلّم الكثير من أصحابه والناس الذين يجلس معهم، لأنه، لا تؤاخذيني، يعاشر حرامي وتاجر مخدرات. في السجن الكثير من المشاكل والصراعات. وهناك ناسات بايعة الدنيا بقشرة بصلة ولا يهمها سوى أن تأكل وتشرب. كل إنسان والله خلقه بطبع. أعرف الكثير من الأشخاص الذين دخلوا السجن وخرجوا دخلوا وخرجوا دون فائدة. هناك من يدمن على السجن، يصير عندهم إدمان على السجن كالإدمان على المخدرات. إذ من الممكن أن لا يكون عنده بيت أو مأوى أو عائلة. يعمل مشكل ويعود ويدخل السجن. هناك أحدهم في سجن رومية، والله العظيم قيل لي أنه دخل اكثر من ثلاثين مرة. لكن عندما يجلس الإنسان إلى نفسه يفكر ويقول هذه شغلة منيحة وهذه شغلة مش منيحة. عندما يجلس الواحد إلى نفسه لا تحق إلا الحقيقة، يكون الإنسان صريحاً مع نفسه ويكون شريفاً على أساس أن يعيش حياة هانئة ويهتم بأولاده ومستقبلهم. ليس من الضروري أن أتعلم

من المساجين الاشياء السيئة على كل حال. لكن لا شيء يعجبني في السجن. السجن ليس جيداً بالمرة، «منو منيح نهائي». السجن يضايق كثيراً ويتسبب بأمراض نفسية. هناك البعض الذي يفقد عقله في السجن».

السيد «غ» (مقابلة ٦): «تعلمت من السجن أشياء كثيرة، تعلمت كيف يقومون بالسلب والسرقة. بحياتي لم أسمع كيف يسرقون من قبل. يقول «تعلمت أشايا وبلايا». من يدخل السجن يتربى لأنها حبسة وسخة. في الصيف لن أرضى أن أبقى هنا، أريد أن أغيّر السجن لأن الروائح لا تطاق هنا في الصيف. أريد أن أذهب ولو بكت عليّ أمي. أنا دخلت المستشفى منذ حوالى السنة، توقف قلبي عن العمل، مكثت في المستشفى حوالى الأربعة أيام. السجن منيح لكن غير هذا السجن. لا يمكن القعود هنا الرائحة في الصيف قوية جداً. لو السجن مثل أوروبا، هناك تلفزيون في الغرفة، ولا يوضع فيها سوى ٥ أو ست مساجين. والمتزوج يقابل زوجته وينزوي معها في غرفة».

السيد «س» (مقابلة ٨) يقول: «لا فائدة من هذا السجن، إذا كان هناك من حسنات للسجن فليس في مثل هذا السجن السيّئ. كل سجون لبنان غلط في غلط. أنا رأيت سجن التسفير في ألمانيا، إنه مثل الأوتيل هنا. هناك شغلة في السجن، يدخل الواحد في تهمة سرقة والثاني رفيقه في الغرفة فايت محتال أو كذا، يتعلم طريقة الشيكات من رفيقه. رأيي أن السجن لا يفيد بل العكس إن من خرجوا يزيدون سوءاً. يتعلمون أشياء لا يعرفونها؛ هناك ٢٤ سجيناً قاعدين مع بعض والشخص لا يزيح عن الثاني، باستطاعته أن يبرمج له رأسه كما يريد. أهم المشاكل انعدام المكتبة في السجن. لو أن هناك مكتبة في السجن، كان يقعد عندها الواحد يضع رأسه في الكتاب ويقرأ».

السيد «ط» (مقابلة ٩) يقول: «عندما أخرج من السجن سوف أترك البلد، أريد أن أهاجر. سوف أبيع بيتي وأسافر، مش ضروري إلى كندا، إلى كمبوديا. السجن علمني أن أحب نفسي. لم أكن أحبها من قبل. ليس معنى ذلك أنني سوف أحب نفسي عن عائلتي، يجب أن أحب ولدي أيضاً ولا يجب أن أضرّ بنفسي من أجل ولدي كي أظل واقفاً أمامه. هذا ما علمني إياه السجن. أما عن السجن فهو مدرسة

الغلطانين، صحيح أنني كنت أبيع الهيروين لكنني لم أكن أفهم كيف يضربونه أو كيف يعملوه أو كيف يفصلوا (تعابير تقنية في صناعة المخدرات). هنا كل الأحاديث أيضاً مثل السلب والاحتيال والشيكات، هنا يتم تعلمها وليس في الخارج. لذلك سوف أترك البلد، أبقى يومين وأدبر بيع أغراضي وآخذ زوجتي وإبني وإبنتي، أضعهم في أول طيارة مهما كانت وأطلع. أنا آسف لكنني أريد أن أبيع جنسيتي لأنني تعبت. لم يساعدني أحد، أذكر لك كل أسماء الجمعيات ولم تساعدني إحداها. أنا أرى أن الوضع يتحسن إذا ما ضبطوا الوضع الاجتماعي، البلد ليس بحاجة إلى بوليس، بحاجة إلى تحسين الوضع الاجتماعي».

السيد «ي» (مقابلة ١١) فاجأني بالقول: «أخاف أن أخرج من السجن. أفضّل حالياً أن أكون في السجن. أخاف من الطلعة الآن وأفكر دائماً في الليل، طيب إذا خرجت وأنا غير متمكن؟ أخاف، لأننا نحتاج مصروفاً كبيراً في الخارج. وأنا غير متمكن فكرياً». أما عن رأيه بالتحسينات الممكنة في السجن، فهو يرى «أن وجود مكتبة ومساعدة السجناء على القراءة ومحو الأمية، لأن هناك الكثير من الأميين، يكون أفضل. أما السجن فهو عذاب الأهل، هم من يتعذبون وليس أنا. كذلك يجب تسليم السجن إلى إدارة مدنية، تصبح معاملة السجين أفضل، لا تعود عسكرية. أتمنى كذلك لو أنهم يعلمونا مصلحة كي نتمكن من العمل في ما بعد. أما عن المستقبل فقد أذهب مثلاً إلى العراق أو إيران، أعرف بعض الناس، أقدم طلباً عن طريقهم. أذهب إلى أي دولة إسلامية».

السيد «ج» (مقابلة ١٤) يقول: «لم أستفد من السجن، لم أستفد. فقط أخذت فكرة عن العالم، عن الحياة والدنيا وعن البشر. رأيت من يدخل السجن أربع مرات أو أكثر، ورأيت من دعوته السلب أو المخدرات أو القتل أو التشليح أو الاغتصاب. يمرّ علينا دعاوى كثيرة. عاشرت في السجن الكثير من الشباب، آخر شي شفت أن السجن مثل برّا يعني. يعني تعاشر في الخارج فتجد أنه عن غاية ومصلحة. ما يضايقني في السجن بعض القرارات، يعني يجب أن نتطور قليلاً. لا يوجد سجن واحد اليوم نرتاح فيه. يعني يتعاقب الواحد ٣ مرات وليس مرة واحدة، يعاقبون أهله أكثر مما يعاقبونه هو، يعني مثل نقلي من السجن القريب

لأهلي إلى هذا السجن. كذلك خرق الدرك لقوانين السجن (أنظر التوسيع في الفقرة المتعلقة بالتهمة). لا يوجد دولة إلا على المعترين، على الصغار. نتمنى أن يكون هناك دولة لأننا انحرمنا من رؤية أراض لبنانية كثيرة لم نذهب لزيارتها. نريد دولة كي تنفذ وترى حقوق الإنسان ومطاليب الإنسان. خلصنا من الحرب».

القسم الثاني

إنشاء الاختلاف
أو
الخلفية الاجتماعية للسجناء



من اللغة المتبلورة إلى الحركة المتدهورة

دخل العديد من السجناء السجن على أثر مشكلة حصلت أو تعارك أو تلاسن تحول إلى عراك (أنظر مقابلة السجين الرقم ١٤ الذي قتل شخصاً إثر عراك ويسمى هذا النوع من الجرائم: قتل إثر حادث فوري). ما يجعلنا نتساءل عن سبب تحول عراك إلى جريمة قتل وسبب تحول محاولة تفاهم إلى مشكلة وتعارك بالأيدي ويستدعي تدخل المخفر في الحالات غير شديدة الخطورة.

عاينت حديثاً كيف يتم تدهور العلاقات فينمسخ الحوار عراكاً والكلمات حركات متدافعة. وكيف يعجز اللسان عن متابعة فكرة، وكيف يعجز العقل (أو بالأحرى الدماغ كعضو بيولوجي) عن ابتكار الأفكار، فيروح يبتكر الحركات، أو يمسخ الأفكار حركات هجومية عدوانية.

دارت الحادثة في أحد المرائب الصغيرة المخصصة لبيع السيارات المستعملة والتي فرخت كالفطر في لبنان بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها. تم الاتفاق في مرة أولى بين فريقين على إصلاح مكيف سيارة مستعملة أو استرجاع ثمنها، نظراً لاخلال البائع بالاتفاق الذي تم من قبله في ما يتعلق بشروط البيع الشفهية. في مرة ثانية ادعى الطرف البائع أنه باع السيارة وخسر من ثمنها كذا من المال ويود استرجاعه من الطرف المشتري صاحب الاعتراض. حاول هذا الطرف الاستفهام: والاتفاق الذي تم بيننا؟ بدا على الطرف البائع التوتر ولم يستطع الكلام بشكل هادئ وطبيعي، وسرعان ما رفع وتيرة صوته فجأة وكأن الكلمات المناسبة لنبرة رفع الصوت لم تسعفه فما كان منه إلا أن رفع يده، ليتحول الحوار، قبل أن يبدأ، إلى مجرد كلمات فجة ومقاتلة. رفع الطرف الثاني صوته وسرعان ما اشتبكت الأيدي وبدأ التدافع...

هذا مشهد مألوف، من منا لم يعاينه مراراً! وعندما يرى ذلك يتعد

كي لا يتعرض لمهانة ما. وهو إذ يقتصر على العراك والذهاب إلى المخفر في أحيان كثيرة شائعة عندما يطال الفئات العادية من الناس، إلا أنه قد يؤدي إلى القبر أو المستشفى عندما لا تسعف الأفكار أو الكلمات الطرف الذي يعد نفسه متأذياً من الكتابة أو الكلمات، مثلما حصل مع نجيب محفوظ مثلاً أو فرج فودة أو الطاهر جعوط...

إنه السياق نفسه، الحركة العدوانية أو القاتلة، مقابل كلام شفهي أو مكتوب. إنه السياق نفسه في الحالين: استبدال الكلام والحوار بالحركات الهوجاء العشوائية، العدوانية والمميتة، قطع الاتصال والتواصل واللجوء إلى التفريغ الحركي.

في الوضعية التي عاينتها، كان يلزم الكثير من قدرة السيطرة على الذات ومراقبتها من مراقب محايد كي يصبح بالإمكان محاولة السيطرة على الوضعية نفسها. إذ يتوجب إيجاد الكلمات التي تقرب الأفكار أو التي تعيدها إلى الوجود، بعد أن تكون غرقت في لجة النشاط النزوي الانفعالي البدائي لعمق الدماغ الاثري الموجود في كل منا. ويتوجب أيضاً الإتيان بالحركات المناسبة التي تبعد الأجساد عن بعضها البعض دون أن تثير عدوانيتها وهياجها، أو بالأحرى تزيده. ما السبب في ذلك؟ لم يمتنع الكلام فجأة وينمسخ حركات عنيفة وعشوائية؟ لم يمتنع الحوار؟ لم تثير الكلمة حركة عدوانية بدل كلمة متبلورة؟ هل يتعلق الأمر بالتراتب الاجتماعي المكون بشكل أساسي من قطبين اثنين: أحدهما يتكوّن من الحرفيين أو العمال اليدويين وما يقرب منهم، والقطب الثاني يتكوّن ممن يُدعون «الأساتذة» أي الذين يتكلمون أو يكتبون. أي قطب الذين يعملون بأيديهم، وقطب الذين يعملون بوجههم أو بالأحرى بلسانهم وأفكارهم؟

ما العلاقة بين اللغة والواقع؟

تعد اللغة المتمفصلة المتبلورة إحدى مميزات الإنسانية. ولقد انشغل العديد من المقتربات بتحديد التأثيرات المتبادلة بين البنية الاجتماعية والبنية اللغوية والبنية الذهنية: إلى أي حد تنعكس الممارسات الاجتماعية على الممارسات اللغوية؟ وكيف تحدد هذه الممارسات اللغوية نفسها أنماط الفكر وتعود تؤثر مجدداً على الممارسات الاجتماعية؟ تشكل اللغة بالنسبة الى البعض، بمظهرها الداخلي، القالب الذي تأتي الفكرة لتصب فيه. فالبشر

لا يعيشون فقط في عالم «موضوعي» واحد بل إنهم مشرّطون باللغة بشكل كبير. وليس من الدقة الاعتقاد أنه بإمكاننا التكيف مع الواقع دون وساطة اللغة؛ وأن هذه ليست سوى وسيلة إضافية لحل مشاكل عينية للاتصال أو التفكير. في الواقع ينبني العالم «الواقعي» بجزء كبير، وبشكل لا واعٍ، على عادات اللغة الخاصة بالجماعة. وطريقة استقبالنا لشهادة حواسنا من بصر وسمع؛ محددة وبنسبة لا بأس بها بعاداتنا اللغوية المتعلقة بالبيئة التي نعيش فيها. وهذا ما يهيئنا لبعض أنماط من التأويل، ولنأخذ اللون كمثل، فعندما لا أمتلك اسماء متمايزة دقيقة للون لا أستطيع تسميته بالتالي، أي لا تكون عندي فكرة متميزة وخاصة عنه.

تختلط اللغة والعادات الذهنية معاً وتتطوران سوياً. يؤكد البعض من خلال تجاربه أن أنماط التعلم تحدد البنى الذهنية لالتماس هذا الواقع أو ذاك، أي أن الواقع يتعلق عندها بأنماط التعلم الذي يخضع له. وبشكل عام هناك ناس الكلام مقابل ناس الحركة. ومن الملاحظ أنه في كل مرة يصبح فيها الاتصال غير وافٍ بالغرض يتم اللجوء إلى السلوك الحركي. فاللغة تتوسط العلاقات بين الإنسان والعالم وهي تشكل من هذا المنظور الامتداد والتعبير الرمزيين للفعل.

إن سيستام العلائق والمحصلات الاجتماعية هو الذي يحدد تأشيراً معيناً للكلام دون سواه، والشكل الخاص الذي تتخذه هذه العلائق الاجتماعية تشرط خيار ما يقال وما لا يقال، واللحظة التي يقال فيها والطريقة كذلك. لذلك هناك الآن في مجتمعاتنا الحالية شكلان من الإشارات أو لغتان مختلفتان تبعاً لقطبي التراتبية الاجتماعية. يتمّ تكوّن هاتين اللغتين منذ الطفولة. فالخطاب يؤطر مجموع المثيرات التي يتأقلم معها الطفل، وفي كل مرة يتكلم فيها هذا الأخير يكون يعبر عن درجة تكيفه مع نموذج إجتماعي محدد. وهكذا تحمل اللغة الاتصال وتشرط السلوك (بالمعنى البافلوفي). لذلك نلاحظ نمطين لغويين: اللغة المتبلورة واللغة المنكمشة.

في نمط اللغة المتبلورة يتم صد التعبير المباشر عن العاطفة وصد السلوك النزوي. يلاحظ ذلك لدى الفئات الاجتماعية العليا حيث هناك ميل ضعيف للجوء إلى الفعل. فالسلوك النزوي الحركي يستبدل تقريباً بالكلام، وتخضع الحركة لهذا الأخير: الخطاب عندها يفتح طريقاً جديداً لضبط السلوك.

تتمايز المشاعر العاطفية هكذا، إذ تربطها اللغة بمروحة واسعة من المرجعيات، يبرز عندها الميل إلى التعبير عن معاناتنا بالمشافهة وتبرز حساسية جديدة تجاه دوافعنا الذاتية وخاصية فهم دوافع الآخر أيضاً، ويخفض هذا عتبة الإحساس بالذنب، ويجعلنا نشعر به عند أقل معاناة. ذلك ما يشجع نمطاً من العلاقات المرمزة والتي تتوسل الخطاب أسلوباً.

لكن في أصل تكوّن اللغة المنكمشة، تنتظم اللغة بين الأم وطفلها بحسب نظام مختلف عما هو عليه في الفئات الاجتماعية العليا، ويتم التعبير عن الانطباعات الشخصية بواسطة الرمز التعبيري المباشر: حركات إشارية، نبرات صوتية. أي أن المشافهة أو التعبير الشفهي والكلامي تحديداً يشغل حيزاً أقل أهمية، والبنية اللغوية المشغّلة هنا تختلف. أي أن النوايا الذاتية قليلة الإفصاح عن نفسها وقليلة الإدراك لذاتها وتظل دون مستوى التبلور الشفهي الكامل. هذا النوع من الاتصال يبالغ بالتجربة المباشرة للاستيعاب الشفهي، بدل التمايز الذهني والانفعالي المشرطين شفهياً.

ينتج عن ذلك أن تشكل البنية الأسرية عند الفئات الدنيا يتم بطريقة مختلفة. فبدل الأهداف البعيدة المدى والتي يتم التخطيط لبلوغها في الفئات العليا وعبر وسائل معينة تتم دراستها كي تؤدي إلى النجاح الأكيد. هناك مفاهيم أكثر عمومية وأكثر ضبابية وأكثر انفتاحاً على الاحتمالات المستقبلية غير الأكيدة عند الفئات الدنيا، بحيث غالباً ما يتم الاعتماد على الصدفة أو الحظ. لذلك تعطى هنا القيمة لكل ما هو آني. أما المؤجل فلا قيمة له. الانتظار والتأمل يجدان تعبيرهما في المستقبل المباشر والمنظور. والنقص أو المكافأة الحاليان هما مكافأة أو نقص مطلقان. لذلك لا معنى لتأجيل الاشباع المباشر من أجل الحصول على مكافأة افتراضية بعيدة (في المثل الذي أخذناه خسارة مالية بسيطة من أجل تدعيم سمعة تجارية مستقبلية أكيدة. وفي الحالة الأخرى اللجوء إلى الاغتيال بدل بناء خطاب بديل مقنع). تتميز مثل هذه الشخصية بعدم التكهن بنتائج أعمالها، تعيش في الحاضر والآني فقط.

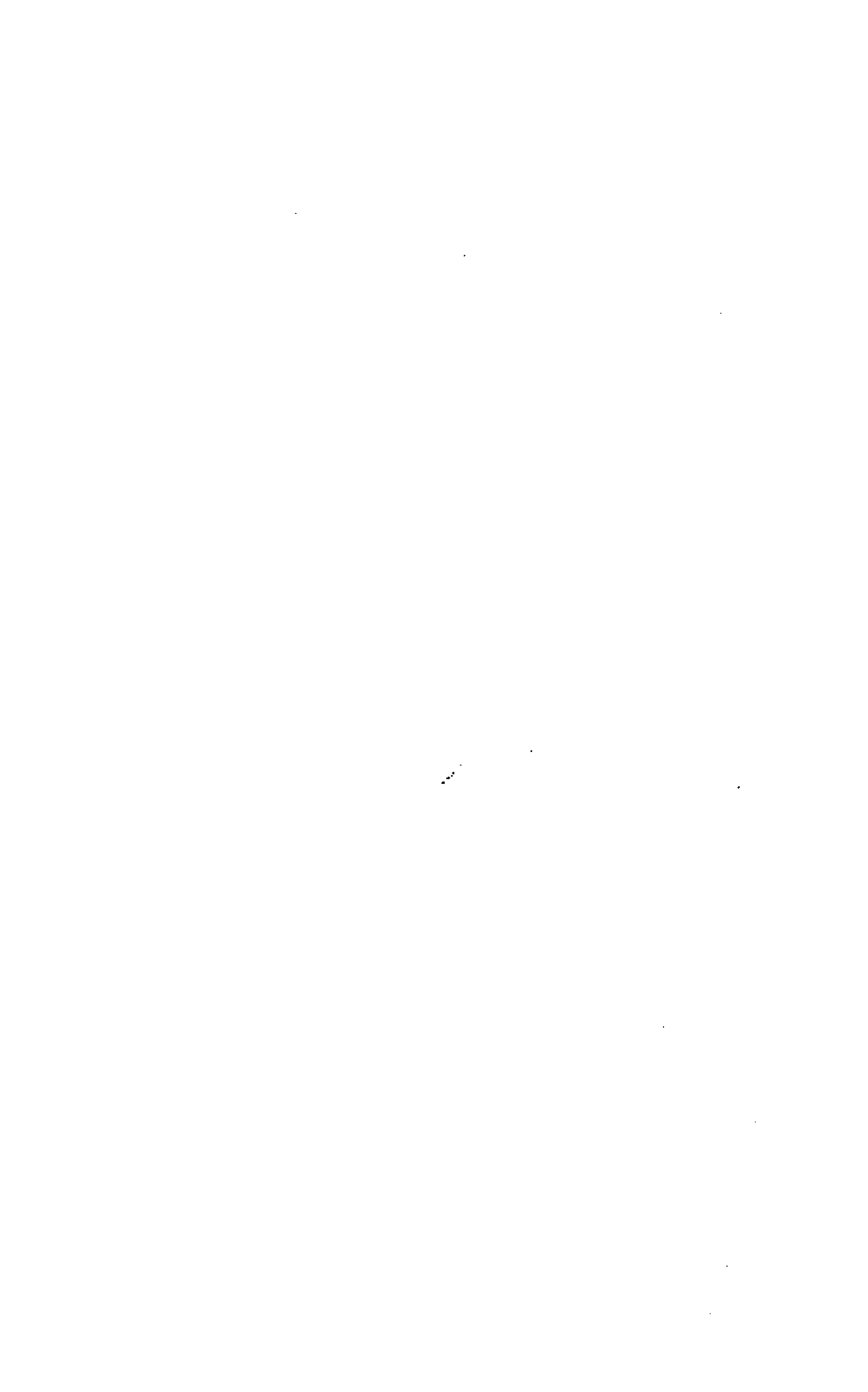
يطيع الطفل في هذه البيئة بسبب وجوب طاعة الشخص الذي أمامه بشكل مباشر وليس بسبب وجوب الطاعة كقاعدة عامة: «الأمر هكذا لأنني أقول لك هذا» يجيب البالغ الطفل. أي أن الوساطة تنتفي بين الشخص القابض على السلطة وعلى الشرعية وبين الطفل، أو بين الإرهابي

وبين المثقف. أي تنتفي القاعدة العامة المتوجب احترامها ويصبح الموضوع متعلقاً بأفراد يفرضون قانونهم او يصفّون حساباتهم الشخصية. تتخذ هذه العلاقة شكل علاقة عاطفية؛ لا يتدخل العقل التمييزي كوسيط. ويؤدي ذلك إلى وضعية يكون النزاع فيها بين الأشخاص مفتوحاً ولا تكتسب اللغة معناها بكيانها الرمزي نفسه بل هي تحتاج إلى الإشارة والحركة الإفصاح الأكيد. أما عند أصحاب اللغة المتبلورة فتمكن هذه اللغة من وضع الأشياء موضع تساؤل. مما يجعل صياغة مجموعة جديدة من التبريرات التفسيرية ممكناً بحيث يمكن توسيع مجموعة التبريرات التفسيرية الأصلية. في هذه الحالة يتوسط الخطاب العقلاني العلاقة مع السلطة، وهذه لا تعود شخصاً نقارعه، بل تصبح قاعدة عامة نحترمها أو لا.

من هنا يمكن فهم جملة مثل: كيف حدث أن تحول النقاش إلى عراك؟ ألم يكن ممكناً التفاهم بهدوء؟

إن افتقاد اللغة المتبلورة التي تسمح بالتعبير وتسمح لنا بالشعور بالذنب بعد القيام بالمحاسبة الذاتية ضمنياً، يجعل التعبير عن المعاناة يكتسب شكل الفعل المباشر والحركة العدوانية بدل الخطاب كوسيط.

هذا هو الفرق بين اليد والوجه والحركة والكلام الذي يعين نقطة الإنقطاع حيث الحركة تستبدل الكلام المنكسر، وتأتي لتمزق النسيج الاجتماعي المنبني بواسطة خطاب لم يتم التحادث معه، ينتج عن ذلك العراك والجريمة والاغتيال.



خصائص السجناء
عبر المعطيات الإحصائية

قانون العفو والشعور بالغبن

عودة إلى سؤالنا الأساسي: ما هو السبب الذي يؤدي بالفرد إلى السجن؟ وهل هناك من سبب واحد أو وحيد يشكل بوابة للسجن؟ هل هو استعداد نفسي أم هو الوضع الاجتماعي والاقتصادي السيّئ؟ أم أن الأمر يتطلب تضافر عوامل عدة وتوفر ظروف متشابكة مع تراكم أشياء صغيرة غير محسوسة تجعل من السجن المكان الذي لا مفر منه؟

تعرّفنا في القسم الأول الى بعض السجناء، الذين حاولت انتقاءهم بحيث يمثلون مختلف أنواع الفئات الاجتماعية، وأن يعطوا صورة عن أنواع التهم أو الجنح. حاولت أن ألتمس السجين ككائن إنساني وأن أستمع إلى شكواه وأتعرف إلى معاناته. كما حاولت اكتشاف الإنسان في أعماق الواحد منهم. الإنسان الذي يعاني، يقول الصدق في الكثير من الأحيان أو يموّه الحقيقة لصالحه في أحيان أخرى. لكني ارتأيت أنه من الأفضل أيضاً التعرف اليهم من ضمن الشروط السوسيولوجية التي تميزهم، في محاولة لالتقاط خصوصياتهم ومدى تقاربهم من الصفات التي تميز متوسطات الشروط الاجتماعية السائدة في المجتمع.

يهدف هذا القسم إلى إظهار تأثير الظروف الاجتماعية على السلوك الجانح بشكل عام، بعد أن حاولنا التعرف الى شخصية السجين والسياق الخاص الذي تطورت فيه هذه الشخصية على المستوى الحياتي الخاص والأسري والثقافي. وذلك بالطبع في الوضعية العامة التي عرفها لبنان والتي شكلت الحرب خلفيتها بشكل خاص.

قد يمكنني الاستنتاج بعد عرض القسم الاول أن الجريمة (بمعنى الجنحة والجناية) ليست نوعاً مختلفاً عن السلوك اليومي في غالب الأحيان. إذ تبدو بعد الاحتكاك بالجانحين أو السجناء، كتراكم بطيء لسلوكيات

يومية صغيرة ومتفرقة تساهم تقاطعات معينة في إيصالها إلى نقطة اللاإستعادة. إنها نتيجة للتفاعل بين كائن إنساني وبين محيطه في شروط وظروف اجتماعية معينة، تجعل من السلوك الذي كان يبدو مقبولاً من ضمن حدود معينة ينقلب فجأة ويصبح جنحة تفترض العقاب. كما تجب الإشارة هنا إلى أن من نقابلهم في السجن هم من تعرضوا للانكشاف، وأن الكثير ممن يشبهونهم لا يزالون خارجه. لذا يجدر ألاّ يغيب عن أذهاننا، في هذا السياق، إلى أن نظرة المجتمع للجنحة أو للجريمة هو الذي يجعلها كذلك، وأن الجانح يظل بريئاً تجاه الآخرين ويعامل على أنه كذلك ما دام أن أمره لم ينكشف. كما أن للسياق الذي تحصل فيه الجنحة أهمية كبيرة بحيث يمكن اعتبارها جنحة قانونية أم مجرد مخالفة بسيطة قد نتسامح تجاهها إذا لم تتكرر أو تتفاقم. فأن يسرق المراهق من بستان جاره بعض الفاكهة لا يمثل الجرم نفسه فيما لو سرق معادلها من النقود من متجر. وأن يسرق ولد بيضاً من قن دجاج لا يتماثل مع سرقته للبيض نفسه من سوبر ماركت. كذلك أن يسرق أحدهم في الحرب يعدّ أحياناً عملاً مشرفاً ويحصل من جرائه على «غنيمة» ذات طابع قدسي، بينما السرقة نفسها تعتبر جنحة خارج إطار الحرب، أو لو أنها حصلت من ضمن الجماعة نفسها التي ينتمي إليها السارق (أنظر الصفحة ١٢٥ حول طقوس السرقة وتقنياتها).

إن القوانين النفسية، حتى الأكثر عمومية منها تكون خاصة بمرحلة معينة من مراحل الإنسانية[1].

لذلك كله اعتقدت أنه من المهم معرفة «بروفيل» السجناء الذين وجدوا في السجن في مرحلة بدايات ما بعد الحرب اللبنانية، ومدى ارتباط ما آلوا ليه بالشروط الاجتماعية التي ساهمت الحرب بتحديدها وتأطيرها. أذكر نا دهشة حدث قابلته في الإصلاحية بعد سنة من سجنه بتهمة السرقة حين ال: «إن أهلي لم يسألوني من قبل من أين كنت آتي بتلك الاشياء!».

يبرز هذا فكرة أن القصاص هو الذي يحدد الجريمة، أي أن العمل هو جرامي لأننا ننظر إليه على أنه كذلك وأنه يسيء إلى الضمير العام وليس مكس، أي أنه يسيء إلى الضمير العام لأنه إجرامي.

---

(1) Aries, Ph. Duby, G: (sous direction) *Histoire de la vie privée,* 5 tomes, Seuil, Paris, 1985-1987.

هذا بالإضافة إلى أن العقاب لا يخدم في إصلاح المذنب (كما أجمع على ذلك معظم السجناء، وكما تجمع عليه معظم الدراسات). العقاب يحاول تدجين المذنب فقط، ويهدف أساساً إلى الحفاظ على التلاحم الاجتماعي وعلى حيوية الضمير العام. من هنا كان التفريق بين الجرائم الفردية والجرائم الحزبية أو التي تحضل بأمر حزبي. فعقاب الممثلين للجماعات الحزبية أو الطائفية قد يسيء إلى التلاحم الاجتماعي الهش أصلاً، أو أنه يسيء إلى التوازن السياسي الأكثر هشاشة. نعطي مثالاً على ذلك إعدام الطراف في بداية الثمانينات (في العام ١٩٨٣) بتهمة قتل امرأة مسنة وإبنها والقيام بتقطيعهما[1]. بينما كان تقطيع الجثث من الجرائم الشائعة خلال الحرب ولم يعاقب الذين قاموا بها. يندرج في هذا السياق أيضاً إعدام الشاب الذي اغتصب طفلة في العام ١٩٩٤، وكل سلسلة الإعدامات التي ما زالت تتوالى منذ ذلك الحين. بينما يتم تجنب عقاب الممثلين لجماعات حزبية أو طائفية اذ ينظر إليه كمسيء أحياناً إلى التلاحم السياسي أو الاجتماعي فيصار إلى استبعاده. وهوعندما يتم قد يستخدم لعقاب فئة معينة أو طائفة معينة كما هي الحال في محاكمة سمير جعجع.

طال قانون العفو في لبنان مرتكبي المجازر بحق الآمنين والذين كانوا مندرجين في أواليات العصاب الجماعي على شكل ميليشيات. بينما منع هذا العفو عن بقية الأفراد أو عن الذين اعتدوا على أمن السفارات مثلاً. فهل في ذلك عقاب لأولئك على عدم انتمائهم إلى ممثلي هذا العصاب الجماعي! وهل يسمح بالاعتداء على اللبنانيين فقط مثلاً؟

لا أدعي معرفة أوالية تساهم بتحقيق العدالة. فالعدالة مفهوم مطلق لا أدري مدى إمكانية التوصل إليه. لكن صدور قانون العفو الذي استفاد منه كل مرتكبي الجرائم قبل تاريخ ٢٨ آذار (مارس) ١٩٩١، ولأسباب سياسية كما هو معلوم، طال مجرمين محترفين وأبعد المشنقة، في حينه، عن رقاب ٦٢ محكوماً بالإعدام على رغم اعترافاتهم الصريحة.

ثم إن آخر قانون للعفو عن متاجري المخدرات أثار أيضاً الشعور نفسه بالظلم وبنسبية العدالة واستنسابيتها! ذلك يعني إطلاق سراح تاجر مخدرات وسجن من دخل خلسة إلى البلاد مثلاً! سبق لي أن كتبت في

---

(١) سلامة، يوسف: جريمة في البيت، دار نلسن، بيروت، ١٩٩٤.

١٩٩٣/٨/٣١ (الحياة) وبعد زيارتي الاولى للسجن ولقاء بعض المساجين ومعظمهم كانوا من الأحداث، ما يلي:

«من خلال زياراتي إلى السجن لاحظت شيوع مشاعر اللاعدالة والإحساس بالظلم والمرارة بين السجناء. يستغربون حجز حريتهم وعقابهم بينما كل منهم يعرف الكثير ممن قاموا باعتداءات تفوق ما ارتكبوه وأصحابها يتمتعون بحريتهم. إن هذه المشاعر تجعل من أصحابها أفراداً لا يمكن السيطرة عليهم عندما يطبق القانون عليهم فقط دون الآخرين. يجعلهم إحساسهم بالظلم يطلبون الانتقام».

وهذا ما أوصل الامور على كل حال إلى ما عرف بالانتفاضة في سجن رومية في شتاء عام ١٩٩٨، (انظر فصل أمكنة تضيق بأهلها).

فما هي خصوصيات سجناء سجن بيروت؟

الإنتماء إلى ميليشيا

إن نظرة إلى نتائج العمل الإحصائي الذي أجريته في السجن يظهر أن عدد المنتمين إلى الميليشيات من السجناء هو ٢٩,٥٪:

الجدول رقم ١:
السجين كان في الميليشيا سابقاً

الإجابة	التكرار	النسبة المئوية
نعم	٧٤	٢٩,٥
لا	١٧٧	٧٠,٥
المجموع	٢٥١	١٠٠,٠

بالطبع لا يمكنني الجزم أن الأجوبة التي حصلت عليها دقيقة ومطلقة، إذ كما سبق وأشرت هناك من يشعر بالفخر من انتمائه الحزبي ويستعرضه من دون خوف، وهناك من يشعر بالحرج من جراء ذلك. لكن هذه الأرقام تبقى صالحة في الإطار العام لأنها تعطينا فكرة كافية على أن معظم السجناء غير حزبيين وغير ميليشيويين، وأن المسجون الميليشيوي بينهم هو من قام بجريمة مهمة أو من تعرض لعملية انتقام (تم استنتاج ذلك من

خلال دراستي لسير السجناء الشخصية). يمكن أن نستنتج مما سبق أن السجناء هم في غالبيتهم من المخالفين العاديين والذين ينطبق عليهم التحليل السابق أعلاه.

السجين السابق

عندما توجهت بسؤال السجين هل سبق له وسجن؟ أجابني بعض السجناء بالإيجاب، وبعضهم عاد ونفى ذلك بعد أن فكر في الأمر. إن هذا السؤال هو من نوع الاسئلة التي ينبغي البحث عن إجابة موضوعية لها بواسطة العودة إلى ملفات المحاكم وأخذ عينة ومتابعتها للتأكد من النسبة الصحيحة إحصائياً للسجناء الذين يتكرر سجنهم، مع ذلك سوف أورد النسب التي حصلت عليها من سؤالي، عالمة تمام العلم أنها غير دقيقة لأن لا شيء يجبر السجين على الإجابة الصحيحة وهو يتبع في إجابته مزاجه أو هواجسه. ونجد أن نسبة ١٨,٦٪ من السجناء يسجنون للمرة الثانية.

الجدول رقم ٢:
من سجن سابقاً

	نعم		لا		التكرار المجموع	
	التكرار	٪	التكرار	٪		
المجموع	٣٤	٪١٨,٦	١٤٩	٪٨١.٤	١٨٣	٪١٠٠

معدل الجرمية في لبنان ومقارنته مع الدول الأعضاء في المجلس الأوروبي

سوف نورد فيما يلي النسب المئوية لأعداد المسجونين في الدول الاعضاء في المجلس الأوروبي لكي نطلع على نسبة الجرمية فيها ونقارنه مع نسب المسجونين في لبنان واستنتاج نسبة الجرمية فيه أيضاً.

الجدول رقم ٣:[١]
أعداد المسجونين في الدول الأعضاء في المجلس الاوروبي
(في ١٩٨٣/٢/١)

	مجموع السجناء	نسبتهم لكل ١٠٠,٠٠٠ من السكان	نسبة الموقوفين ٪	نسبة النساء ٪	نسبة الاجانب ٪
المانيا الفيدرالية	٦٣٤٣١	١٠٢.٨	٢٨.١	٣.٧	٩.٤
النمسا	٨٧٤٨	١١٤.٠	٢٥.٩	٣.٨	٧.١
بلجيكا	٥٣٤٣	٥٣.٤	٣٧.٨	٤.٢	...
قبرص	١٥٦	٢٩.٧	٣.٨	٠.٧	١٧.٣
الدنمرك	٣٢٣٦	٦٣.٠	٢٨.٧	٤.٠	٣.٧
اسبانيا	٢٢٧٢٠	٥٩.٨	٤٧.٦	٢.٥	٩.٩
فرنسا	٣٧٦٤٩	٦٧.٨	٥١.٦	٣.٥	٢٥.٧
اليونان	٣٣٠٠	٣٥.٠	٣١.٨	٣.٥	١٢.١
ايرلندا	١٢٨١	٣٧.٠	١١.٥	٣.٥	١.٤
ايسلندا	٨٣	٣٥.٣	١٢.٠	٣.٥	١.٢
ايطاليا	٣٦٥١٥	٦٤.٦	٧٦.٠	٣.٨	٨.٧
لوكسمبورغ	٢٨٧	٧٢.٠	٤٦.٧	٢.٤	٢٦.٨
مالطا	١٠١	٢٩.٠	٢٩.٧	٥.٠	٨.٩
النروج	٢٠٥١	٥١.٥	٢٧.١	٣.٣	٤.٩
البلدان المنخفضة	٣٩٠٠	٢٨.٠	٤٢.٣	٢.٦	٢١.٨
البرتغال	٥١٨٨	٥٣.٠	٣٢.٠	٣.٦	٥.٩
بريطانيا	٤٣٣٦٨	٨٧.٠	١٧.٥	٣.٠	٩.٧
السويد	٥٤٦١	٦٥.٠	١٩.٥	٣.٥	١٦.٥
سويسرا	٣٧٠٠	٥٨.٠	٣٢.٤	٣.٦	٢٥.٢
تركيا	...	...	...	...	...

(١) *Actes*: n° 45-46. Paris. 1984. p. 10.

إن أعداد السجناء المحسوبة بالنسبة لكل مائة ألف من السكان تتغير من ٢٨ لكل ١٠٠.٠٠٠ في البلدان المنخفضة الى ١١٤ لكل ١٠٠.٠٠٠ في النمسا. الملاحظة الاولى إن هذه النسبة تميل نحو الازدياد مع ازدياد أعداد السكان.

المجموعة أ: عدد السكان أقل من مليون. تكون نسبة المسجونين ضعيفة بشكل خاص (مالطا = ٢٩.٠؛ قبرص = ٢٩.٧؛ إيسلندا = ٣٥.٣). لا يشذ عن هذه القاعدة سوى اللوكسمبرغ مع نسبة ٧٢.٠ لكل ١٠٠.٠٠٠ مواطن.

المجموعة ب: تتراوح أعداد السكان بين مليون وخمسة ملايين. هذه البلدان لديها بشكل عام نسبة تتراوح بين ٣٥ و٦٥ لكل ١٠٠.٠٠٠ (اليونان = ٣٥.٠؛ إيرلندا = ٣٧.٠؛ النروج = ٥١.٥؛ البرتغال = ٥٣.٠؛ بلجيكا = ٥٣.٤؛ سويسرا = ٥٨.٠؛ الدنمرك = ٦٣.٠؛ السويد = ٦٥.٠). بلدان من هذه المجموعة يعرفان وضعية خاصة: البلدان المنخفضة مع نسبة مساجين ٢٨.٠ لكل ١٠٠,٠٠٠ مواطن في طرف، والنمسا في الطرف الآخر مع نسبة مساجين ١١٤ لكل ١٠٠,٠٠٠ مواطن.

المجموعة ج: تكون اعداد السكان أكثر من ١٥ مليون نسمة. لدى هذه البلدان نسبة تزيد عن ٥٩ لكل ١٠٠,٠٠٠ مواطن (إسبانيا = ٥٩.٨؛ إيطاليا = ٦٤.٦؛ فرنسا = ٦٧.٨؛ بريطانيا = ٨٧.٠؛ ألمانيا الاتحادية= ١٠٢.٨). تجدر الإشارة إلى أن النسبة لا تشير سوى إلى نسب المسجونين في لحظة معينة ويجدر القول إن لها فائدة إحصائية بحتة تسمح بالمقارنة. كذلك نلاحظ النسبة الضعيفة من النساء السجينات بشكل عام وهي تتراوح بين ٧,٠٪ في قبرص و٠,٥٪ في مالطا، للمفارقة: جزيرتان تحتويان النسبة الأكثر انخفاضاً للسجينات والاكثر إرتفاعاً!

إن متوسط عدد الموقوفين في البلدان الأوروبية هي ٣١,٦٪ وتصبح ٢٧,٩٪ إذا ما استبعدنا فرنسا وإيطاليا التي تشير المجلة إلى أن نسبة الموقوفين المرتفعة في كل من فرنسا ٥١.٦٪ وإيطاليا ٧٦.٠٪ تعود إلى صدور قوانين عفو طبقت على المحكومين في تلك اللحظة. كذلك يلاحظ انخفاض نسبة الموقوفين في البلدان المنخفضة: ١١.٥ ٪ (إيرلندا) و٢٨.٧٪ (الدنمرك).

تجدر الاشارة إلى أن هذه الأرقام لا تشير إلى متوسط مد التوقيف.

بلغ عدد السجناء في لبنان في العام ١٩٩٥ حوالى٣٧٥١ سجين موزعين بين سجين وموقوف. أظهرت الأحداث التي حصلت في سجن رومية في شهر نيسان من العام ١٩٩٨ أن عدد سجناء سجن رومية فقط، أو ما يعرف بالسجن المركزي، بلغ ٣٠٠٠ سجين، أكثر من نصفهم موقوف من دون محاكمة. ذلك يعني أن نسبة المواطنين المسجونين تنحو نحو الزيادة وهي بلغت في العام ١٩٩٥ نسبة ١٢٥ مسجوناً لكل ١٠٠,٠٠٠ مواطن إذا اعتبرنا أن سكان لبنان هم ٣ ملايين نسمة[1]. أما في العام ١٩٩٨ فقد بلغت أعدادهم حوالى الخمسة آلاف وربما أكثر بقليل (إذ إن نزلاء سجن رومية أو السجن المركزي بلغوا وحدهم ٣ آلاف سجين) ما يعني أن نسبتهم هي ١٦٦,٦ لكل ١٠٠,٠٠٠ مواطن؛ وهي نسبة تفوق النسبة التي تبلغها الفئة ج من البلدان الأوروبية بكثير؛ أي أنها تفوق أعلى نسبة موجودة في هذه الفئة وهي في ألمانيا الإتحادية وقد بلغت فيها ١٠٢,٨ بينما ينتمي لبنان بحسب أعداد سكانه إلى الفئة ب (من مليون إلى ١٥ مليون نسمة) وهو هنا يقترب من وضع النمسا التي لديها نسبة عالية من المساجين مقارنة بالفئة السكانية التي تنتمي اليها: الفئة ب.

لماذا نسبة المساجين مرتفعة إلى هذا الحد في لبنان؟ ربما هي الحرب وربما تعلق الأمر بأسباب أخرى؟

يتميز لبنان كذلك بارتفاع أعداد الموقوفين المتزايد والذي بلغت نسبتهم في السجن المركزي أكثر من ٥٠٪ بقليل (بحسب الأعداد التي ذكرتها الصحف عند حصول إنتفاضة سجن رومية، حيث بلغت أعداد المسجونين ٣ آلاف وأكثر من ١٥٠٠ منهم موقوفون).

---

(١) بحسب المعطيات الاحصائية للسكان والمساكن الذي قامت به وزارة الشؤون الاجتماعية عام ١٩٩٦.

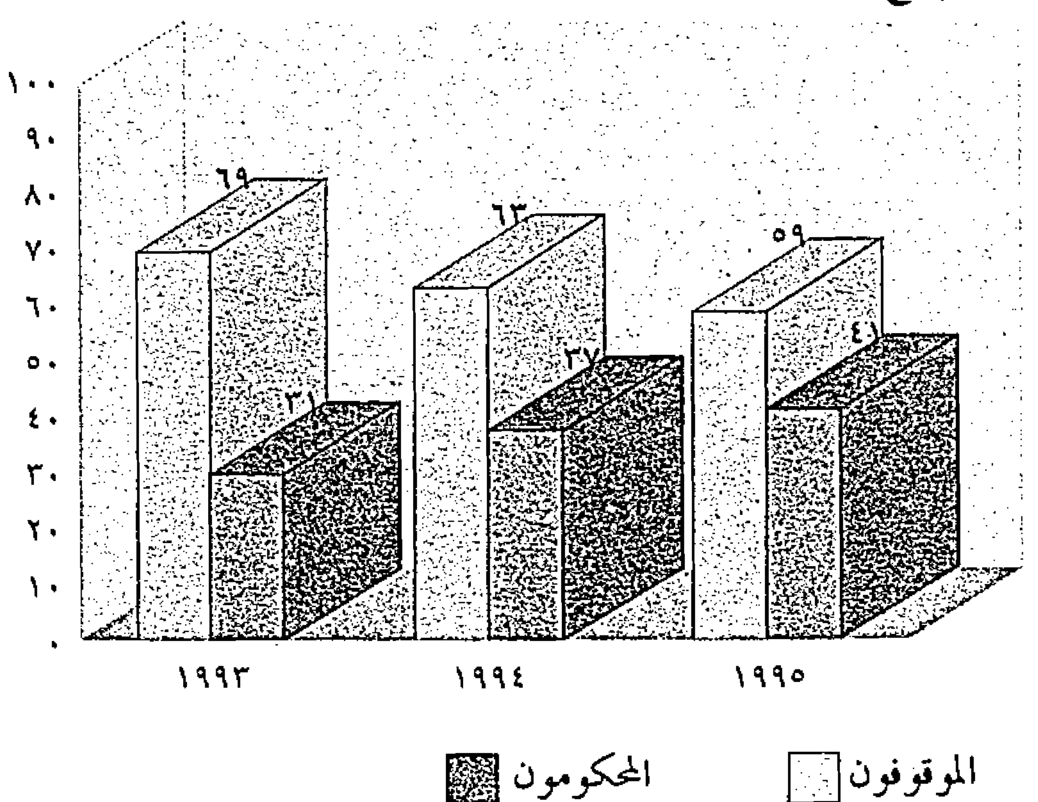
أعداد الموقوفين ومدة التوقيف

الجدول رقم ٤:

أعداد الموقوفين في السجون

السنة	مجموع السجناء	عدد الموقوفين	النسبة المئوية
١٩٩٣	٢٥١٠	١٧٣١	٪٦٨
١٩٩٤	٢٩٣٦	١٨٥٨	٪٦٣
١٩٩٥	٣٣١١	١٩٤٩	٪٥٨

توزيع نسبة الموقوفين والمحكومين خلال ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥



من الملفت أن نسبة أعداد الموقوفين تفوق نسبة أعداد المسجونين، وذلك لتكاثر أعدادهم وللنقص في أعداد القضاة وبطء عمل المحاكم لعدم استطاعتها تلبية الضغط المتكاثر عليها.

الجدول رقم ٥:
مدة التوقيف

مدة التوقيف	التكرار	النسبة المئوية	٪ التراكمية
أقل من ستة أشهر	٣٢	٢٣.٥	٢٣.٥
من ٧ إلى ١٢ شهراً	٢٩	٢١.٣	٤٤.٩
من ١٣ إلى ٢٤ شهراً	٥٠	٣٦.٨	٨١.٦
أكثر من ٢٤ شهراً	٢٥	١٨.٤	١٠٠.٠
المجموع	١٣٦	١٠٠	

تتميز مدة توقيف المتهمين بأنها طويلة في لبنان وهذا ما يظهره الجدول. إن ٢٣,٥٪ من السجناء تم توقيفهم لمدة ستة أشهر أو أقل، بينما ٧٦,٥٪ تم توقيفهم لأكثر من ٦ أشهر. هذا بينما نجد أن ٥٥٪ تم توقيفهم لأكثر من سنة، وهي نسب عالية جداً. يعود ذلك إلى الحرب الطويلة التي عطلت عمل الأجهزة القضائية والتي اعتادت على أعداد السجناء لما قبل الحرب (والتي قدرت بحوالى الألف سجين).

اكتظاظ السجون

الجدول رقم ٦:
إستيعاب السجون القانوني / الإستيعاب الأقصى

عام ١٩٩٣

السجن	الاستيعاب القانوني	الاستيعاب الاقصى	العدد الفعلي	الزيادة النسبية
السجن المركزي	٤٥٠	٦٨٤	٧٨٢	٪ ٧٣,٧
سجن طرابلس	٥٠٠	٦٠٠	٦٤٢	٪ ٢٨,٤
سجن صور	٥٠	٧٠	١٤٢	٪ ١٦٤
سجن زحلة	٥٠	٧٠	١٥٦	٪ ٢١٢

عام ١٩٩٤

السجن	الاستيعاب القانوني	الاستيعاب الاقصى	العدد الفعلي	الزيادة النسبية
السجن المركزي	٤٥٠	٨٠٠	٨٢٨	٨٤٪
سجن طرابلس	٥٠٠	٧٠٠	٦٩٣	٣٨٪
سجن صور	٥٠	١٨٠	١٥٩	٢١٨٪
سجن زحلة	٥٠	٢٤٠	١٨١	٢٦٢٪

عام ١٩٩٥

السجن	الاستيعاب القانوني	الاستيعاب الاقصى	العدد الفعلي	٪
السجن المركزي	٤٥٠	٨٠٠	٩٩٦	١٢١,٣٪
سجن طرابلس	٥٠٠	٧٥٠	٧٥٠	٥٠٪
سجن صور	٥٠	١٨٠	١٥١	٢٠٢٪
سجن زحلة	٥٠	٢٢٠	١٩٥	٢٩٠٪

من الملاحظ أن السجون هي نفسها تستوعب سنوياً أعداداً متزايدة من المسجونين دون أن تؤهّل أو أن يضاف اليها أي بناء. الأمر الذي يعني أن السجن الذي أعد لاستيعاب ٤٥٠ سجيناً قانونياً، مثل السجن المركزي أو ما يعرف بسجن رومية، تطور استيعابه وازداد حتى بلغ ٣٠٠٠ سجين في العام ١٩٩٨، أي بزيادة نسبية تبلغ ٥٦٦,٦٪. وتتراوح الزيادات كما لاحظنا من ٥٠٪ (سجن طرابلس مثلاً) إلى أكثر من ٥٠٠٪ (سجن رومية).

أنواع الجرائم التي ارتكبها المسجونون

تتوزع أنواع الجرائم التي ارتكبها المسجونون في سجن بيروت في شتاء ١٩٩٦ كالتالي:

الجدول رقم ٧:
توزيع الجرائم

الجريمة	التكرار	النسبة المؤية	٪التراكمية
محاولة قتل	٩	٣,٦	٣,٦
قتل	٢٣	٩,٢	١٢,٧
سرقة	٦٤	٢٥,٥	٣٨,٢
سرقة مع عنف	٣٣	١٣,١	٥١,٤
اغتصاب	٤	١,٦	٥٣,٠
دخول غير مشروع	٣	١,٢	٥٤,٢
تجارة مخدرات	٢٠	٨,٠	٦٢,٢
تعاطي مخدرات	١	٠,٤	٦٢,٥
تعاطي واتجار	١٨	٧,٢	٦٩,٧
تزوير أوراق	١٤	٥,٦	٧٥,٣
تزوير عملة	١٣	٥,٢	٨٠,٥
شيك دون رصيد	١٧	٦,٨	٨٧,٣
خطف	٢	٠,٨	٨٨,٠
ايذاء الآخرين	١	٠,٤	٨٨,٤
اشياء اخرى*	١٤	٥,٦	٩٤,٠
سرقة وتهم اخرى	٧	٢,٨	٩٦,٨
محاولة قتل وتهم اخرى	٤	١,٦	٩٨,٤
مخدرات وتهم اخرى	٤	١,٦	١٠٠,٠
المجموع	٢٥١	١٠٠,٠	

*) ان فقرة أشياء أخرى هي إجابات غير محددة من قبل أشخاص لا يزالون موقوفين.

ما يلفت في هذا الجدول وجود ٤ سجناء فقط بتهمة الاغتصاب مع أن الجرائم التي تسجل سنوياً في التقارير الأمنية تتعدى هذا الرقم بكثير، ففي العام ١٩٩٣ سجلت ٧٦ حالة إغتصاب[١]، أما في العام ١٩٩٦ فلقد سجل ٦٣ حالة[٢]. هذا دون أن نأخذ بعين الاعتبار أن الكثير من حالات الاغتصاب لا تسجل أصلاً وذلك لخوف النساء من التعرض للفضيحة، ولسوء معاملتهن في المخافر بشكل عام، إذ إن النظرة الاجتماعية السائدة تتهم المرأة بالتسبب باغتصابها[٣]. قد يعطينا هذا فكرة عن نسبة الجرائم أو الجنح المرتكبة وتلك التي تتعرض للعقاب الفعلي والمحاسبة القضائية. يعزز هذا الانطباع ان نسبة المتهمين بجناية القتل تبلغ فقط ٩,٢٪ ! وهي في معظمها جرائم قتل عادية او ذات طابع ثأري.

سوف نقوم الآن بتجميع الجرائم إلى فئات كبرى لما يلي:

الجدول رقم ٨:

الجرائم بحسب فئاتها الكبرى

الجريمة	التكرار	النسبة المئوية	٪ التراكمية
قتل ومحاولة قتل	٣٦	١٤,٣	١٤,٣
سرقة	٦٤	٢٥,٥	٣٩,٨
سرقة مع عنف	٤٠	١٥,٩	٥٥,٨
سرقة/مخدرات	٤٣	١٧,١	٧٢,٩
تزوير: عملة واوراق	٢٧	١٠,٨	٨٣,٧
شيك دون رصيد	١٧	٦,٨	٩٠,٤
مختلف	٢٤	٩,٦	١٠٠,٠
المجموع	٢٥١	١٠٠,٠	

(١) منى فياض: **ذاكرة لبنان ١٩٩٤**، معهد التوثيق والأبحاث اللبناني، ص١٢٢.
(٢) منى فياض: **ذاكرة لبنان ١٩٩٧**، ص ٥٥.
(٣) **ملحق النهار**: عدد ٢٧٦، السبت ١٩٩٧/٦/٢١.

تبين هذه اللائحة أن السرقة تأتي في الدرجة الأولى وهي تبلغ نسبة ٤١,٤ ٪ من مجموع الجرائم (يجمع هذا الرقم السرقة بدون عنف والسرقة مع عنف). التهمة التي تلي السرقة بالأهمية هي المخدرات ١٧,١٪ وهي تعبر عن المرحلة التي مر فيها لبنان (ولا يزال) في القضاء على تجارة المخدرات. تبلغ نسبة التزوير في الأوراق والشيكات من دون رصيد نسبة عالية من الجرائم وتبلغ ١٧,٦ ٪.

بلغت نسبة الجرائم ضد الأشخاص (قتل ومحاولة قتل، إغتصاب، تجارة مخدرات، إيذاء الآخرين) ١٨.٨٪ وهي نسبة ضعيفة لبلد خارج من حرب أهلية طويلة. بينما نجد ان الجرائم التي طالت الممتلكات أو الامور المادية تشكل النسبة الغالبة. تؤكد هذه الأرقام السياسة الغالبة وهي التسامح مع الميليشيات والجرائم التي تم ارتكابها أثناء الحرب والتي صدرت قوانين عفو لتناسيها.

أعدنا تشكيل الجرائم بحسب استخدامها للعنف أم لا، وتبين ما يلي:

الجدول رقم ٩:

جرائم مع عنف/جرائم بدون عنف

الجريمة	التكرار	النسبة المئوية
• جرائم مع عنف		
قتل أو محاولة قتل وسرقة مع استخدام عنف	٧٦	٤١.٥
• جرائم بدون عنف		
سرقة ـ مخدرات ـ شيك دون رصيد	١٠٧	٥٨.٥
المجموع	١٨٣	١٠٠
• جرائم لم تحكم بعد (موقوفون)	٦٨	
المجموع	٢٥١	

نلاحظ من هذا الجدول أن غالبية الجرائم التي سجن أصحابها وحوكموا تتكوّن من جرائم تمت من دون استخدام العنف. هذه من الملاحظات التي تتطلب التحليل أو التفسير بعد حرب اتسمت بعنفها الشديد، ويمكن عطفها على سياسة العفو المتبعة بشكل عام.

الجدول رقم ١٠:
مدة حكم السجناء

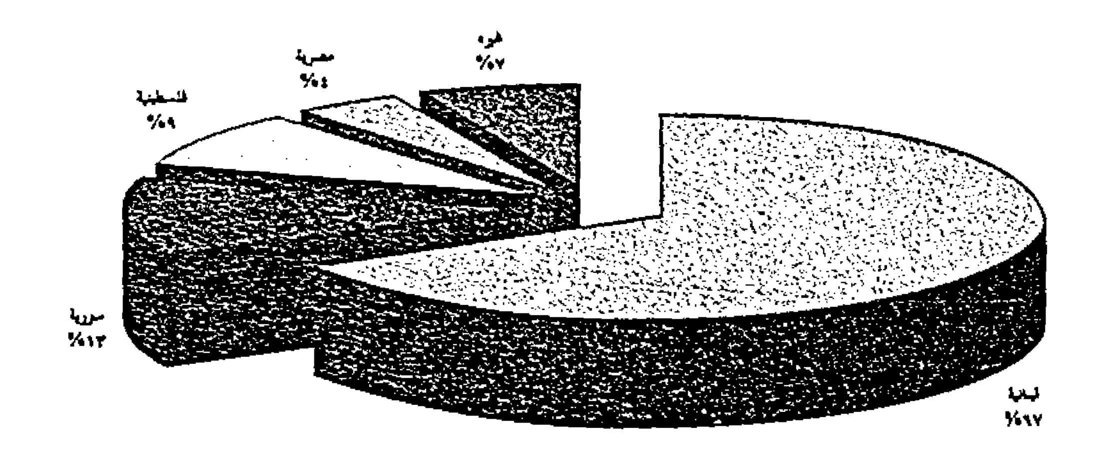
العدد بالاشهر	التكرار	النسبة المئوية التراكمية ٪
٦	٣٧	٣٧
٧ - ١٢	٦	٤٣
١٣ - ١٨	٦	٤٩
١٩ - ٢٤	٥	٥٤
٢٥ - ٣٠	٢	٥٦
٣١ - ٣٦	١٧	٧٣
٣٧ - ٤٢	٢	٧٥
٤٣ - ٤٨	٢	٧٧
٥٥ - ٦٠	١٥	٩٢
+ ٦٠	٨	١٠٠
المجموع	١٠٠	

نجد أن ٣٧٪ من السجناء حكم عليهم بالسجن لمدة ٦ أشهر، تليها نسبة ٧١٪ الذين حكم عليهم من ٣١ إلى ٣٦ شهراً (أي من سنتين ونصف إلى ثلاث سنوات)، ونسبة ١٥٪ حكم عليهم من ٥٥ إلى ٦٠ شهراً (أي أكثر من أربع سنوات ونصف).

الجدول رقم ١١:

توزيع السجناء بحسب الجنسية

الجنسية	التكرار	النسبة المئوية
لبناني	١٦٩	٦٧,٣
سوري	٣٢	١٢,٧
مصري	١١	٤,٤
فلسطيني	٢٢	٨,٨
مختلف	١٧	٦,٨
مجموع	٢٥١	١٠٠,٠



غالبية السجناء هم من اللبنانيين ٦٧,٣٪، تليها نسبة السجناء السوريين ١٢,٨٪ وهذا طبيعي نظراً لكثرة العمال السوريين العاملين في لبنان. أما نسبة السجناء الفلسطينيين ٨,٨٪ فهي أيضاً عادية نظراً لتقلّص أعداد الفلسطينيين في لبنان بعد رحيل منظمة التحرير الفلسطينية.

أما الجنسيات الأخرى، فهي خاصة من التابعية الهندية، يعود ذلك إلى تزايد أعدادهم وإلى ظروف معيشتهم الصعبة.

بمعنى آخر تبلغ نسبة السكان الأجانب (دون حساب الفلسطينيين نظراً لوضعهم الخاص ولأنهم يعدون من سكان هذا البلد الدائمين) ٢٣,٩٪، وهي نسبة عادية.

الجدول رقم ١٢:
توزيع السجناء بحسب المذهب

المذهب	التكرار	النسبة المئوية
سني	١٢١	٤٨,٢
شيعي	٩٨	٣٩,٠
درزي	١٨	٧,٢
ماروني	٢	٠,٨
كاثوليكي	١	٠,٤
ارثوذوكسي	٤	١,٦
مختلف	٦	٢,٤
المجموع	٢٥٠	٩٩,٦
لم يسجل مذهبه	١	٠,٤
المجموع	٢٥١	١٠٠,٠

من الملاحظ أن غالبية السجناء هم من الطائفة الإسلامية ونسبة ضئيلة جداً من الطائفة المسيحية. قد يكون من المبرر ان نحصل على مثل هذه النسب خاصة ان سجن بيروت يقع في قلب المنطقة الغربية من بيروت (بحسب تسميات الحرب) وذات الغالبية السنية، مما يفسر جزئياً النسبة الأعلى من السجناء السنة وهي ٤٨,٢ ونسبة ٣٩,٠ التي تليها من الشيعة. من الطبيعي عندها أن نجد نسبة عالية من السجناء المسيحيين في سجن رومية الذي يقع في قلب المنطقة المسيحية، لولا أنني لاحظت ميدانياً أن غالبية السجناء في السجن المركزي (سجن رومية) هم من المسلمين، لكنني لا أستطيع أن أجزم بذلك إذ إنني أفتقر إلى المعلومات الأكيدة في هذا الصدد (ويحتاج الأمر إلى دراسة يكون مركز اهتمامها هذه المسألة) وهي ليست سوى ملاحظة دعمتها النسبة العالية من المسلمين

بين الجانحين الذين عاينتهم في إصلاحية الفنار والتي بلغ توزيعهم في العا،
١٩٩٤ كالتالي: ٤٤ جانحاً مسلماً و٣ مسيحيين.

أثر التهجير وتغيير مكان السكن:

من الأمور التي حاولنا التقصي عنها أمكنة سكن السجناء، أي التقصي عن مكان ولادتهم وعن مكان إقامتهم. وذلك لمعرفة تأثير تغيير مكان السكن الدائم بسبب الظروف الطارئة والمتعلقة بتغير أنماط المعيشة من ناحية وتفضيل المواطنين السكن في المدن الكبرى، خاصة في مدينة بيروت وأثر ذلك على إضعاف وضعية الفرد؛ كذلك لا يجب أن نغفل هنا أثر الحرب الأهلية في تهجير المواطنين، خاصة من القرى الجنوبية الحدودية التي تتعرض للأعتداءات الاسرائيلية المستمرة.

الجدول رقم ١٣:
مكان السكن الدائم للسجين (أو مكان الولادة)

المكان	التكرار	النسبة المئوية	النسبة المئوية التراكمية
بيروت	٤١	١٦.٣	١٦.٥
جبل لبنان	١٩	٧.٦	٢٤.٢
الشمال	٨	٣.٢	٢٧.٤
الجنوب	٥٧	٢٢.٧	٥٠.٤
البقاع	٤٤	١٧.٥	٦٨.١
خارج لبنان	٧٩	٣١.٥	١٠٠.٠
ناقص	٣	١.٢	
المجموع	٢٥١	١٠٠.٠	

الجدول رقم ١٤:

مكان السكن الحالي للسجين

مكان السكن	التكرار	النسبة المئوية	النسبة المئوية التراكمية
بيروت	١٥٣	٦١,٠	٦١.٤
جبل لبنان	٢٧	١٠.٨	٧٢.٣
الشمال	٦	٢.٤	٧٤.٧
الجنوب	٣٠	١٢.٠	٨٦.٧
البقاع	٢١	٨.٤	٩٥.٢
خارج لبنان	١٢	٤.٨	١٠٠,٠
ناقص	٢	٠.٨	
المجموع	٢٥١	١٠٠.٠	

أول ما يلفت الانتباه في هذين الجدولين أن ٣, ١٦٪ من السجناء فقط أصولهم من بيروت، بينما نجد أن نسبة القاطنين فيها منهم تبلغ ٤, ٦١٪. بتعابير أخرى أن نسبة ١, ٤٥٪ تقريباً من السجناء القاطنين حالياً في بيروت هم من الذين تعرضوا لظروف أجبرتهم على تغيير مكان سكنهم الاصلي. وللتأكد من ذلك حصلت مقارنة توزيع أمكنة سكن السجناء مع متوسطات توزيع السكان في لبنان بحسب معطيات المسح الاحصائي.

الجدول رقم ١٥:
توزيع السكان في الأسر المعيشية اللبنانية
حسب العمر ومكان الاقامة الحالية والجنس*

المحافظة	التكرار	النسبة المئوية
بيروت وجبل لبنان*	٤٧٠٨٩١	٥٣,٨
الشمال	١٧١٠٤٠	١٩,٥
الجنوب	١٢٤٥٥٦	١٤,١
البقاع	١٠٨٠٨٢	١٢,٢

نلاحظ أن نسبة السجناء الذين يعيشون في بيروت وفي جبل لبنان هي أعلى في العينة منها في الواقع، إذ بلغت نسبتهم في العينة ٧٢,٣٪، بينما هم بحسب الاحصاءات الرسمية ٥٣,٨٪. بينما نلاحظ العكس بالنسبة للمحافظات الأخرى. إذ بلغت نسبة الذين يسكنون الجنوب في العينة ١٢,٠٪ وهي أقل بقليل من النسبة الرسمية للسكان والتي بلغت ١٤,٢٪. كذلك بلغت نسبة القاطنين في البقاع فعلياً ١٢,٣ وهي أكبر من نسبتهم في عينة السجناء والتي بلغت ٨,٤٪.

ذلك يعني أن نسبة السجناء الذين يغيرون أماكن سكنهم ويهجرون من الريف إلى المدينة تكون أعلى من المتوسط العادي للسكان:

(*) إحتسبت النسب بحسب المعطيات المأخوذة عن مسح المعطيات الاحصائية للسكان والمساكن الذي قامت به وزارة الشؤون الاجتماعية لعام ١٩٩٦، الأرقام متعلقة بالذكور فقط وبعمر ما فوق العشرين.

الجدول رقم ١٦:
جدول مقارن لمكان السكن الحالي / مكان السكن الدائم عند السجناء

	بيروت	جبل لبنان	الشمال	الجنوب	البقاع	خارج لبنان	المجموع
بيروت	٣٩ ٪٩٥,١ ٪١٥,٧	٢ ٪٤,٩ ٪٠,٨					٤١ ١٠٠,٠ ٪١٦,٥
جبل لبنان	٥ ٪٢٦,٣ ٪٢,٠	١٣ ٪٦٨,٤ ٪٥,٢				١ ٪٥,٣ ٪٠,٤	١٩ ١٠٠,٠ ٪٧,٧
الشمال	٣ ٪٣٧,٥ ٪١,٢		٥ ٪٦٢,٥ ٪٢,٠				٨ ١٠٠,٠ ٪٣,٢
الجنوب	٣٤ ٪٥٩,٦ ٪١٣,٧			٢١ ٪٣٦,٨ ٪٨,٥		٢ ٪٣,٥ ٪٠,٨	٥٧ ١٠٠,٠ ٪٢٣,٠
البقاع	٢١ ٪٤٧,٧ ٪٨,٥	٤ ٪٩.١ ٪١.٦			١٨ ٪٤٠,٩ ٪٧,٣	١ ٪٢,٣ ٪٠,٤	٤٤ ١٠٠,٠ ٪١٧,٧
خارج لبنان	٥١ ٪٦٤,٦ ٪٢٠,٦	٨ ٪١٠,١ ٪٣,٢	١ ٪١,٣ ٪٠,٤	٩ ٪١١,٤ ٪٣,٦	٣ ٪٣,٨ ٪١,٢	٧ ٪٨,٩ ٪٢,٨	٧٩ ١٠٠,٠ ٪٣١,٩
المجموع	١٥٣ ٪٦١,٧ ٪٦١,٧	٢٧ ٪١٠,٩ ٪١٠,٩	٦ ٪٢,٤ ٪٢,٤	٣٠ ٪١٢,١ ٪١٢,١	٢١ ٪٨,٥ ٪٨,٥	١١ ٪٤,٤ ٪٤,٤	٢٤٨ ١٠٠,٠ ٪ ١٠٠.٠ ٪

يظهر هذا الجدول توزيع السجناء بحسب أماكن سكنهم الحالية (قراءة الجدول بالعرض) وبحسب أماكن سكنهم الدائمة (قراءة الجدول بالطول)، إن جمع الأرقام التي شددت بالأسود يظهر أعداد السجناء الذين غيروا أماكن سكنهم، أي أنهم اضطروا للهجرة (خارج لبنان او من خارجه إلى الداخل) أو أنهم تعرضوا للتهجير، وهذا ينطبق على سكان الجنوب أكثر من غيرهم (٥٩,٦٪ من سكان الجنوب غيروا مكان سكنهم الأصلي). بلغ مجموع المساجين الذين تعرضوا لتغيير أماكن سكنهم الأصلية ١٥٢ سجيناً، أي ما معدله ٦١,٢٪ من مجموع المساجين. يمكن عندها اعتبار تغيير السكن والتهجير من العوامل المسببة للقيام بالجنح والجرائم.

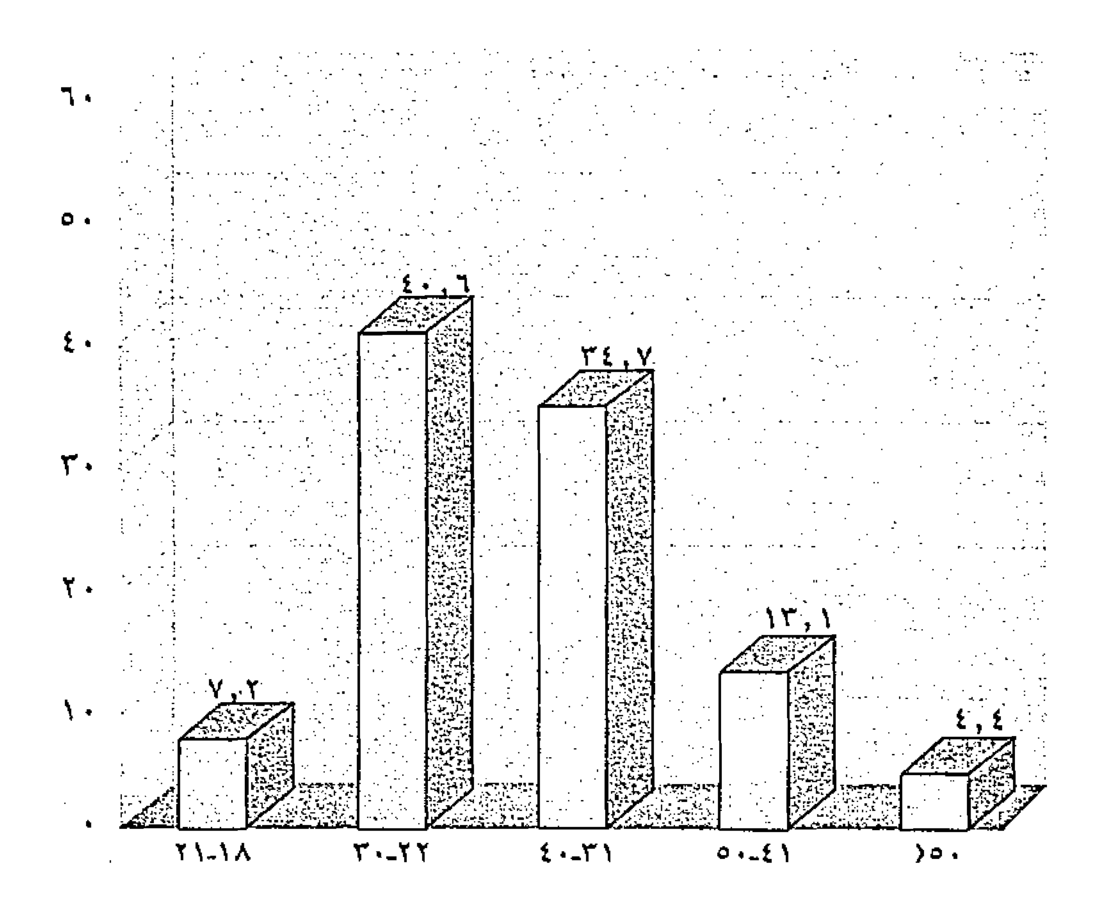
أعمار السجناء

الجدول رقم ١٧:

توزيع السجناء بحسب الأعمار

الفئة العمرية	التكرار	النسبة المئوية
١٨ - ٢١	١٨	٧,٢
٢٢ - ٣٠	١٠٢	٤٠,٦
٣١ - ٤٠	٨٧	٣٤,٧
٤١ - ٥٠	٣٣	١٣,١
أكبر من ٥٠	١١	٤,٤
المجموع	٢٥١	١٠٠,٠

توزيع اعمار السجناء



قسمت الأعمار إلى الفئات التالية:

- من ١٨ إلى ٢١ ، يعتبر قاموس لاروس أن سن ١٥ عاماً هي سن انتهاء الطفولة وبداية المراهقة ، أي أننا اعتبرنا فئة السن من ١٨ إلى ٢١ هي سن الخروج من المراهقة والمعتبرة كبداية لسن الرشد ، وهي الفترة التي يصبح فيها الفرد أكثر مسؤولية عن أعماله .

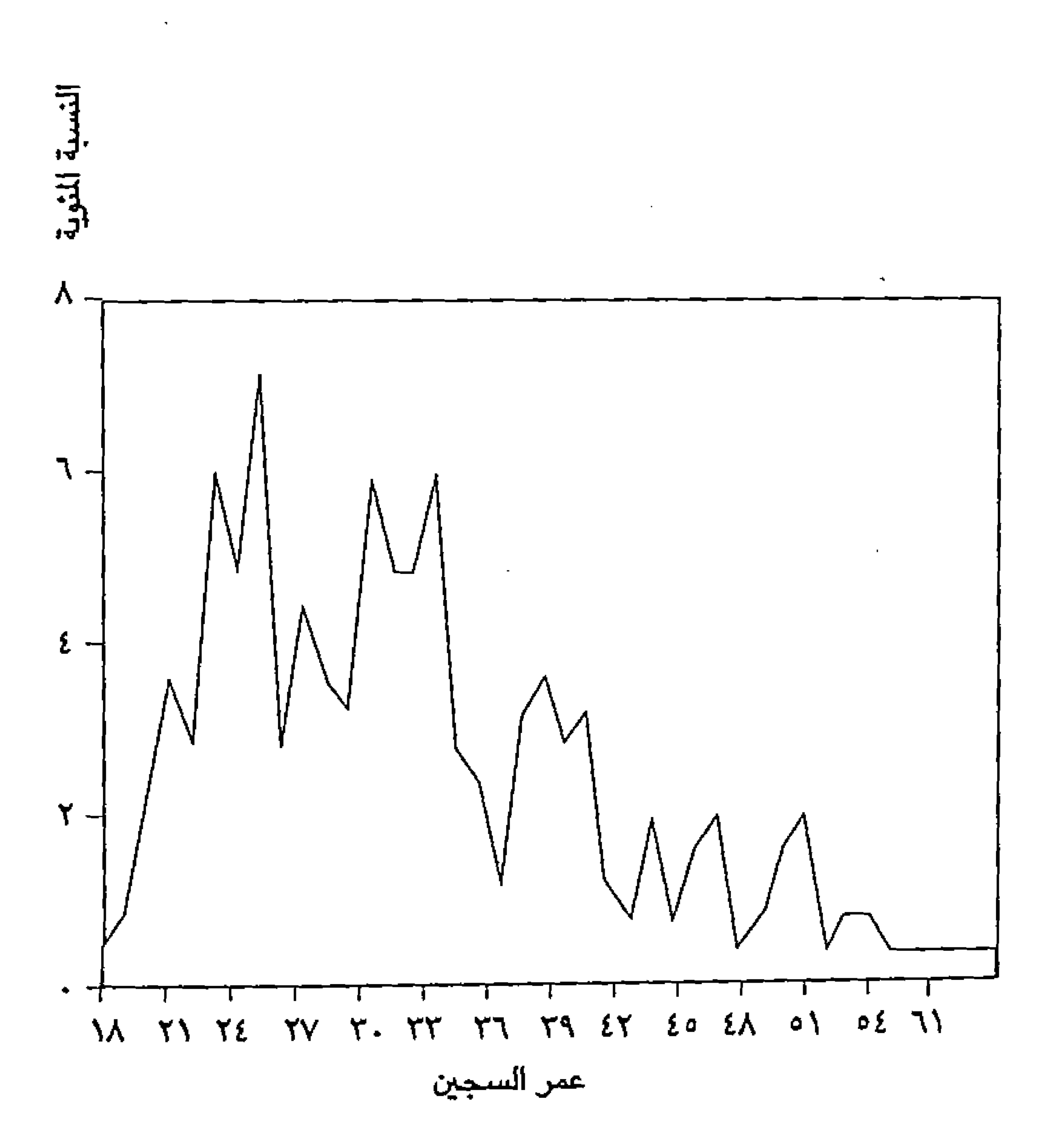
- من ٢٢ إلى ٣٠ وهي فترة الشباب حيث يمكن أن ينهي الفرد تعليمه يكون في مرحلة البحث عن الاستقرار في عمل وفي أسرة .

- من ٣١ إلى ٤٠ مرحلة الشباب والنضج والاستقرار الفعلي .

- من ٤١ إلى ٥٠ من المفروض أنها المرحلة الأكثر استقراراً على الصعيد المهني والأسري .

- من ٥١ وما فوق مرحلة الكهولة .

يظهر من الجدول أن سن الخطر الشديد بالنسبة للسجناء الرجال هي مرحلة الشباب المبكر، من ١٨ إلى ٣٠ حيث تبلغ نسبة المسجونين في هذه الفئة ٤٧,٦٪ من السجناء يظهر الرسم البياني (رقم ١) أن سن الذروة هي بين ٢٤ و٢٥ عاماً تليها في الأهمية الفئة ما بين ٣١ و٤٠ عاماً ونسبتهم ٣٤,٧٪ وتبلغ سن الذروة لهذه الفئة بحسب الرسم البياني نفسه ما بين ٣٠ و٣٤ عاماً؛ ثم تنخفض النسبة تدريجياً حتى تتضاءل بشدة بعد سن ٥٥ عاماً وما يليها.



الجدول رقم ١٨:
توزيع أنواع الجرائم بحسب فئات الأعمار

فئات الاعمار	١٨-٢١		٢٢-٣٠		٣١-٤٠		٤١-٥٠		>٥٠	
نوع الجريمة:	التكرار	٪	التكرار	٪	التكرار	٪	التكرار	٪	التكرار	٪
قتل			٢-	٢٢,٢	٣-	٣٣,٣	١-	١١,١	٣-	٣,٣
محاولة قتل	٢-	٨,٧	٧-	٣٠,٤	٥-	٢١,٧	٨-	٣٤,٨	١-	٤,٣
سرقة	٩-	١٨	٣٧-		١٥-	.	٣-	٤,٧		
سرقة مع عنف	٣-	٩,١		٥٧,٨		٢٣,٤				
اغتصاب			٢٤-		٦-	١٨,٢	١-	٢٥	١-	٢٥
دخول خلسة	١-	٣٣,٣		٧٢,٧						
تجارة مخدرات	١-	٥,٠	٢-	٥٠	١-	٣٣,٣	٢-	١٠	٣-	١٥
تعاطي			١-	٣٣,٣	١٠-	٢٠	١-	١٠٠		
تجارة وتعاطي			٤-	٢٠			٦-	٣٣,٣	١-	٥,٦
أوراق مزورة	١-	٧,١			٨-	٤٤,٤	١-	٧,١		
عملة مزورة			٣-	١٦,٧			٤-	٣٠,٨		
شيكات			٣-	٢١,٤	٩-	٦٩,٢	٣-	١٧,٦	٢-	١١,٨
خطف					٧-	٤١,٢				
تهديد وايذاء			٥-	٢٩,٤						
مختلف			٢-	١٠٠	١-	١٠٠	٣-	٢١,٤		
سرقة ومختلف	١-				٦-	٤٢,٩				
قتل ومختلف		١٤,٣	٥-	٣٥,٧	٢-	٢٨,٦				
مخدرات			٤-	٥٧,١	٢-	٥٠				
ومختلف			٢-	٥٠						
					٣-	٧٥				
			١-	٢٥						
المجموع	١٨-	٧,٢	١٠٢-	٤٠,٦	٨٧-	٣٤,٧	٣٣-	١٣,١	١١-	٤,٤

ـ فئة السن ١٨ إلى ٢١:

نلاحظ أن الجرائم التي قام بها المساجين من فئة السن ١٨ إلى ٢١ هي في معظمها سرقة عادية او سرقة مع عنف أي ٧٢٪ من جرائمهم (١٣ جريمة)، شكلت ١١,١٪ من جرائم السرقة للعينة ككل؛ مع ذلك قاموا بجريمتي قتل شكلت ٥,٥٪ من جرائم القتل على مستوى كل العينة، ولا يشكل هؤلاء على كل حال سوى ٧,٢٪ من العينة ككل.

ـ فئة السن ١٨ إلى ٣٠:

نلاحظ أيضاً في هذا الجدول أن فئة العمر ١٨ إلى٣٠ ارتكبت ٣٠,٥٪ من جرائم القتل على مستوى العينة (١١ جريمة قتل أو محاولة قتل). وارتكبت ٦٥ جريمة سرقة (مع عنف أو بدون عنف) وشكلت ٦٢,٥٪ من مجموع جرائم العينة للسرقة وشكلت ٦٣,٧٪ من مجموع جرائمهم. وقام هؤلاء بـ٥٠٪ من جرائم الاغتصاب (جريمتان من ٤). أما الجرائم المتعلقة بالمخدرات فقد بلغت ٨ جرائم وهي تشكل نسبة ١٨,٦٪ من جرائم العينة على هذا المستوى و٧,٨٪ من جرائمهم. تميزت هذه الفئة بأنها قامت بعمليتي الخطف الوحيدتين المسجلتين في هذه العينة. وقد شكلت نسبة ١٠٠٪ لهذه الجريمة.

ـ فئة السن ٣١ إلى ٤٠:

قامت هذه الفئة أيضاً بعشر جرائم قتل أو محاولة قتل شكلت نسبة ٢٧,٧٪ من جرائم القتل في العينة و١١,٤٪ من جرائمهم. وقاموا بـ٢٣ جريمة سرقة شكلت ٢٦,٤٪ من جرائمهم و٢٢,١٪ من جرائم العينة على هذا المستوى. أما معظم جرائمهم فيبدو أنها تمحورت حول التزوير وقد قاموا بـ ٢٥ جريمة شكلت ٢٨,٧٪ من جرائمهم ٥٦,٨٪ من جرائم العينة على هذا المستوى. تليها في الترتيب ضمن هذه الفئة جرائم المخدرات وشكلت هذه ٢٢ جريمة أي ما يشكل نسبة ٢٥,٢٪ من جرائمهم و٥١,١٪ من جرائم العينة للمخدرات.

ـ فئة السن من ٤١ إلى ٥٠:

قامت هذه الفئة بـ٩ جرائم تتعلق بالقتل وتشكل نسبة ٢٧,٢٪ من جرائمهم و٢٥٪ من جرائم العينة ككل؛ ولم يقوموا سوى بثلاث سرقات شكلت ٢,٨٪ من مجموع السرقات في العينة وشكلت ٩,٠٩٪ من جرائمهم .قاموا أيضاً بـ١٠ جرائم تتعلق بالمخدرات شكلت ٢٣,٥٪ من مجموع جرائم العينة لهذه الفئة و٣٠,٣٪ من جرائمهم. كذلك قاموا بـ٨ جرائم تزوير شكلت ٢٤,٢٪ من جرائمهم و١٨,١٨٪ من جرائم العينة.

ـ أكثر من ٥٠:

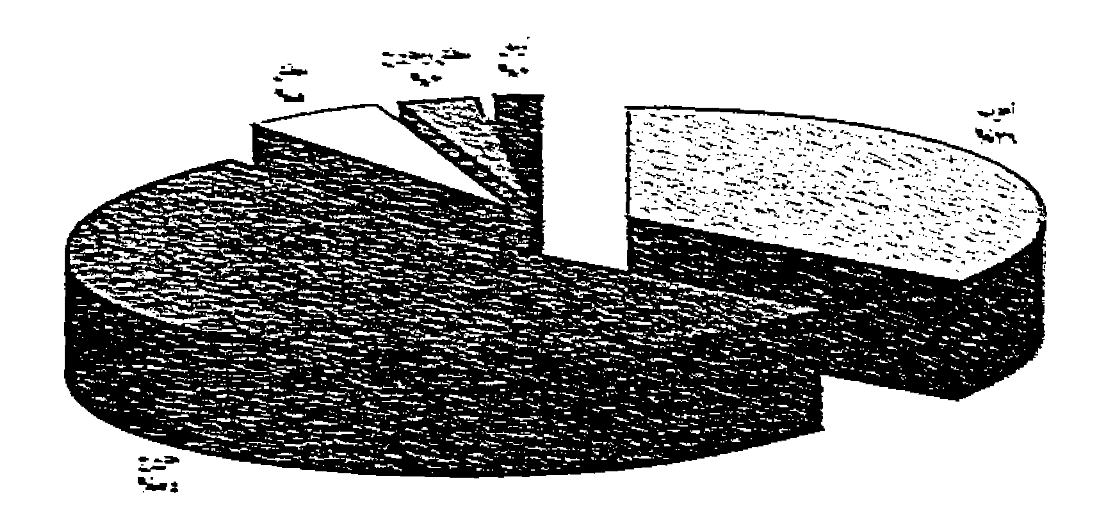
عدد الأفراد في هذه الفئة ١١ سجيناً، شكلت جرائم القتل عندهم نسبة ٣٦,٣٪ و١١,١٪ من جرائم العينة لهذه الفئة. والمخدرات أيضاً شكلت ٣٦,٣٪ من جرائمهم.

أثر الحالة المدنية

الجدول رقم ١٩:
الحالة المدنية للسجناء

الحالة المدنية	التكرار	النسبة المئوية
أعزب	٨٩	٣٥.٥
متزوج	١٣٦	٥٤.٢
مطلق	١٣	٥.٢
مطلق ومتزوج مرة ثانية	٨	٣.٢
أرمل	٥	٢,٠
المجموع	٢٥١	١٠٠.٠

الحالة المدنية للسجين



تمت العودة هنا ايضاً الى التوزيع الاحصائي للسكان للمقارنة مع وضعية السجناء.

الجدول رقم ٢٠:
توزيع السكان في الأسر المعيشية حسب الحالة الزواجية والعمر والجنس(*)

الحالة المدنية	التكرار	النسبة المئوية
أعزب	٣٠٧٤٨٠	٣٥,١
متزوج	٥٣٨١٥٩	٦١,٥
كاتب كتابه	٤٩٨٧	٠,٥
مطلق	٣٧٧٧	٠,٤
هاجر	٨١٠	٠,٠٩
أرمل	١٥٢٣٦	١,٧
متعدد الزوجات	٤٢٦١	٠,٤
المجموع	٨٧٤٨٣٥	١٠٠

(*) أخذ الذكور من سن العشرين وما فوق فقط (بحسب المعطيات المأخوذة عن مسح المعطيات الاحصائية للسكان والمساكن الذي قامت به وزارة الشؤون الاجتماعية لعام ١٩٩٦).

نلاحظ أن نسبة العزوبية عند السجناء وعند السكان العاديين هي نفسها تقريباً ٥,٣٥٪ ١,٣٥٪، بينما تقل نسبة المتزوجين نسبياً بين السجناء فتصبح ٢,٥٤٪ بدلاً من نسبة ٥,٦١٪ عند السكان. أما نسبة الأرامل فهي غير كبيرة نسبياً وتبلغ ٢٪ عند السجناء أما عند السكان العاديين فهي تبلغ ٧,١٪ أي نسبة قريبة جداً. أما فيما يتعلق بنسبة المطلقين والمطلقين والمتزوجين مرة أخرى فتبلغ في عينة السجناء ٤,٨٪ بينما هي ٤,٠٪ فقط عند عامة السكان؛ بلغت إذن نسبة غير المستقرين ٣,١٠٪.

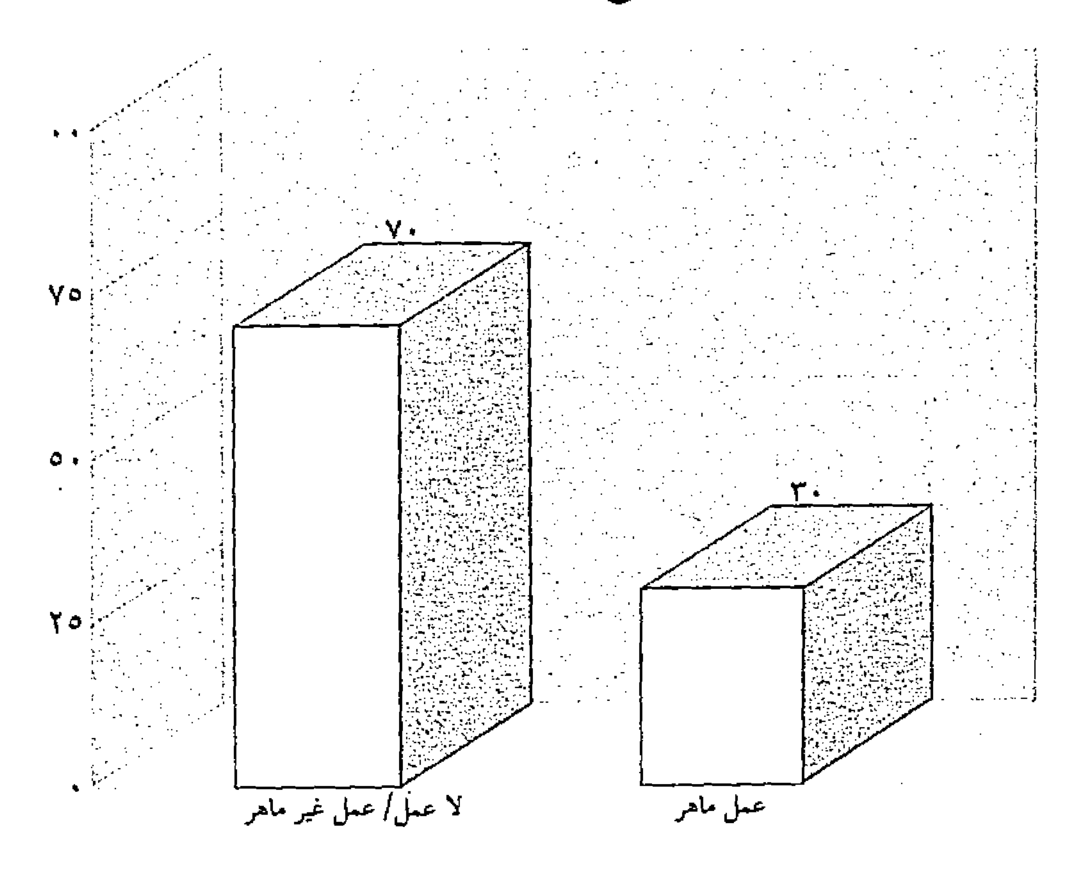
طبعاً لا يمكن الاستناد إلى هذه العينة فقط لمقارنتها مع مجموع السكان والانطلاق منها إلى التعميم، كما لا يمكن الاستنتاج أيضاً ان وضع السجين غير مستقر بنسبة كبيرة عن وضعية المواطن العادي، لكن هناك بعض الخصوصيات الصغيرة: نسبة المتزوجين عند السجناء أقل قليلاً مما هي عند السكان العاديين، كذلك نجد أن نسبة المطلقين أكبر بكثير نسبياً مما هي عند متوسط السكان.

نوع عمل السجين

الجدول رقم ٢١:
عمل السجين

نوع العمل	التكرار	النسبة المؤية
زراعي	٦	٢.٤
صناعي	٥	٢.٠
عمل حرفي	١٠٥	٤٠.٢
موظف بسيط	٤٦	١٨.٣
موظف	١٨	٧.٢
مهنة حرة	٥٧	٢٢.٧
لا عمل	١٨	٧.٢
المجموع	٢٥١	١٠٠.٠

عمل السجين
توزع عمل السجين



من الملاحظ أن أكبر نسبة من السجناء هم من الحرفيين (٢ . ٤٠٪) الذين يزاولون أعمالاً من مثل: ميكانيك سيارات، حدادة سيارات، سائق سيارة، بائع خضار؛ كما نلاحظ بحسب هذا الجدول أن أكثرية السجناء يعملون في وظائف لغير المهرة أو أنهم عاطلين عن العمل ٧٠٪. أما نسبة العاملين في الزراعة فهي نسبة ضئيلة جداً لا تتعدى ٤ , ٢٪، كذلك نسبة العاملين في الصناعة ٠ , ٢٪، وذلك طبيعي نظراً لأن لبنان ليس بلداً صناعياً.

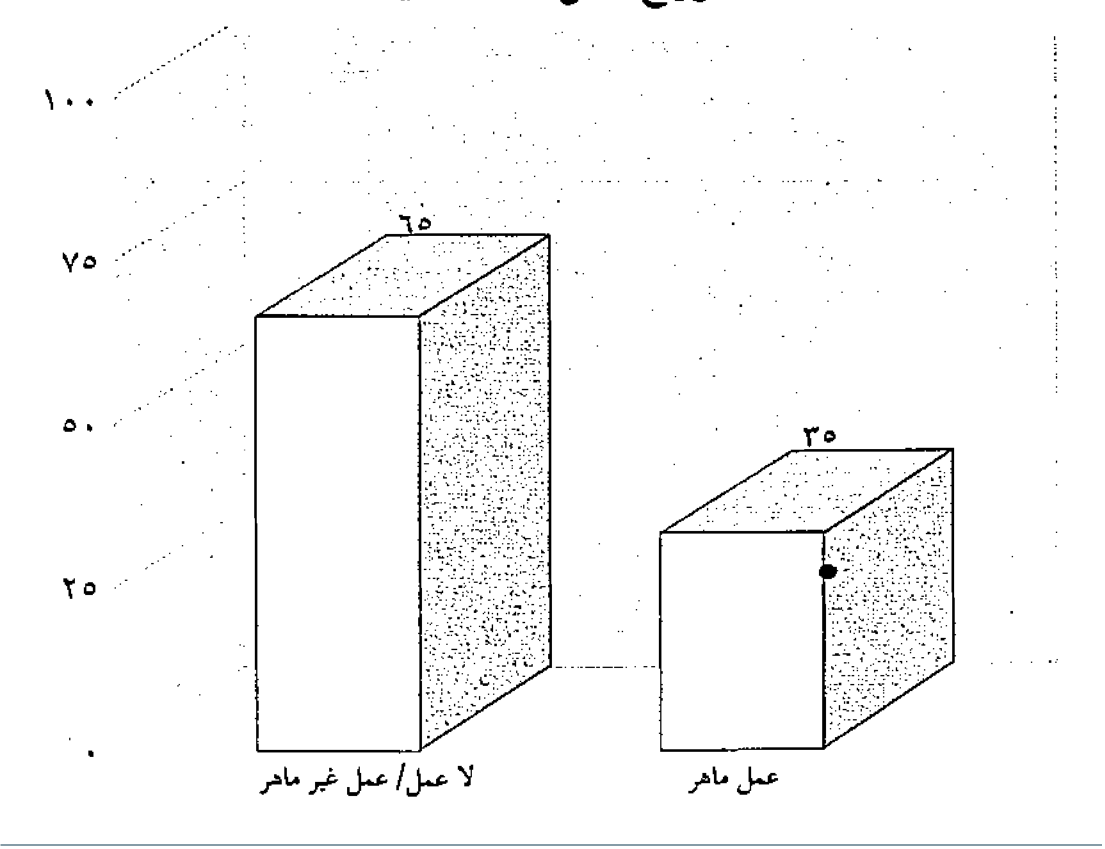
أما نسبة العاطلين عن العمل بين السجناء فهي النسبة نفسها الموجودة بين السكان الذكور تقريباً لمدينة بيروت وهي ٥ . ٧٪ بحسب كسباريان[1].

---

(١) كسباريان: **الأوضاع المعيشية في الأسر اللبنانية**. المديرية العامة للاحصاء المركزي، بيروت، ١٩٩٧.

الجدول رقم ٢٢:
عمل الأب

نوع العمل	التكرار	النسبة المئوية
زراعي	٤١	١٦.٣
صناعي	٣	١.٢
حرفي	٥٠	١٩,٩
موظف صغير	٣٧	١٤.٩
موظف	٣٠	١٢.٠
عمل حر	٥٨	٢٣.٣
دون عمل	٣٠	١٢.٠
المجموع	٢٤٩	٩٩.٢
ناقص	٢	٠.٨
المجموع	المجموع	١٠٠.٠



من الملاحظ أن نسبة أعلى من الآباء تعمل في الزراعة ٥ , ١٦٪ (بينما هي ٤ . ٢٪ فقط عند السجين) ما يعني أن الابناء تركوا نوع عمل الآباء. وهذا طبيعي طالما أن معظمهم يريدون السكن في المدينة. إن نسبة العاملين في الصناعة ضعيفة وهي ٢ , ١٪. أما نسبة الحرفيين عند الآباء فهي أقل بكثير مما هي عند الابناء، إذ بلغت على التوالي: ٩ . ١٩ للآباء و ٢ , ٤٠ للأبناء، ما يعني أن استقرار السجناء أقل من استقرار أبائهم نظراً إلى أن العمل المهني والحرفي يشمل أعمالاً غير ثابتة مثل: سائق سيارة أو دهان أو ميكانيك سيارات أو ما شابه. لكن بشكل عام يتميز عمل الأب و الابن بأنهما منتميان غالباً إلى الأعمال غير الجيدة.

الجدول رقم ٢٣:

نوع العمل: مقارنة عمل الأب /عمل الابن

نوع عمل الأب	التكرار	النسبة المئوية
عمل جيد/ دون عمل	١٦١	٦٤ . ٧
عمل غير جيد	٨٨	٣٥ . ٤
المجموع	٢٤٩	١٠٠ . ٠
نوع عمل الابن		
عمل جيد/دون عمل	١٧٦	٧٠ . ١
عمل غير جيد	٧٥	٢٩ . ٩
المجموع	٢٤٩	١٠٠ . ٠

من الملاحظ أن كلاً من الآباء والأبناء يعملون أعمالاً غير جيدة، أو عاطلون عن العمل ٧ , ٦٤٪ من الآباء و ١ , ٧٠٪ من الأبناء، ولو أننا نلاحظ تدهوراً نسبياً أكبر عند الأبناء بالنسبة للأعمال، وهذا يعني أن متوسط هذه الأسر لا ترتقي اجتماعياً بل العكس.

الجدول رقم ٢٤:
عمل الزوجة

نوع العمل	التكرار	النسبة المئوية
لا تعمل (ربة منزل)	١٣٧	٨٦,٧
تعمل	٢١	١٣,٣
المجموع	١٥٨	١٠٠,٠

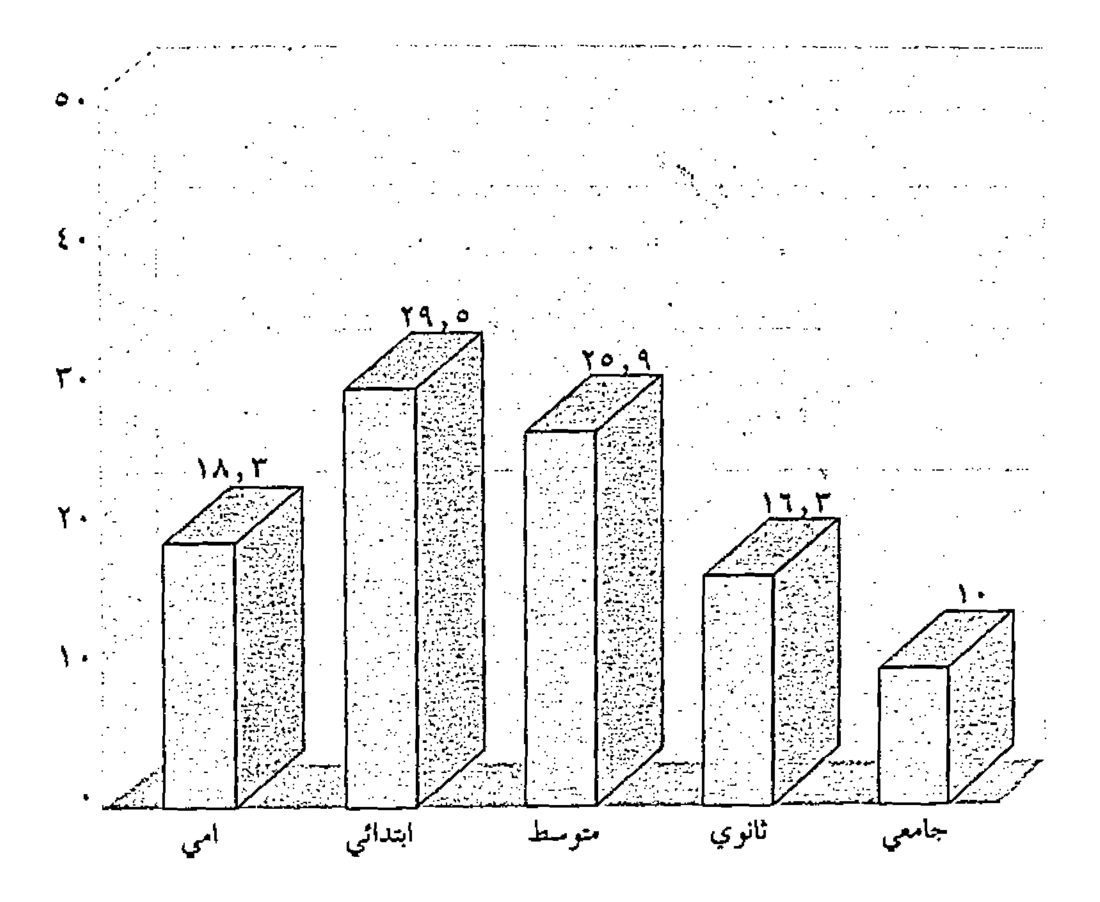
من الملاحظ أن معظم زوجات السجناء لا يعمل.

التعليم

الجدول رقم ٢٥:
مستوى التعليم عند السجناء

مستوى التعليم	التكرار	النسبة المئوية	النسبة المئوية التراكمية
أمي	٤٦	١٨,٣	١٨,٣
ابتدائي	٧٤	٢٩,٥	٤٧,٨
متوسط	٦٥	٢٥,٩	٧٣,٧
ثانوي	٤١	١٦,٣	٩٠,٠
جامعي	٢٥	١٠,٠	١٠٠,٠
المجموع	٢٥١	١٠٠	

المستوى التعليمي للسجين



بلغت نسبة الأمية العامة في لبنان ٦ , ١١٪ (كسباريان ١٩٩٧)، ومن الملاحظ أن متوسط نسبة الأمية عند السجناء والتي بلغت ٣ . ١٨٪ هي أعلى بكثير من متوسط الأمية بالنسبة للذكور والتي بلغت ٢ , ٧٪ (كسباريان ١٩٩٧). أما الذين تابعوا التعليم الابتدائي فلقد بلغت نسبتهم ٥ , ٢٩٪. واذا ما أخذنا مستوى التعليم المتوسط كسقف لحساب مستوى التعليم عند السجناء، لوجدنا أن ٧ , ٧٣٪ هم من أصحاب الشهادات المتوسطة أو أقل.

الجدول رقم ٢٦:
تعليم الزوجة

مستوى التعليم	التكرار	النسبة المئوية	النسبة المئوية التراكمية
أمية	٣٤	٢١,٥	٢١,٥
متعلمة	١٢٤	٧٨,٥	١٠٠,٠
مجموع	١٥٨	١٠٠,٠	
ناقص (غير متزوجات)	٩٣	٣٧,١	
مجموع	٢٥١		

من الملاحظ إرتفاع نسبة الأميات بشكل معقول (٢١.٥٪) ع
المتوسط العام للسكان والبالغة نسبته ١٦٪ (بحسب كسباريان ١٩٩٧).

الجدول رقم ٢٧:
تعليم الام

مستوى التعليم	التكرار	النسبة المئوية	النسبة المئوية التراكمية
أمية	١٤٤	٥٨.٣	٥٨.٣
متعلمة	١٠٣	٤١.٧	١٠٠.٠
مجموع	٢٤٧	١٠٠.٠	
ناقص	٤		
مجموع	٢٥١		

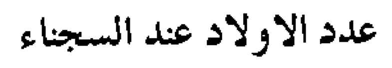
كذلك نلاحظ أن حوالى ٦٠٪ من أمهات السجناء هن أميات وهي نسب
مرتفعة، لكن يجب ألا ننسى أعمارهن التي تجعل الرقم معقولاً إذ إن متوسط
نسبة الأمية عند النساء ٥٥-٥٩ تبلغ ٤٢,١٪ وهي تزداد ارتفاعاً مع السن.

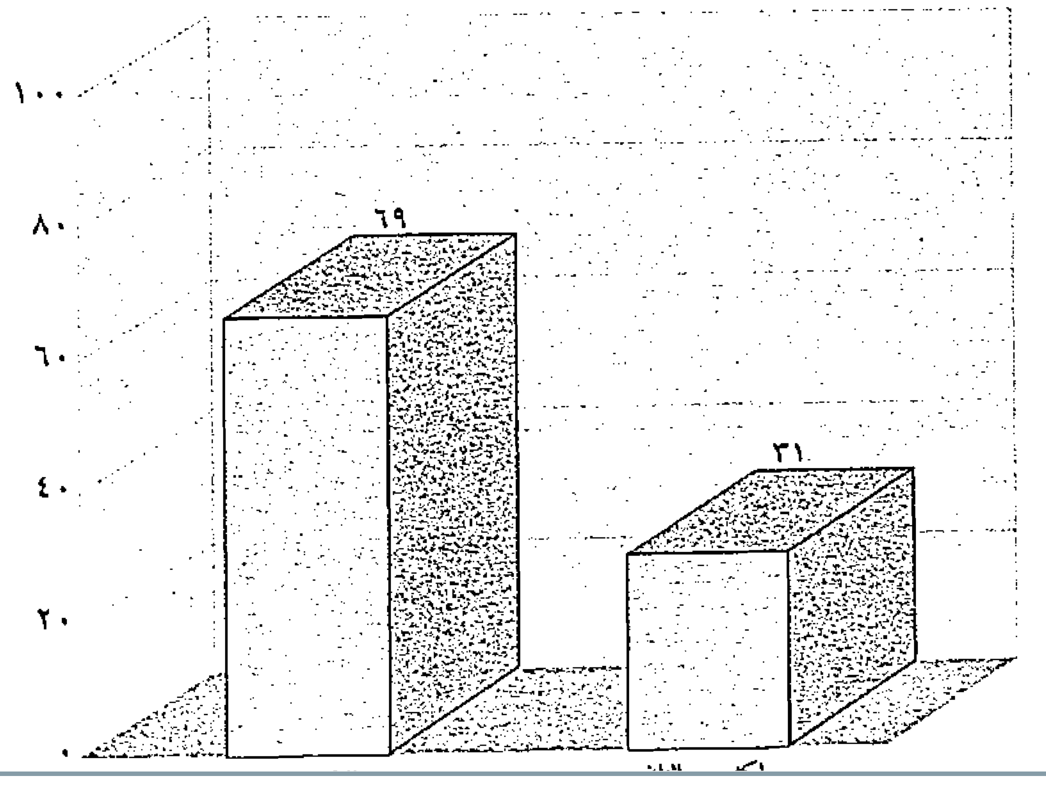
أما بالنسبة لتعليم الزوجات، فنجد أن ٧٨,٥٪ منهن متعلمات،
والمتعلمات من الامهات بلغت نسبتهن ٤١,٧٪ وهي نسب منطقية طالم

الجدول ٢٨:

عدد الاولاد في أسرة السجين

عدد الاولاد	التكرار	النسبة المئوية
١	٣٧	٢٦,١
٢	٢٧	١٩,٠
٣	٢٦	١٨,٣
٤	١٨	١٢,٧
٥	١٢	٨,٥
٦	١٠	٧,٠
٧	٤	٢,٨
٨	١	٠,٧
٩	٥	٣,٥
١١	١	٠,٧
١٣	١	٠,٧
المجموع	١٤٢	١٠٠,٠





الجدول رقم ٢٩:
عدد الاخوة في أسرة السجين

عدد الاخوة	التكرار	النسبة المئوية
٠	٦	٢,٤
١	٤	١,٦
٢	١٠	٤,٠
٣	١٧	٦,٨
٤	١٧	٦,٨
٥	٢٥	١٠,٠
٦	٣٦	١٤,٣
٧	٢٨	١١,٢
٨	٢٦	١٠,٤
٩	٢٠	٨,٠
١٠	١٩	٧,٦
١١	١٧	٦,٨
١٢	١٠	٤,٠
١٣	٣	١,٢
١٤	٣	١,٢
١٥	٤	١,٦
١٦	١	٠,٤
١٧	٢	٠,٨
١٩	٢	٠,٨
٢٩	١	٠,٤
المجموع	٢٥١	١٠٠,٠

يأتي معدل عدد الاولاد في أسرة السجين المتزوج ٣,٢٨، حيث أن ٦٣,٤٪ منهم آباء لثلاثة أولاد أو أقل (جدول رقم ٢٨) بينما ١٤,٧٪ فقط منهم لديه ثلاثة أخوة أو أقل، ويأتي معدل عدد الأولاد لأسرة أب السجين ٧ أولاد (الجدول رقم ٢٩).

الجدول رقم ٣٠:
معدل عدد أخوة السجين

عدد الاخوة	التكرار	النسبة المئوية
أقل من ٧ اخوة	١٤٣	٥٧,٠
أكثر من ٧ اخوة	١٠٨	٤٣,٠
المجموع	٢٥١	١٠٠,٠

ذلك يعني أن السجين قد عاش بشكل متوسط في أسرة مكتظة، بينما كوّن أسرة أقل حجماً. وهي بالاجمال قريبة من متوسط عدد الاولاد للعام ١٩٩٦ والذي بلغ ٣,٤١.

(انظر حلا نوفل، **مجلة شؤون الاوسط**، عدد ٦١، نيسان ١٩٩٧، ص ٦٥).

المسكن

الجدول رقم ٣١:
عدد غرف المنزل عند السجناء

عدد الغرف	التكرار	النسبة المئوية
١	٢٥	١٠,٠
٢	٧٠	٢٧,٩
٣	٦٥	٢٥,٩
٤	٣٦	١٤,٣
٥	٢٣	٩,٢
٦	١١	٤,٤
٧	٤	١,٦
٨	٦	٢,٤
٩	٢	٠,٨
١٢	١	٠,٤
المجموع	٢٤٣	٩٦,٨
دون مأوى	٨	٣,٢
المجموع	٢٥١	١٠٠,٠

لذلك أجرينا مقارنة متوسط عدد غرف السكن مع المتوسطات السكانية بحسب الاحصاءات الرسمية:

الجدول رقم ٣٢:
توزيع السكان والأسر المعيشية حسب نوع المسكن وعدد غرفه(*)

عدد الغرف	التكرار	النسبة المئوية
١	٩٩١٧٠	٣.٣
٢	٤٧٩٢٧٣	١٦.٠١
٣	٧٦٣٤٨١	٢٥.٥
٤	٧٩٣٥٤٠	٢٦.٥
٥	٥٣٢٩١٧	١٧.٨
٦	٣١٧٢٤٩	١٠.٥
غير معين	٧٦٧١	٠.٢٥
المجموع	٢٩٩٣٣٠٢	٩٩.٨٦

إن مقارنة الجدولين السابقين (٣١ و٣٢) تظهر أن الوضع السكني للسجناء يختلف عن المتوسطات العامة للسكان اللبنانيين. فبينما نسبة الذين يعيشون في غرفة واحدة تبلغ ٣,٣٪ من السكان نجدها عند السجناء ترتفع إلى ١٠٪. أما السكن في غرفتين فتبلغ نسبته عند السكان العاديين ١٦,٠١ بينما يبلغ عند السجناء ٢٧,٩٪. هذا يعني أن نسبة ٣٩,١٪ أو ما يقارب الأربعين في المئة يعيشون في غرفة واحدة أو غرفتين، مقابل ١٩,٣٪ عند مجموع السكان، ما يعني أن السجناء يعيشون في ظروف سكنية سيئة ويعانون من الازدحام في مساكنهم. هذا بالاضافة إلى أن نسبة ٣,٢٪ منهم يعيشون من دون مأوى، وهي نسبة مرتفعة. من الملاحظ تعادل نسب الذين يعيشون في ٣ غرف بين السكان وبين عينة السجناء وهي على التوالي ٢٥,٥٪ و٢٥,٩٪. لكن يعود الاختلاف إلى الظهور مجدداً عند الانتقال إلى ٤ غرف، فتصبح نسبة متوسط السكان الذين يعيشون في ٤ غرف ٢٦,٥٪ بينما هي ١٤,٨٪. يمكن أن نستنتج مما سبق وبشكل أكيد أن ظروف سكن عينة السجناء أسوأ بكثير من متوسطات ظروف السكن لمتوسط السكان.

(*) بيانات مأخوذة ومعالجة عن مسح المعطيات للسكان والمساكن الذي قامت به وزارة الشؤون الاجتماعية وصدرت نتائجه في ١٤/١٠/١٩٩٦.

العلاقات الايجابية بين العوامل لخلفية السجين الاجتماعية

من أجل إيجاد العلاقة بين مختلف العوامل التي عملنا عليها تم تطبيق طريقة Pearson واستخدم الـ Chi - Square التي تعطي احتمال خطأ ٥٪.

الجدول رقم ٣٣:

العلاقة بين نوع عمل السجين وعمره

عمل السجين	عمر السجين			
	اصغر او = ٣٠	٣١-٤٠	اكبر او = ٤١	المجموع
دون عمل/ عمل متدن	٩٤ ٪٥٣,٤	٥٥ ٪٣١,٣	٢٧ ١٥,٣	١٧٦ ١٠٠,٠
عمل جيد	٢٦ ٪٣٤,٧	٣٢ ٪٤٢,٧	١٧ ٪٢٢,٧	٧٥ ١٠٠,٠
المجموع	١٢٠ ٪٤٧,٨	٨٧ ٪٣٤,٧	٤٤ ٪١٧,٥	٢٥١ ١٠٠,٠

$P=0.024 < 0.05$

نلاحظ من هذه المقارنة وجود علاقة إيجابية بين عمل السجين وعمره، فكلما كان السجين أصغر في السن كلما قام بأعمال متدنية أو كان عاطلاً عن العمل ٥٣,٤٪ والعكس صحيح، أن ٤٢,٧٪ و٢٢,٧٪ من السجناء الذين يقومون بأعمال ذات مستوى جيد هم من الأكبر سناً.

الجدول رقم ٣٤:

العلاقة بين عمل السجين ومستوى التعليم

	مستوى التعليم				
عمل السجين	أمي	ابتدائي	متوسط	ثانوي	جامعي
دون عمل/ عمل متدن	٤٣ ٢٤,٤٪	٦٠ ٣٤,١٪	٤٦ ٢٦,١	١٩ ١٠,٨	٨ ٤,٥٪
عمل جيد	٣ ٤,٠٪	١٤ ١٨,٧٪	١٩ ٢٥,٣٪	٢٢ ٢٩,٣٪	١٧ ٢٢,٧٪
المجموع	٤٦ ١٨,٣٪	٧٤ ٢٩,٥٪	٦٥ ٢٥,٩٪	٤١ ١٦,٣٪	٢٥ ١٠,٠٪

$P=0 < 0.05$

يظهر هذا الجدول علاقة إيجابية بين مستوى السجين التعليمي ومستوى عمله، فكلما تحسن مستوى السجين التعليمي كلما تحسنت نوعية عمله. إن ٢٤,٤٪ من الأميين لديهم أعمال متدنية أو بدون عمل، بينما ٤,٠٪ منهم فقط لديهم أعمال جيدة؛ و العكس ٤,٥٪ من الجامعيين لديهم أعمال متدنية بينما ٢٢,٧٪ منهم لديهم أعمال جيدة. و١٠,٨٪ من الثانويين لديهم أعمال متدنية بينما ٢٩,٣٪ منهم لديهم أعمال جيدة.

الجدول رقم ٣٥:

العلاقة بين عمل السجين وعمل الاب

	عمل الأب		
عمل السجين	عمل متدن/دون عمل	عمل جيد	المجموع
عمل متدن/دون عمل	١٢٢ ٧٠,١٪	٥٢ ٢٩,٩٪	١٧٤ ١٩٩٪
عمل جيد	٣٩ ٥٢,٠٪	٣٦ ٤٨,٠٪	٧٥ ١٠٠٪
المجموع	١٦١ ٦٤,٧٪	٨٨ ٣٥,٣٪	٢٤٩ ١٠٠٪

$P=0.006 < 0.05$

نلاحظ من هذا الجدول أن ٧٠٪ من السجناء ومن آبائهم يعملون في أعمال متدنية مقارنة مع ٤٨٪ من الأبناء و الآباء الذين يعملون في أعمال جيدة. هناك إذن علاقة إيجابية إلى حد ما بين الأب والابن بالنسبة لنوع العمل. فمن يعمل أهلهم في أعمال متدنية تكون أعمالهم متدنية أيضاً، مع أنهم قد يغيرون نوع العمل، لكنه يظل عملاً غير ماهر أو متدنّ (للمقارنة أنظر الجدولين رقم ٢٠ و٢١) حيث نجد أن ١٦,٣٪ من الآباء يعملون في الزراعة بينما ٢,٤٪ فقط من الأبناء يعملون في الزراعة ومعظمهم انتقل من الزراعة إلى الحرف البسيطة غير الماهرة وبلغت فيها نسبتهم ٤٠,٢٪ بينما نجدها تبلغ ١٩,٩٪ عند الآباء.

الجدول رقم ٣٦:

عمل السجين وعدد غرف المنزل

	عدد غرف المنزل			
عمل السجين	اقل من غرفتين	من ٢ الى ٤	اكثر من ٤	المجموع
دون عمل/ عمل متدن	٧٤ ٪٤٣.٣	٧٨ ٪٤٣.٣	١٩ ١١.١	١٧١ ١٠٠
عمل جيد	٢١ ٪٢٩.٢	٢٣ ٪٣١.٩	٢٨ ٪٣٨.٩	٧٢ ٪١٠٠
المجموع	٩٥ ٪٣٩.١	١٠١ ٤١.٦	٤٧ ٪١٩.٣	٢٤٣ ٪١٠٠

P = 0

إن ٤٣,٣٪ من السجناء أصحاب الأعمال المتدنية يسكنون في بيوت مكونة من أقل من غرفتين، مقارنة بـ٣٨,٩٪ من الذين يعملون في أعمال جيدة ويسكنون في بيت مكون من أكثر من ٤ غرف، مقابل ١١,١٪ من أصحاب الأعمال المتدنية ويسكنون بيت مكون من أكثر من ٤ غرف. هناك إذن علاقة إيجابية بين تحسن نوع العمل وزيادة أو تحسن غرف المسكن.

الجدول رقم ٣٧:

العلاقة بين عمل السجين و مستوى التعليم عند الزوجة

	مستوى التعليم للزوجة		
عمل السجين	أمية	متعلمة	المجموع
دون عمل/عمل متدنّ	٢٩ ٪٧٢.٤	٧٦ ٪٧٢.٤	١٠٥ ٪١٠٠
عمل جيد	٥ ٪٥٩.٤	٤٨ ٪٩٠.٦	٥٣ ٪١٠٠
المجموع	٣٤ ٪٢١.٥	١٢٤ ٪٧٨.٥	١٥٨ ٪١٠٠

P= 0.009 < 0.05

تظهر هذه المقارنة العلاقة بين عمل السجين وتعليم الزوجة؛ وتشير إلى وجود علاقة إيجابية بين مستوى تعليم الزوجة ونوع عمل السجين ، حيث أن ٩٠.٦٪ من السجناء الذين يعملون في أعمال مقبولة أو جيدة متزوجون من زوجات متعلمات مقارنة بـ ٧٢,٤٪ من السجناء الذين يعملون في وظائف أقل أهمية أو لا يعملون ومتزوجون من زوجات متعلمات في الوقت نفسه.

الجدول رقم ٣٨:

العلاقة بين مستوى تعليم السجين ونوع عمل الأب

مستوى تعليم السجين	عمل الأب		
	دون عمل/ عمل متدن	عمل جيد/ مقبول	المجموع
أمي	٣٧ ٨٠.٤٪	٩ ١٩.٦٪	٤٦ ١٠٠٪
ابتدائي	٤٧ ٦٤.٤٪	٢٦ ٣٥.٦٪	٧٣ ١٠٠٪
متوسط	٤٤ ٦٨,٨٪	٢٠ ٣١.٣٪	٦٤ ١٠٠٪
ثانوي	١٩ ٤٦.٣٪	٢٢ ٥٣.٧٪	٤١ ١٠٠٪
جامعي	١٤ ٥٦.٠٪	١١ ٤٤.٠٪	٢٥ ١٠٠٪
المجموع	١٦١ ٦٤.٧٪	٨٨ ٣٥.٣٪	٢٤٩ ١٠٠٪

$p = 0.015 < 0.05$

يظهر الجدول أن ٨٠٪ من السجناء الأميين يعمل آباؤهم في أعمال متدنية، بينما ١٩,٦٪ فقط من السجناء الذين يعمل آباؤهم أعمالاً جيدة هم أميون. كذلك هناك ٥٣,٧٪ من السجناء الذين وصلوا إلى الثانوي يعمل آباؤهم في أعمال مقبولة أو جيدة. إذن هناك اتجاه لأن يتعلم السجين بشكل أفضل كلما عمل الأب عملاً أفضل.

الجدول رقم ٣٩:
العلاقة بين مستوى السجين التعليمي ومستوى الأم التعليمي

	مستوى الأم التعليمي		
مستوى السجين التعليمي	أمية	متعلمة	المجموع
أمي	٣٢ ٧١,١٪	١٣ ٢٨,٩٪	٤٥ ١٠٠٪
ابتدائي	٤٨ ٦٦,٧٪	٢٤ ٣٣,٣٪	٧٢ ١٠٠٪
متوسط	٣٨ ٥٩,٤٪	٢٦ ٤٠,٦٪	٦٤ ١٠٠٪
ثانوي	١٩ ٤٦,٣٪	٢٢ ٥٣,٧٪	٤١ ١٠٠٪
جامعي	٧ ٢٨,٠٪	١٨ ٧٢,٠٪	٢٤ ١٠٠٪
المجموع	١٤٤ ٥٨,٣٪	١٠٣ ٤١,٧٪	٢٤٧ ١٠٠٪

$p = 0.002 < 0.05$

يظهر هذا الجدول أن ٧١,١٪ من السجناء الأميين لهم أمهات أميات أيضاً، ونسبة ٢٨,٩٪ من السجناء الأميين فقط لهم أمهات متعلمات. بينما هناك ٧٢٪ من السجناء الجامعيين أمهاتهم متعلمات وفقط ٢٨٪ من الجامعيين أمهاتهم أميات. أي أن من له أم متعلمة لديه حظ أكبر في أن يكمل تعليمه العالي، إذ إن أعلى نسبة لغير الأميين الذين أمهاتهم أميات هم الذين توصلوا إلى المرحلة الإبتدائية فقط وتبلغ نسبتهم ٦٦,٧٪.

الجدول رقم ٤٠:

العلاقة بين مستوى التعليم عند السجين وعدد الغرف

مستوى التعليم	عدد الغرف أقل أو = ٢	٣ ـ ٤	اكثر من ٤	المجموع
أمي	٢٤ ٥٨,٥٪	١٤ ٣٤,١٪	٣ ٧,٣٪	٤١ ١٠٠٪
ابتدائي	٣٣ ٤٥,٢٪	٣١ ٤٢,٥٪	٩ ١٢,٣٪	٧٣ ١٠٠٪
متوسط	١٩ ٢٩,٧٪	٣٠ ٤٦,٩٪	١٥ ٢٣,٤٪	٦٤ ١٠٠٪
ثانوي	١١ ٢٦,٨٪	١٩ ٤٦,٣٪	١١ ٤٦,٣	٤١ ١٠٠٪
جامعي	٨ ٣٣,٣٪	٧ ٢٩,٢٪	٩ ٣٧,٥	٢٤ ١٠٠٪
المجموع	٩٥ ٣٩,١٪	١٠١ ٤١,٦٪	٤٧ ١٩,٣	٢٤٣ ١٠٠٪

$p = 0.008 < 0.05$

يظهر هذا الجدول أن السجين لديه حظ في أن يسكن بيتاً أكبر كلما تعلم أكثر، إذ أن ذلك يعني تحسن وضعه الاجتماعي. بمعنى آخر إن غير المتعلمين لديهم بيوت أصغر إذ إن نسبة ٥٨,٥٪ من الأميين يسكنون في بيوت تتراوح بين غرفة واحدة وغرفتين، بينما ٧,٣٪ منهم فقط تسكن بيوتاً من ٤ غرف أو أكثر. هناك أيضاً ٢٦,٨٪ من الثانويين يسكنون بيوتاً من غرفتين أو أقل مقابل ٤٦,٣٪ يسكنون بيوتاً اكبر.

الجدول رقم ٤١:
العلاقة بين مستوى التعليم عند السجين وعند الزوجة

مستوى التعليم عند السجين	مستوى الزوجة التعليمي		
	أمية	متعلمة	المجموع
أمي	١٥ ٪٥٠,٠	١٥ ٪٥٠,٠	٣٠ ٪١٠٠
ابتدائي	١١ ٪٢٣,٤	٣٦ ٪٧٦,٦	٧٤ ٪١٠٠
متوسط	٣ ٪٨,٨	٣١ ٪٩١,٢	٣٤ ٪١٠٠
ثانوي	٣ ٪١٠,٣	٢٦ ٪٨٩,٧	٢٩ ٪١٠٠
جامعي	٢ ٪١١,١	١٦ ٪٨٨,٩	١٨ ٪١٠٠
المجموع	٣٤ ٪٢١,٥	١٢٤ ٪٧٨,٥	١٥٨ ٪١٠٠

$p = 0$

كلما تعلم السجين أكثر كلما ازداد حظه في الزواج من امرأة متعلمة، مع ذلك نلاحظ أن نسبة ٥٠٪ من الأميين تزوجوا من زوجات متعلمات ويبقى أن ٥٠٪ منهم تزوجوا من أميات؛ بينما أن ٩١,٢٪ من الذين وصلوا إلى المتوسط تزوجوا من زوجات متعلمات. مع ذلك نلاحظ أن نسبة ١٠.٣٪ من الثانويين و١١.١٪ من الجامعيين قد تزوجوا من نساء أميات.

الجدول رقم ٣٤:
مقارنة بين الحالة المدنية للسجين وعمره

الحالة المدنية	عمر السجين			
	أصغر من ٣٠	٣١ - ٤٠	أكبر أو=٤١	المجموع
العزب	٧٤ ٨٣,١٪	١٥ ١٦,٩٪		٨٩ ١٠٠٪
متزوج	٣٨ ٢٧,٩٪	٦٤ ٤٧,١٪	٣٤ ٢٥,٠٪	١٣٦ ١٠٠٪
مختلف	٨ ٣٠,٨٪	٨ ٣٠,٨٪	١٠ ٣٨,٥٪	٢٦ ١٠٠٪
المجموع	١٢٠ ٤٧,٨٪	٧ ٣٤,٧٪	٤٤ ١٧,٥٪	٢٥١ ١٠٠٪

$p = 0$

إن نسبة ٨٣,١٪ من العزاب هم دون الثلاثين ، لا بد أنه لا تزال لديهم حظوظ في الزواج؛ مع ذلك هناك نسبة ١٦,٩٪ من العزاب الذين هم بين الثلاثين والاربعين ، والارجح أنهم سوف يبقون كذلك . بينما لا يوجد عزاب أكبر من سن الاربعين وما فوق ، وهذا طبيعي في بلد مثل لبنان .

الجدول رقم ٤٣:

العلاقة بين الحالة المدنية وعدد غرف المنزل

الحالة المدنية	عدد الغرف			
	أقل من أو = ٢	٣ ـ ٤	أكبر من ٤	المجموع
أعزب	٢٥ ٢٨,٤٪	٤٦ ٥٢,٣٪	١٧ ١٩,٣٪	٨٨ ١٠٠٪
متزوج	٦٣ ٤٧,٤٪	٤٧ ٣٥,٣٪	٢٣ ١٧,٣٪	١٣٣ ١٠٠٪
مختلف	٧ ٣١,٨٪	٨ ٣٦,٤٪	٧ ٣١,٨٪	٢٢ ١٠٠٪
المجموع	٩٥ ٣٩,١٪	١٠١ ٤١,٦٪	٤٧ ١٩,٣٪	٢٤٣ ١٠٠٪

$p = 0.026 < 0.05$

يبدو أن متوسط سكن العزاب أفضل حالاً من متوسط سكن المتزوجين، إذ أن ٥٢,٣٪ من العزاب يسكنون بيوتاً تتكون من ٣ أو ٤ غرف بينما نجد أن ٣٥,٣٪ من المتزوجين هم في الوضعية نفسها. لكن يجب ألا ننسى ان نسبة من المساجين العزاب يسكنون مع أهلهم وليس بمفردهم وذلك لا يمنع أن نلاحظ أن نسبة عالية من المتزوجين ٤٧,٤٪ يسكنون بيوتاً مكونة من غرفتين أو أقل.

بروفيل السجين

السجين في سجن بيروت هو:

ـ سارق بالدرجة الأولى، فالسرقة تشكل نسبة ٤١,٤ ٪ من الجرائم. وهو متعامل بالمخدرات بالدرجة الثانية ١٧,١٪ من الجرائم. ثم مزور ويتعامل بالشيكات المزورة ٨,١٠+ ٨,٦٪. يلي ذلك جرائم القتل أو محاولتها والتي بلغت ١٤,٣٪، ثم الجرائم الأخرى المتفرقة.

ـ وهو لبناني بالدرجة الأولى ٦٧,٣٪ ثم سوري ١٢,٧٪ ثم فلسطيني ٨,٨٪، ثم من جنسيات أخرى تتعلق خاصة بتلك التي تجلب العمالة.

ـ كما إنه مسلم سني ٤٨,٢٪ ويليه الشيعي ٣٩٪، ثم مختلف، نظراً لكون السجن يقع في ما عُرف ببيروت الغربية.

ـ السجين هو شخص عانى من تغيير مكان سكنه الأصلي بنسبة عالية، أن نسبة ٦١,٤٪ منهم تهجروا أو هاجروا أو هربوا من الريف إلى المدينة، فهو يعيش في بيروت ٧٢,٣٪.

ـ السجين هو شخص صغير في السن نسبياً إذ أن نسبة ٤٧,٦٪ منهم بين سن ١٨ و ٣٠ سنة. وسن الذروة في هذه العينة تراوحت بين ٢٤ - ٢٥ سنة.

ـ السجين شخص متزوج بنسبة ٥٤,٢٪، لكن بنسبة أقل من المتوسط السكاني العام والبالغ ٦١,٥ ٪ (أنظر الجدول رقم ١٩)، وهو عازب بالدرجة الثانية بنسبة ٣٥,٥٪ وهي النسبة العادية الموجودة بين السكان بحسب الاحصائيات. لكن تميز السجين بأن لديه حالة مدنية غير مستقرة بنسبة ١٠,٤٪ وهي نسبة أعلى مما هي عليه عند المتوسط السكاني العام بحسب الاحصائيات الرسمية حيث بلغت ١,٧٪ فقط.

ـ تعمل نسبة كبيرة من السجناء في الأعمال الحرفية البسيطة والمتدنية وهي بلغت نسبة ٦٠٪ من مجمل النشاطات، يضاف اليها نسبة

الـ٧,٢٪ من العاطلين عن العمل، فيصبح السجين هو العامل الحرفي أو اليدوي البسيط. وهو يشبه الأب في ذلك مع ميل نحو الانحدار الإجتماعي (الجدول رقم ٢١).

ـ نسبة الأميين من السجناء أعلى بكثير مما هي عند فئة الذكور من السكان: ١٨.٣٪ مقابل ١١,٦٪ لنسبة الأمية المتوسطة للجنسين و٧.٢٪ لنسبة الأمية عند الذكور. بشكل عام هو أيضاً لم يكمل تعليمه الابتدائي ٤٧,٨٪. يمكن الإستنتاج أن السجين هو شخص بسيط التعليم إلى أمي.

ـ وهو في المتوسط أب لـ ٣,٢ من الأولاد بينما ينحدر من أسرة مكتظة عندها متوسط ٧ أولاد.

ـ السجين شخص يسكن منزلاً مكوناً من غرفتين أو أقل بنسبة ٣٧,٩٪، وإذا جمعنا من هم من دون مسكن مع من يسكنون ٣ غرف فسوف نحصل على نسبة ٦٧٪ من مجموع السجناء (الجدول رقم ٣٠ و٣١) يسكنون في شروط سكنية غير جيدة.

الجريمة والعقاب
أو
أثر الجندر على العقاب

ربما يتوجب على الباحث في موضوع مماثل ان يعرّف في البداية مصطلح الجندر(٭)، لجدّته من ناحية ولثقله على السمع وعلى اللفظ معاً، خاصة في لغتنا العربية، من ناحية أخرى. لكنني أميل معظم الأحيان إلى الاحتفاظ باللفظ الأصلي عندما يحمل مفاهيم يصعب تحميلها لتعبير معرّب.

ما المقصود بالجندر (Gender) إذن؟

الجندر لا يحيل إلى الخصائص الفيزيائية التي يتميز بها كل من الرجل والمرأة، بل إلى السمات الإجتماعية المكونة للرجولة وللأنوثة. إن كلمة جنس كما هي مستخدمة في اللغة العادية تؤدي إلى الإلتباس، إذ هي تشير في الوقت نفسه إلى فئة الشخص كما إلى الأفعال التي يتورط فيها. وللحفاظ على الوضوح، يجب الفصل بين المسألتين أو المعنيين. يجب أولاً التمييز بين «الجنس» الذي يعني الفروقات البيولوجية أو التشريحية بين الرجل والمرأة وبين الجنس الذي يعني النشاط الجنسي. ويجب أن نقوم أيضاً بتمييز آخر وأكثر أهمية هو التمييز بين الجنس والنوع (الجندر):

فالجنس يشير إلى الفروقات الفيزيائية للجسد، أما الجندر فيتعلق بالفروقات النفسية والاجتماعية والثقافية بين الذكور والإناث. ان التمييز ضمن هذا المنحى يعد الآن جوهرياً، إذ ان الكثير من الفروقات بين الذكور وبين الإناث ليس بيولوجيّ الأصل(١).

(٭) هناك من يترجم تعبير جندر بكلمة الجنوسة، لكنّ هذه الكلمة لا تحمل في داخلها جميع دلالات Gender، لذلك وجدت انه من الافضل نقلها الى العربية كما هي.

(١) Giddens, A.: *Sociology* (Polity Press, Cambridge). 1989.

عندما وضعت مخطط دراستي المتعلقة بالخلفية الاجتماعية للسجين، بمعنى معرفة إمكان الربط بين المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والمهني للسجين ولأسرته، وبين دخوله السجن، لم أقرر إدخال عامل الجندر، بمعنى إجراء مقارنة بين الرجال وبين النساء الذين في السجن، مع انني زرت سجن النساء؛ وذلك لأسباب عدة:

ـ أسباب نظرية:

إن أهم الوجوه التي طوّرت نظريات علم النفس وعلم الاجتماع في الماضي قد وضعها رجال، وكتابات هؤلاء لم تبد (نسبياً) اهتماماً كافياً بموضوع جنس الكائن البشري أو نوعه الاجتماعي والثقافي، أي ما يدعى اليوم الجندر.

يبدو الإنسان في هذه الأعمال محايداً، والناس في هذه الدراسات ممثلين مجردين اكثر منهم رجالاً ونساء. لذلك هناك صعوبة في بناء مواضيع تعتمد على خلفية نظرية تأخذ بعين الاعتبار عامل الجندر كي يتم بناء اشكال من التفكير النظري؛ إذ هل علينا بناء الجندر كفئة عامة من التفكير السوسيولوجي (مثل الفئة الاجتماعية والفئة الثقافية والفئة الاقتصادية. . .) أم اننا نحتاج إلى تحليل جندري لموضوع معين بواسطة تجزئة العوامل المؤثرة إلى أجزاء اكثر تخصصاً وتحديداً، لها أثرها على الرجال والنساء في ما يتعلق بهوياتهم وسلوكهم الاجتماعي في كل الثقافات؟

وإذا كان الجندر يتعلق بالعلاقات بين الهويات وبين السلوك عند الرجال والنساء، فما هو اثر الاثنية والثقافة، إن لم نقل الدين، على هذا العامل تحديداً؟ هل يكون لدى المرأة من أقلية ما (السود/ البيض، الغربيين/الشرقيين، المسلمين/المسيحيين. . .) ما يجمعها مع الرجال من هذه الأقلية اكثر مما يجمعها مع امرأة من عرق مختلف أو ثقافة أو طائفة أخرى؟

ـ أسباب ميدانية:

إن نسبة اشتراك النساء في السلوك الجانح اقل من نسبة الرجال بكثير، إذ بلغت النسبة في لبنان عام ١٩٩٥ ما مقداره ٢,٦٥٪، وبلغت هذه

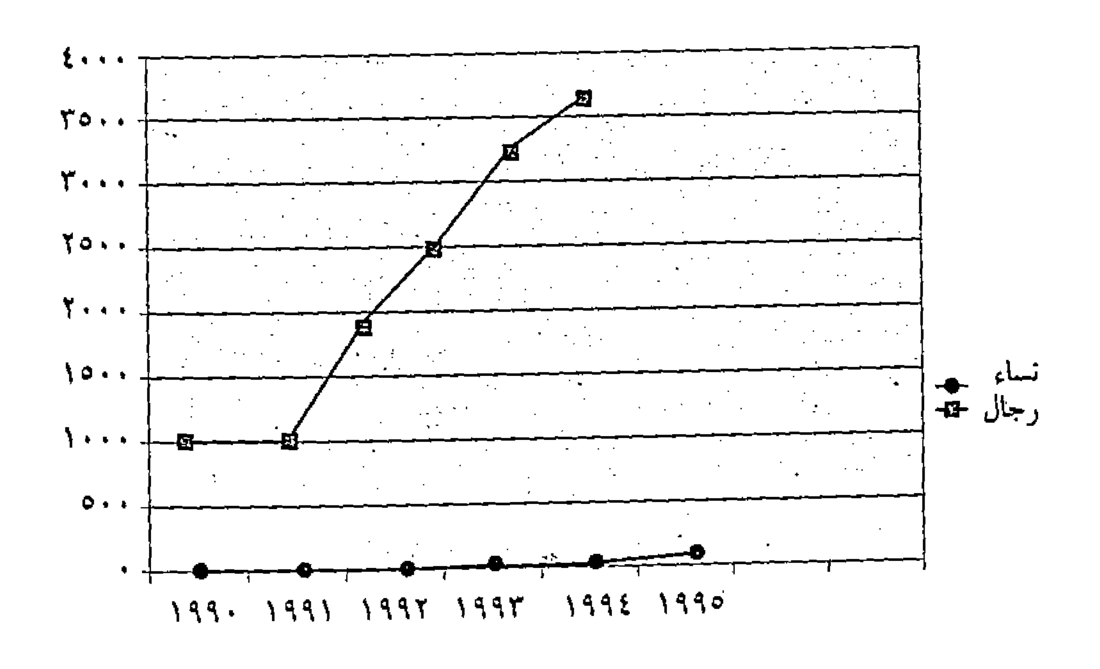
النسبة في إنجلترا عام ١٩٨٦ ما مقداره ٣٪[٢]. وتعد هذه النسبة عامة هي نفسها في معظم المجتمعات تقريباً.

الجدول رقم ٤٤:

تطور أعداد السجناء والسجينات في السجون اللبنانية

السنة	تكرار النساء	تكرار الرجال	النساء ٪	الرجال ٪	المجموع
١٩٩٠	٢٤	٩٧٧	٢,٣	٩٧,٦	٩٩,٩٩
١٩٩١	٢٠	٩٨٤	١,٩	٩٨,٠	٩٩,٩٩
١٩٩٢	٣٠	١٨١٦	١,٦	٩٨,٣	٩٩,٩٩
١٩٩٣	٤٤	٢٤٦٦	١,٧	٩٨,٢	٩٩,٩٩
١٩٩٤	٦٣	٣٢٢٩	١,٩	٩٨,٠	٩٩,٩٩
١٩٩٥	٨٨	٣٦٦٣	٢,٣	٩٧,٦	٩٩,٩٩

رسم بياني يظهر الجدول ٤٤



(٢) *Ibidem:* p. 140

السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل تشكل هذه النسب سبباً كافياً لعدم أخذ النساء بعين الاعتبار أو لتغييب عامل الجندر في هذا النوع من الدراسات؟

يستتبع ذلك سؤالاً آخر: هل ان العنف والجناح خاصية يحتكرها الرجال[٣] وبالتالي تنتفي أسباب دراستهما عند النساء؟

أم أن الأمر يعود إلى ان فرص تعرض النساء للعنف اقل مما هي عند الرجال، وان فرص الجناح هي بالتالي أقل عندهن مما هي عند الرجال، لذلك فان ابتعادهن ليس تعففاً، بدليل ازدياد أعداد السجينات مع الوقت؟ (كان دوركهايم قد لاحظ انخفاض أعداد المنتحرات من النساء وأرجعه إلى ان مشاركة المرأة في الحياة العامة. اقل من مشاركة الرجل[٤].

أم أن القدرة في التعبير عند المرأة أقل مما هي عند الرجل وعلى جميع المستويات، بما في ذلك التعبير العنفي، أو خصوصاً على هذا الصعيد؟ فالصورة المثالية للمرأة هي صورتها كطيعة وممتثلة هادئة.

ان وضعية المرأة الدونية أو الأكثر وضاعة في المجتمع الحديث (إذ لا وجود لبلاد لا يكون فيها وضع الرجل أغنى وأفضل وأكثر تأثيراً من وضع المرأة، فالرجل ينتمي حكماً إلى العام حيث يمكنه الحصول على القوة والثروة). هذه الوضعية الدونية ربما يجب أن تضع المرأة في مقدمة الجانحين، إذ ان الضغط عليها كي تنجح (عندما يكون ذلك هدفها) يكون اكثر بكثير مما هو على الرجل؛ لكن غلبة انتمائها إلى الخاص ربما كان هو بالذات ما يجعلها أقل تعرضاً لإغراء الجناح، إذ لا تزيد نسبة المرأة العاملة في أحسن البلدان وأكثرها تقدماً عن ٤٥٪ من اليد العاملة[٥]، مع ذلك من الملاحظ عدم ازدياد نسبة الجانحات من النساء بحسب تزايد عددهن في ميدان العمل أو العام. أم ان الرقابة على العنف عند المرأة اقل مما هي على الرجل بسبب الرأي القائل بأن المرأة «بطبيعتها» أقل ميلاً وأقل

---

(٣) Sabini, J.: *Social Psychology* (W-W-Norton & Company - New-York - London). 1992. Chapter 6.

(٤) Voir Durkheime, E.: *Le Suicide* (PUF-Paris). 1981. p. 389.

(٥) Giddens, A. *op. cit.* p. 180.

استعداداً لممارسة هذا العنف؟ وبالتالي تظهر الرقابة البوليسية تسامحاً أكبر تجاه المرأة ؟

هذه التساؤلات مبررة لأن الكثير من الدراسات النظرية الغربية لم تتوافق على نظرة موحدة إلى الموضوع ومنها من يصل إلى نتائج متضاربة، لذا يخلص مؤلف كتاب *Perspectives on Deviance* إلى ان موضوعة الجندر موضوعة محيرة ولا تسمح الأبحاث الموجودة حتى الآن بتحديد تمايزات واضحة بين السلوك الجانح للرجال وللنساء(٦).

لذا وضعت على نفسي محاولة البحث في الأسئلة التالية :

- هل يتوجب علينا اللجوء الى التماس مختلف عند نقاش الخلفية الاجتماعية للسجين أو السجينة؟

- هل تتغير أسباب الانحراف وأنواعه بحسب الجندر؟

- هل يجب البحث عن اثر الجندر في دراسات كهذه قبل السجن أم بعده، مثيرين بذلك مسألة الاندماج الاجتماعي؟

- هل يجب البحث عن الاختلاف، إذا وجد، في عملية بناء القوانين نفسها، بما تتضمنه من معايير وقيم اجتماعية؟ وتطرح هنا المسألة الثقافية وأثرها على التمايز الجندري.

سوف أحاول في هذه الصفحات ان أبحث عن بدايات أجوبة أو ربما فقط عن كشف بعض الملاحظات التي تثير التساؤل، من خلال متابعة الذين تعرضوا للعقاب أو على الأقل الذين سجلت أعمالهم الجانحة من الرجال والنساء، وذلك من خلال القيام بعملين:

- الأول مراجعة التقارير الأمنية التي تصدرها يومياً مديرية الأمن الداخلي(*)، ثم تعود فتصدرها في تقارير سنوية. وسأقوم بمراجعة سريعة لها من منظار جندري، وذلك منذ العام ١٩٧٤ وحتى العام ١٩٨٨،

---

(٦) Liska, A. E.: *Perspectives on Deviance* (Printice-Hall, INC., Englewood Cliffs, New jersey). 1987.

(*) التقارير الأمنية هي عبارة عن لوائح تتضمن حوالى سبعين مخالفة وجنحة، وهي تضم المخالفات المتعلقة بأمن الدولة أو الاعتداء على الأشخاص والممتلكات ونقل الأسلحة أو المخالفات المتعلقة بالسير وحوادثه أو تلك المتعلقة بالآداب، الخ . . .

باستثناء العام ١٩٧٦ الذي لم تجر في أثنائه إحصاءات دقيقة بسبب اشتداد الحرب. وقد توقفت عند العام ١٩٨٨ لكون إحصاءات السنوات اللاحقة له غير متوافرة للسبب عينه. وهي قد عادت الى الظهور بشكل منظم في العام ١٩٩٣.

ـ الثاني مقارنة بين عينتين عملت عليهما في الفترة الماضية وهما عينة من ٤٧ امرأة كن موجودات في سجن النساء في بعبدا في العام ١٩٩٥، وعينة أخرى من ٢٥١ رجلاً كانوا موجودين في سجن بيروت في العام ١٩٩٦. المقارنة سوف تطال أنواع الجرائم والخلفية الاجتماعية (الحالة المدنية، مستوى التعليم، العمر، حجم المسكن، نوع العمل. . .).

الخصوصية اللبنانية؟

سمحت لي العودة إلى التقارير الأمنية المذكورة أعلاه ملاحظة بعض الأمور الملفتة. (انظر جدول رقم ٤٥).

شكلت نسبة الجنح عند النساء في العام ١٩٧٤، أي ما قبل الحرب ٦٢,٩٪، وعند الرجال٤٧,٧١٪ من المجموع العام للجنح والجرائم، ولا يبلغ هذا الرقم نسبة المئة بالمئة لأن هناك جرائم تظل مجهولة الفاعل عادة. وظلت النسبة على حالها تقريباً في العام الذي تلاه (١٩٧٥). ثم بدأت بالانخفاض نسبياً في الأعوام التالية حتى العام ١٩٨١، حتى بلغت أدنى نسبة لها عام ١٩٨٢ إذ كانت ٨٣,٠٪ عند النساء و٤١,٧٪ عند الرجال. ومن ثم عادت الأرقام إلى الارتفاع بعد ذلك.

وبلغت نسبة الجنح عام ١٩٨٣، ٢٥,٦٪ عند النساء و١٤,٥٥٪ عند الرجال. إلى ان عادت إلى الانخفاض منذ العام ١٩٨٥ وحتى العام ١٩٨٨، بسبب اشتداد الحرب الأهلية التي تمنع تسجيل المخالفات[٧]، فبلغت نسبة لا تتعدى ٧,٢٪ عند النساء و١٢,٣٩٪ عند الرجال.

(٧) أنظر مقالة منى فياض: الحرب والعنف: قراءة في التقارير الأمنية في ذاكرة لبنان، ١٩٩٤، معهد التوثيق والأبحاث اللبنانية، بيروت، ص ١١٤ـ١٢٦.

جدول رقم (٤٥)

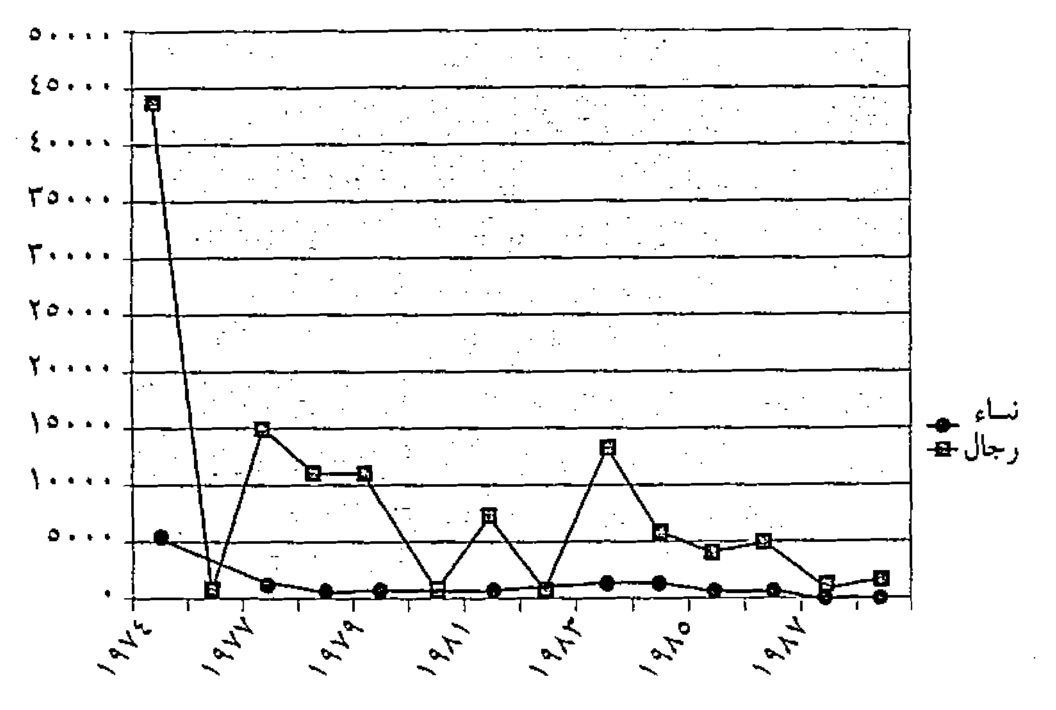
ا	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل
		جنح وجرائم								مقارنة بين جرائم الجنسين بالنسبة إلى بعضهما البعض	
السنة	#نساء	#رجال	المجموع	٪نساء	٪رجال	#نساء	#رجال	٪نساء	٪رجال		
						جرائم شرف		جنح وجرائم شرف		٪جنح وجرائم شرف	
										نساء	رجال
١٩٧٤	٥٧٦٩	٤٢٨٦٠	٥٩٩٦٢	٩,٦٢١٠٩٣	٧١,٤٧٨٦	١٠٤٦	١٤٩٠	١,٧٤٤٤٣٨	٢,٤٨٤٩٠٧	١٨,١٣١٣٩	٣,٤٧٦٤٣٥
١٩٧٥	١٠٧٤	٨٢٣٥	١١٨٦٥	٩,٠٥١٨٣٣	٦٩,٤٠٥٨٢	٢٤٨	٢٤٧	٢,٠٩٠١٨١	٢,٠٨١٧٥٣	٢٣,٠٩١٢٥	٢,٩٩٩٣٩٣
١٩٧٦	١٥٢٦	١٥١٦٥	٢٤٨٠٨	٦,١٥١٢٤٢	٦١,١٢٩٤٧	٢٠٠	٤١٢	٠,٨٠٦١٩٢	١,٦٦٠٧٥٥	١٣,١٠٦١٦	٢,٧١٦٧٨٢
١٩٧٨	٩٥٢	١٠٦١٣	٢٢١١٤	٤,٣٠٤٩٦٥	٤٧,٩٩٢٢٢	١٢٧	٢٩٩	٠,٥٧٤٢٩٧	١,٣٥٢٠٨٥	١٣,٣٤٠٣٤	٢,٨١٧٣
١٩٧٩	١٢٢٨	١٠٦٩٢	٢٠٤٥٦	٦,٠٠٣١٢٩	٥٢,٢٦٨٢٨	٢١٤	٣٠٦	١,٠٤٦١٤٨	١,٤٩٥٨٩٤	١٧,٤٢٦٧١	٢,٨٦١٩٥٣
١٩٨	١٠٤٨	٩٨٦٤	١٨٥٣٧	٥,٦٥٣٥٥٨	٥٣,٢١٢٩٤	٢١٨	٣٠٧	١,١٧٦٠٢٦	١,٦٥٦١٤٧	٢٠,٨٠١٥٣	٣,١١٢٢٢٨
١٩٨	٩٤٧	٨٠٥٥	١٦٥٧٤	٥,٧٣١٧٦٩	٤٨,٦٠٠٢٢	١٢٦	٢٠٩	٠,٧٦٠٢٢٧	١,٢٦١٠١١	١٣,٣٠٥١٧	٢,٥٩٤٦٦٢
١٩٨	١٢٧	١١٢٦	١٥١٧٧	٠,٨٣٦٧٩٣	٧,٤١٩١٢١	١٤	٣١	٠,٠٩٢٢٤٥	٠,٢٠٤٢٥٦	١١,٠٢٣٦٢	٢,٧٥٣١٠٨
١٩٨	١٤٢٢	١٢٥٣٠	٢٢٧٢٢	٦,٢٥٨٢٥٢	٥٥,١٤٤٧٩	١٧٥	٣٤٢	٠,٧٧٠١٧٩	١,٥٠٥١٤٩	١٢,٣٠٦٦١	٢,٧٢٩٤٤٩
١٩٨	٧٧٠	٦٤٠٩	١٥٥٩٤	٤,٩٣٧٧٩٧	٤١,٠٩٩١٤	٥٨	١٥٧	٠,٣٧١٩٣٨	١,٠٠٦٧٩٧	٧,٥٣٢٤٦٨	٢,٤٤٩٦٨
١٩٨	٢٦٨	٣٦٩٤	١١٨٨٥	٢,٢٥٤٩٤٣	٣١,٠٨١١٩	١٣	٦٩	٠,١٠٩٣٨٢	٠,٥٨٠٥٦٤	٤,٨٥٠٧٤٦	١,٨٦٧٨٤٩
١٩٨	٣٣٨	٤٧٥٧	١٢١٥٨	٢,٧٨٠٠٦٣	٣٩,١٢٦٥	١٢	٨٨	٠,٠٩٨٧	٠,٧٢٣٨٠٣	٣,٥٥٠٢٩٦	١,٨٤٩٩٠٥
١٩٨	٩٧	١٥٣٦	٦٠٧٠	١,٥٩٨٠٢٣	٢٥,٣٠٤٧٨	٢	٢٠	٠,٠٣٢٩٤٩	٠,٣٢٩٤٨٩	٢,٠٦١٨٥٦	١,٣٠٢٠٨٣
١٩٨	١٨٦	٢١٥٠	٧١٧١	٢,٥٩٣٧٨١	٢٩,٩٨١٨٧	٢٢	٣٠	٠,٣٠٦٧٩١	٠,٤١٨٣٥٢	١١,٨٢٧٩٦	١,٣٩٥٣٤٩

ماذا تعني هذه الأرقام التي تشمل جميع المخالفات المسجلة لدى الجنسين؟ ربما تعني ان المرأة تسجل هذه النسبة من المخالفات (يجب ألا ننسى ان هذه الأرقام تشمل حتى حوادث السير) في الأحوال العادية، وأن نسبة انخفاض الجرائم والجنح والمخالفات شملت الجنسين دون تمييز بسبب الحرب الأهلية، وظلت نسبة المخالفات متوازنة بين الجنسين بشكل عام (انظر الجدول رقم ٤٦).

جدول رقم (٤٦):

مقارنة بين جرائم النساء وجرائم الرجال (جميع الجنح والجرائم)

مقارنة بين العمودين ب ـ ج من الجدول رقم ٤٥



لكن العودة إلى الأرقام بالتفصيل جعلتني أرى خصوصيات أخرى لا تظهر للوهلة الأولى. ففي الرسم البياني رقم «٤٦»، يظهر الفاصل الكبير الذي كان قائماً بين الرجال وبين النساء لجهة ارتكاب المخالفات قبل عام واحد على الحرب، كما يظهر اقتراب الخطين البيانيين نسبياً منذ اندلاعها، مع ملاحظة التصاقهما تقريباً في العام ١٩٨٢ (عام الاجتياح)، مما يعني ان الحرب تسببت في إنقاص نسبي في أعداد الرجال المسجلين كمخالفين اكثر مما فعلت تجاه النساء. ينتج عن ذلك انه في كل مرة يضطرب فيها الأمن بشدة تقترب أرقام المخالفات بين الجنسين بشكل لافت، مما يعني ان من يفلت من العقاب في مثل هذه الظروف هو

الرجل، بينما تظل المرأة تحت المراقبة، وبحسب التقاليد، أي في ما يتعلق بسلوكها الجنسي خاصة. هل يمكن قراءة سمة تمييزية هنا ضد مصلحة النساء؟ أم ان الجرائم والجنح المسجلة طالت فئة «الضعفاء» من الرجال ومن النساء على السواء، بينما غاب تسجيل جنح وجرائم الأقوياء أو المتسبين إلى المتحاربين على اختلاف مشاربهم؟ هذا الأمر يجعل النساء مرة أخرى في فئة الضعفاء حكماً، وذلك لاقتراب الخط البياني بين الجنسين بنسبة عالية عما كانته قبل الحرب، مما يعني زيادة نسبية في المخالفات المسجلة ضد النساء.

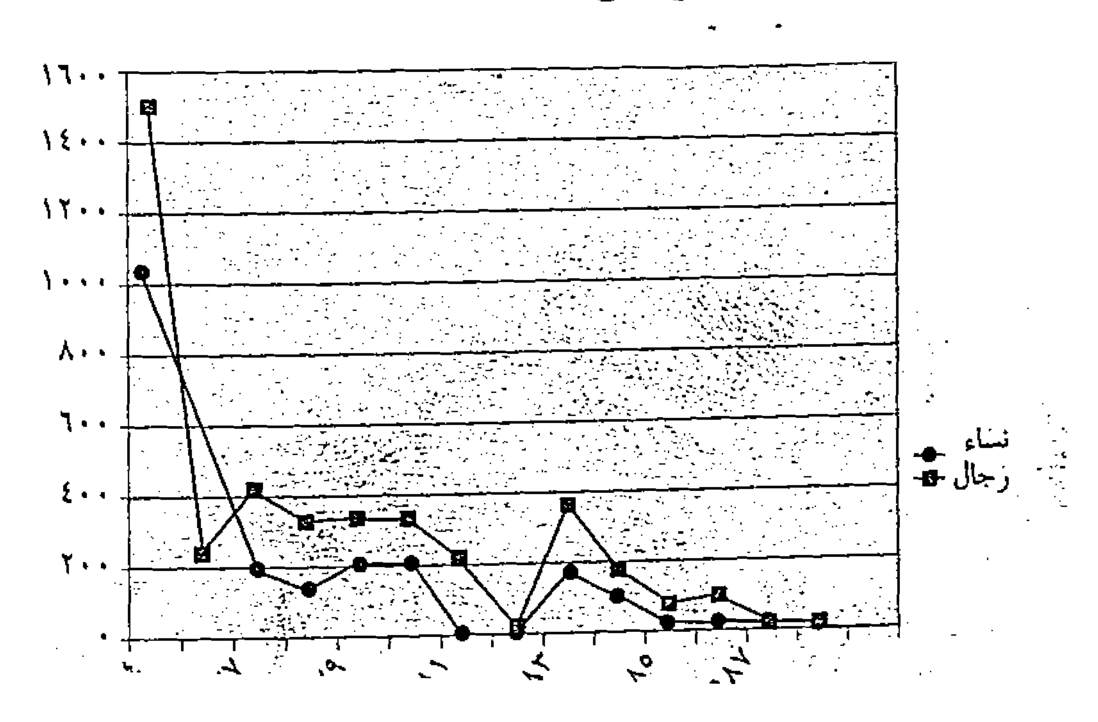
ثمة أمر آخر، ان نظرة سريعة إلى الأرقام تجعلنا ندرك ان نسبة الجنح والجرائم المتعلقة بالنساء تتكون في معظمها من الجنح المتعلقة بالشرف (زنا واغتصاب واختطاف وحجز حرية واختطاف بهدف الزواج وتعرض للآداب العامة وتسهيل دعارة وإجهاض). والرسم البياني رقم «٤٧» يظهر نسبة جرائم ومخالفات الشرف بالنسبة إلى المجموع العام لكلا الجنسين. ونلاحظ هنا تقارب هذه الأرقام. ولكن ماذا يعني تقارب الأرقام بين الجنسين؟

جدول رقم (٤٧):

مقارنة لجرائم الشرف بحسب الجنس وبحسب نسبتها المئوية

مقارنة بين العمودين ز - ح

مجموع جنح الشرف للرجال وللنساء



إن تقارب الأرقام يعني تمييزاً ضد المرأة. إذ ان هذه الأرقام شملت فقرة اغتصاب، وهي جريمة يرتكبها الرجل بحق المرأة، كما شملت اختطافاً وحجز حرية، واختطافاً بهدف الزواج، وهي أيضاً جنح يكون الرجل فيها هو الفاعل. بينما تشترك المرأة بفاعلية في فقرات الزنا والتعرض للآداب العامة والدعارة والإجهاض. ان تقارب نسب تسجيل المخالفات التي تتعلق بالجنس عند الجنسين والتي بلغت قبل الحرب (١٩٧٤) ٧٤. ١٪ عند النساء و٤, ٢٪ عند الرجال، ثم انخفضت إلى ٨٠, ٠٪ عند النساء و٦٦, ١٪ عند الرجال (١٩٧٧)، يعني ان الرقابة المتشددة في هذا الميدان تقع على المرأة التي تشكل مخالفاتها نسبة لا تتجاوز ١٠٪ من المخالفات والجنح والجرائم العامة مقابل نسبة تبلغ اكثر من ٧٠٪ عند الرجل. ونجد أنها تصبح أحياناً معادلة للجرائم التي يرتكبها الرجل وتبلغ نسبة ٠٩, ٢٪ عند النساء مقابل ٠٨, ٢٪ عند الرجال عام ١٩٧٥. كذلك تتساوى تقريباً في عامي ١٩٧٩ و١٩٨٠ وفي عام ١٩٨٥ وما يليه. (انظر الجدول رقم ٤٥ ـ الجدولين ز ـ ح وجدولي النسب المقارنة ط ـ ي. كذلك انظر الجدول والرسم البياني رقم ٤٨).

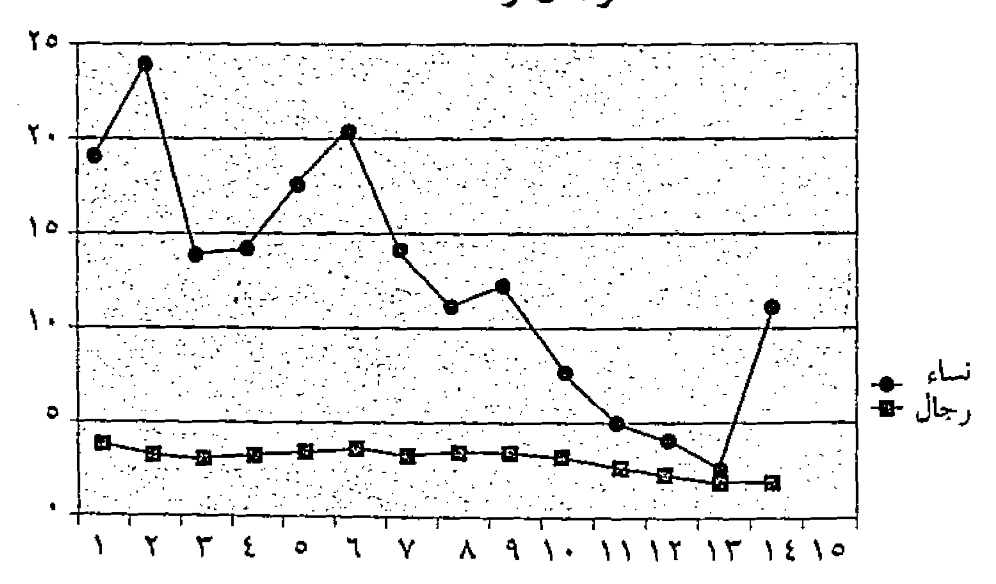
رسم بياني رقم ٤٨:

مقارنة لنسبة جرائم الشرف لكل من الجنسين (بالنسبة لجرائمهما العامة)

مقارنة بين العمودين ك ـ ل

النسبة المئوية لجرائم الشرف

رجال ونساء



يجعلنا ذلك نبحث عن احتساب نسبة مخالفات النساء في ما يتعلق بالشرف (أو بالجنس بتعبير آخر) من مجمل مخالفاتهن أنفسهن والنسبة نفسها عند الرجال فنجد الرسم البياني في الجدول رقم «٤٨» الذي يوضح ان نسبة المخالفات هذه قد تصل عند المرأة إلى ٢٣٪ من مخالفاتها (في العام ١٩٧٥ وهو عام الحرب، زاد الرقم المتعلق بجرائم الشرف عند النساء عنه عند الرجال وبلغ ٢٤٨ أما عند الرجل فبلغ ٢٤٧، بزيادة نسبية تبلغ حوالى ٥٪). أما عند الرجل فأقصى ما تبلغه هذه النسبة، نسبة جرائم أو مخالفات الشرف من مجموع مخالفاته، لا يتعدى نسبة مقدارها ٥,٣٪ للعام ١٩٧٥، والعام ١٩٨٠ (لمزيد من الوضوح يمكن مراجعة العمودين ك - ل من الجدول رقم ٤٥). ألا يعني ذلك أن الرقابة المشددة تقع على المرأة في هذه الدائرة المتعلقة بالجنس وأن الرقابة الاجتماعية تمارس عليها في هذا الإطار بشكل خاص؟

ربما ليس باستطاعة الرقم وحده تبيان مختلف الدلالات القابعة خلفه وربما علينا استنطاق الأشخاص أيضاً لفهم العلاقة بين الرقم وبين دلالاته الاجتماعية، وإذا كان الفرد ككائن اجتماعي لا يفعل سوى اتباع المعايير أو مخالفتها يستدعي ذلك أيضاً السؤال التالي: لم هذه النسبة الكبيرة من كسر المعايير الاجتماعية المتعلقة بالشرف من قبل المرأة؟ إذ ان هذه الأرقام تعيد إلى الأذهان الفكرة السائدة عن الأنوثة في مجتمعاتنا التقليدية والتي تبرز المرأة ككائن شهواني بحاجة دائمة إلى الضبط والمراقبة[8]، فهل تقوم المرأة فعلاً بكسر المعايير السائدة والمتعلقة بالشرف أم ان الرقابة الحصرية عليها هي التي تتشدد في محاسبتها على هذا المستوى وتحاصرها عبره وتضع اللوم عليها منفردة دون شريكها في المخالفة من الجنس الآخر؟ هنا أيضاً تطرح مسألة القوانين.

هل بإمكاننا قراءة هذه الأرقام بشكل مختلف، وما الذي يسمح لنا بذلك؟

سوف أورد بعض الملاحظات التي سمحت لي بها زياراتي المتكررة إلى السجن وبعض الحالات التي تسنى لنا الاطلاع عليها من خلال العمل الميداني لطلابنا في علم النفس، وأيضاً بعض الملاحظات العامة الأخرى

---

(٨) المرنيسي، فاطمة: **الجنس كهندسة اجتماعية**، ترجمة فاطمة الزهراء زريول (المركز الثقافي العربي، بيروت)، ١٩٩٦، ص ٢٦ - ٢٧.

التي يمكن الاسترشاد بها في محاولتنا إبراز التمايز بين الرجال والنساء على مستوى العقاب.

في إحدى زياراتي إلى السجن، فوجئت بدخول الدرك بصحبة امرأة مكبلة، أحضرت من طرابلس. كانت المرأة في حالة عصبية صعبة وكانت ترتدي ملابس عادية هي عبارة عن جينز وكنزة من الصوف. سألت المرأة عن سبب إحضارها فأبلغتني أن رجال الأمن قبضوا عليها في منزلها بتهمة الدعارة، وقالت انها كانت تتلقى زيارة جار لها، وكانت بكامل ملابسها، أي انها لم تضبط عارية ومع ذلك اقتيدت إلى السجن .بدا التعاطف على وجهي، فيما بقيت مديرة السجن محافظة على رباطة جأشها (إذ هي معتادة على مشاهدة مثل هذه الحالات دائماً). نظرت إليّ المرأة وسألتني: هل هذا منظر امرأة تمارس الدعارة؟ (قالت ذلك فيما كشفت لي عن ساقها المغطاة بالوبر الكثيف، وأشارت إلى شعرها غير المصفف) ألا يجدر بي حينها أن أعتني بنفسي بشكل افضل؟ استفهمت منها عن قصتها، فأخبرتني أنها امرأة مطلقة بسبب استغلال زوجها لأموالها التي كانت تكسبها من تجارة لها، ولأسباب أخرى ربما. وهي أم لخمسة أطفال يعيشون مع الأب ويمضون معها عطلة نهاية الأسبوع، بينما هي تتابع عملها في التجارة، وأنه تم القبض عليها بناء على بلاغ ولم تعرف مصدره.

غادرت السجن لكن صورتها لم تفارقني، شعرت بمرارتها وبالغبن الذي لا بد أنها شعرت به عند القبض عليها، فلو صحّت تهمتها لكان يجب القبض على الطرفين المعنيين وليس على أحدهما، على أن يتم التأكد من التهمة على الأقل.

عندما عدت إلى السجن في الأسبوع التالي سألت عن السيدة وقيل لي انها غادرت السجن بعد خمسة أيام وتبين أنها بريئة.

هل توقفت مشكلة السيدة عند هذا الحد؟ هل استعادت وضعيتها السابقة؟ هل تظل امرأة «محترمة»؟ هل تتساوى هنا المرأة بالرجل الذي يتبين انه بريء؟ وإذا كان عزاء الرجل ان «السجن للرجال» فما هو عزاء المرأة في هذه الحال؟

أذكر أنني عند وصولي أول مرة إلى السجن حاورت مديرته، وهي سيدة لطيفة وتبدو متعاطفة مع سجيناتها من الناحية الإنسانية، مع ذلك أذكر أنني سألتها هل تقبل أن يتزوج أخوها من سجينة سابقة، فأجابتني بمنتهى الصراحة:

«لا أرضى أن يتزوج أخي من مسجونة سابقة، ليست كل سجينة مجرمة أو مذنبة، لكنها بالنسبة للمجتمع «مشموسة» ليس لي بالضرورة، لكني مع ذلك لا أرضى لأخي ذلك، لأن أقل واحد سوف يتهمها .صحيح انهم بشر مثلنا لكن من يؤكد ذلك للمجتمع؟ ربما باستطاعتها أن تذهب إلى مجتمع آخر، تسافر لتعيش حياتها». السجن إذن يعني القضاء على حياة بكاملها، على صاحبة «سابقة» ما ان تختفي في مجتمع آخر وأن تجد لها حياة بديلة.

هل يحمل كسر القاعدة الاجتماعية المعنى نفسه بالنسبة إلى الرجل والمرأة في مجتمعنا خصوصاً؟

ان كيفية معاملة الناس لنا تتعلق بكيفية تفكيرهم بنا وبالصورة التي يرسمونها لنا، وهذا متعلق بالانطباعات التي يأخذونها عنا. وكلنا يعلم ان من مصلحتنا ان نؤثر على كيفية تفكير الناس بنا، وسلوكنا هو ما يسمح لنا بذلك. لذلك إن الطريقة التي يعامل بها الإنسان الآخرين تعبّر عنه وتتضمن تعريفاً للفرد ذاته. وهذا التعريف معبّر عنه في المشهد الاجتماعي حيث تنتظم هذه العلاقة نفسها بشكل مباشر، ونمط التعامل هذا تديره وتحدده المعايير الاجتماعية. هذه المعايير لا تتسامح مع المرأة وخاصة على الصعيد الأخلاقي، لذا سوف تتسبب إدانتها أو تهمتها بالقضاء عليها ككائن اجتماعي في الوقت نفسه، وسوف ينظر إليها على اقل تقدير كامرأة مشكوك في سلوكها وفي أخلاقها، أي سوف تصبح امرأة موسومة وفي هذا قدر من الإقصاء نعلم جميعاً مداه ومعناه .وترى مديرة السجن ان المرأة تتعرض للانحراف اكثر من «البنت» (تقصد العذراء) التي تتمتع بحماية اكبر، وان ظروف البيت السيئة عند البنت هي التي تخلق لها المشاكل، والفتاة الأمية معرضة للانحراف (استعملت هنا تعابير الغلط والسقوط وهي تعابير شائعة وخاصة بالمرأة التي تنحرف أخلاقياً) اكثر من المتعلمة، والفقيرة اكثر من الغنية وهكذا.

حالة سمر أو عمق المشكلة

مع ذلك سوف أورد حالة فتاة تعرضت للاغتصاب كي أظهر ان المشكلة اعمق من ذلك، فلا حماية جدية «للبنت» على هذا المستوى، وأن تعرضها للاغتصاب يقابل على انه جريمة شرف تكون هي مسؤولة عنها كما لو أنها متورطة بفاعلية.

التقت إحدى طالباتي بفتاة تبلغ من العمر ١٨ عاماً في دير، لنقل إن اسمها «سمر»، لم تكن سمر تتكلم مع أحد وكانت تجد صعوبة كبيرة في التعبير، عندما تتكلم تفرك يديها بشدة حتى الاحمرار وتتصبب عرقاً وتغطي رأسها بيديها كل الوقت وتجلس بطريقة تغطي بها جسدها وتضم يديها وتتقوقع إلى الأمام. هي في الدير منذ عامين ولم تقبل التحدث إلى أحد قبل أن تجلس مع طالبتي «لينا»، وهي قبلت في البداية أن تقابلها ولكن مع الكثير من الحذر ولم تبدأ الحديث معها إلا بعد أسبوع. عندما بدأت الكلام كانت تقول «قبل الحادثة» و «بعد الحادثة» تتكلم قليلاً وتشرد وتقول: إح إح، طوال الوقت؛ تنتقل من البكاء إلى الشرود و«تصفن» طويلاً. لزم الأمر عدة جلسات قبل أن تجرؤ على تسمية ما تعرضت له، أي «الاغتصاب». وملخص قصتها ان أحد معارف أسرتها، وهو قريب بعيد لجدتها، تعرض لها ذات يوم في الساعة السادسة صباحاً وهي في طريقها لزيارة عمتها في المستشفى. طلب منها أن تصاحبه وعندما رفضت حملها مع رفيق له بالقوة إلى سيارته واستخدم مادة مخدرة ولم تدر ما حصل لها إلا في اليوم التالي عندما أفلتها قرب المستشفى، شبه مخدرة، وطلب منها العودة إلى المنزل. رفضت ذلك وقصدت المخفر بعد أن وجدت قميصها وبنطلونها ممزقين ورأت آثار كدمات زرقاء على جسدها وصدرها. في المخفر اكتشفت آثار دماء بين فخذيها، نصحها الدركي بالاغتسال وبالذهاب إلى المنزل دون إخبار أحد (لمعرفته الأكيدة بما سوف ينتج عن الأمر، وقد أثار موقفه سخطها وواجهته بالرفض رغم أنه قد يكون نابعاً من شعور أو اهتمام أبويّ عند رجل الأمن)، لكنها رفضت ورفعت الشكوى وجاء الأهل وأخذوها إلى المنزل وهناك تعرضت للبهدلة وللضرب وحاول والدها أن يذبحها بسكين لولا تدخل الجدة واقتراح العمة بإرسالها إلى الدير. ووقع اختيار الأسرة على دير يقع في منطقة بعيدة جداً، وهي هناك منذ عامين، منعزلة لا تتكلم مع أحد ولا تذكر «حادثتها» ولا ترغب برؤية أفراد أسرتها ولا بالانتماء إليهم، تتمنى أن تذهب «بعيداً جداً، حيث لا أهل يتدخلون ولا راهبات»... ثم أضافت: «أريد ورقة تنازل من أهلي بأنني لست ابنتهم (محاولة للتأكد من عدم تخليهم عنها نهائياً)، تصوري عمتي وافقت عندما طلبت منها ذلك بدل ان تقول لي نحن اهلك ولا نستغني عنك». وقالت أيضاً: «لا أحب

الله لأنه أعطاني الحياة وأخذها مني. أنا الآن فتاة بلا شرف وأخاف أن أتزوج»...

هكذا ظل المعتدي حراً طليقاً بينما خسرت الفتاة حياتها الاجتماعية ومستقبلها، طالتها الإدانة هي نفسها ووقع اللوم عليها وبينما كانت بحاجة إلى الدعم والى المعالجة النفسية، ازدادت حالتها سوءاً بسبب موقف الأسرة والمحيط اللذين قاما بما يشبه إلغاءها من الوجود عمليا. ربما تجدر الإشارة هنا إلى ان الفتاة مسلمة من منطقة بعلبك وتم وضعها في دير يقع في منطقة أخرى بعيدة تماماً عن مدينتها. لم تطرح قضيتها للبحث مرة أخرى، إلا عندما قام المعتدي نفسه بعمل مماثل منذ فترة قريبة مع فتاة أخرى وتم القبض عليه هذه المرة بحسب ما تردد أمام طالبتي.

تظهر لنا هذه الحالة أن المرأة أو الفتاة مدانة حكماً حتى لو كان ما تعرضت له اغتصاباً، فكيف عندما يتعلق الأمر بالزنى أو بالدعارة ولو بمجرد الادعاء بهما؟ كما أن المرأة قد تدان إذا طلبت الطلاق.

حدثتني صديقة لي تعمل في الحقل الاجتماعي عن حالة امرأة هددتها أمها قائلة: إما زوجك وإما القبر. فاختارت المرأة هذا الأخير بأن قفزت من الطابق السابع وسقطت ميتة. قالت الصديقة ان الصحف نقلت هذه الحادثة صيف ١٩٩٦؛ وسبب المأساة ان هذه المرأة، وهي أمّ لولدين، كانت تتعرض للضرب من قبل الزوج وأرادت أن تتطلق منه (إذ ليس من الممكن أن نكتب ان تطلقه، لأنها لا تملك ذلك). ولكن الوالدة التي ربت ابنتها وابنها من دون أب، إذ انها هي نفسها مطلقة، لم ترد لابنتها المصير نفسه، فلجأت إلى التهديد دون أن تتفهم وضع ابنتها، مما دفع هذه الأخيرة إلى الانتحار.

أطلق المرحوم يوسف وهبي المثل الشائع: «شرف البنت مثل عود الكبريت، يشتعل مرة واحدة» ونعلم ان «كيفية اشتعاله» هي الأمر المهم، لأن أي ممارسة جنسية خارج الأطر الشرعية المتعارف عليها تشكل إدانة أكيدة للمرأة، دون الرجل في معظم الأحيان، حتى ولو تم الأمر في معتقلات العدو. حدثتني احدى الصديقات كيف انها قابلت مرة إحدى زائرات الشريط الحدودي وسألتها عن الأوضاع هناك وعن أوضاع المعتقلين وخاصة المعتقلات فقالت لها ما معناه «انهن هالكات» كما نقول عن شيء ما «هالك» بمعنى انه مستخدم. فهناك أشياء نستخدمها مرة واحدة ولا تعود

صالحة للاستخدام بعد ذلك مثل المحارم الورقية مثلاً، والمرأة، حتى المعتقلة السابقة (في بعض الاحيان وليس بالضرورة في جميعها)، أي من يجب اعتبارها بطلة بالمقاييس القديمة (أيام الثورات والمطالب الكبرى أو أيام جميلة بوحيرد) تتعرض بعد خروجها من المعتقل للنظرة «الخاصة» إياها. إن كل معتقل سابق عند الجيش الإسرائيلي يعاني من وضعية خاصة ويحتاج إلى إعادة تأهيل بعد الظروف القاسية التي يكون قد تعرض لها، لكن المرأة تعاني من وضعية خصوصية إضافية تتعلق «بشرفها المثلوم» ولو بالشبهة أو من دون إرادتها ودون ذنب منها. ويصبح أمر اغتصابها أو تعريتها أمام الجنود وزراً عليها وحدها حمله بدل مساعدتها على احتماله. ذلك انها لو «لزمت حدودها» ومكثت في منزلها لما واجهت ما تعرضت له.

شكت إحدى المعتقلات السابقات من ذلك إلى صديقتي العاملة الاجتماعية، وقالت انها صارت تحس بنظرة «خاصة» نحوها بعد خروجها من المعتقل، وقالت «اعتقدت انني سوف أخرج بطلة ولكنني اضطررت أن أدق باب بيتنا كي يفتحوا لي، بعد أن نقلني الصليب الأحمر» وأشارت عندما قابلتها إلى الصعوبات الحياتية والمهنية التي تواجهها. قد يجعلنا ذلك نعي مدى الصعوبات التي قد تعاني منها السجينة أيضاً على مستوى الاندماج الاجتماعي ما دام هذا هو حال المعتقلة.

التمايز في أنواع الجرائم والجنح بين الرجل والمرأة

سبق أن أشرت إلى التمايز في أنواع المخالفات بين الرجل والمرأة على صعيد لبنان ككل وفي ما يتعلق بالتقارير الأمنية التي ترصد يومياً أنواع المخالفات هذه. وسوف أنتقل الآن إلى معاينة الفروقات بين عينتين من السجناء والسجينات عاينتهما عن قرب.

في السجن

لا بد من الإشارة إلى اختلاف الالتماس والجو العام بين سجني النساء والرجال، إذ ان الرجل يبدو اكثر انضباطاً من المرأة واقل اعتراضاً على سجنه، في حين تشكو المرأة اكثر بكثير من الرجل بسبب سجنها وكأنها لا تقبل فكرة أن تسجن (والنساء يشكلن بالفعل نسبة ضئيلة من السجناء

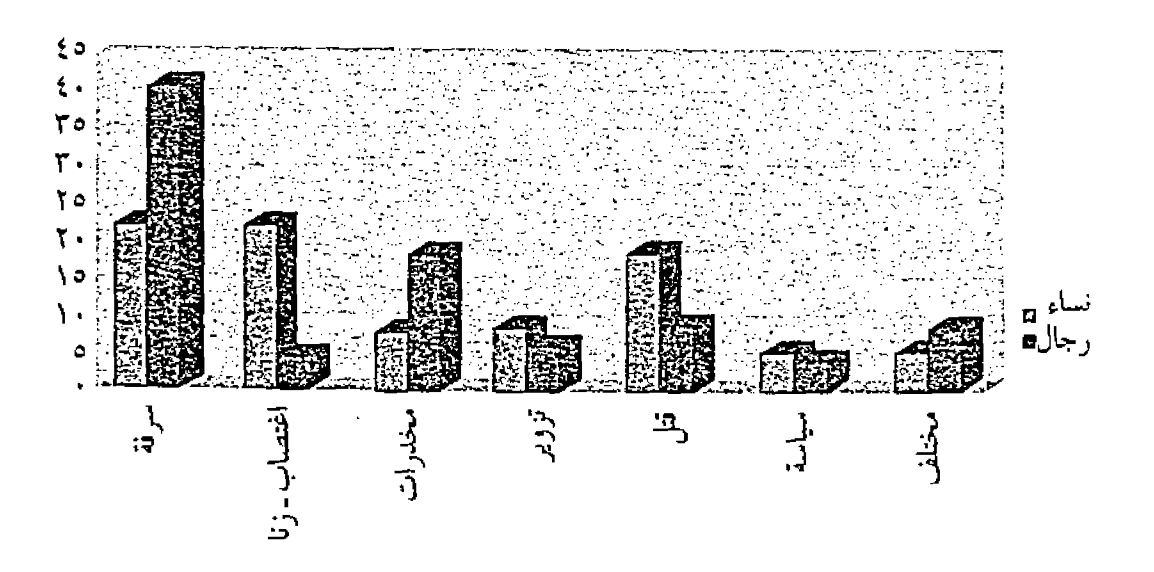
وتزايد أعدادهن في السجن أمر مستجد) إذن تتصرف المرأة ببعض النّزق وكأن لسان حالها «ألا يكفي أنني مسجونة ماذا تريدون اكثر من ذلك؟». لذا لاحظت ان النساء كن «على راحتهن» (نسبياً) اكثر من الرجال وتكلمن بعفوية اكبر وتصرفن بحرية اكبر. قد يكون ذلك بسبب كونهن نساء وقد يكون أيضاً بسبب صغر مساحة السجن أو لأن مديرته امرأة متفهمة وتبدي تعاطفاً شخصياً اكثر مما يفعل الرجل، خاصة ان كل أمور السجن توكل عامة إلى أفراد من الدرك أو رجال الأمن تكون وظيفتهم الأولى المحافظة على الأمن وليس على راحة السجين أو حالته النفسية. لذا شكلت عينة النساء ٤٧ امرأة فقط من اصل ٧٥ كنّ مسجونات، وذلك بسبب رفض الباقيات الإجابة عن الأسئلة وبسبب وجود الكثير بينهن من العاملات الاجنبيات من التابعية السريلانكية. بينما مثلت عينة الرجال ٢٥١ مسجوناً من أصل ٢٧٥، أي ان عدداً اكبر بكثير من النساء، نسبياً، تهرّب من الإجابة على الأسئلة.

كذلك كان بإمكان آمرة السجن أن تهيئ في السجن جواً اقرب إلى الجو الحميم مما يستطيع رجل أن يقوم به، ربما بسبب الأعداد الكبيرة من السجناء الرجال، وربما لأن ذلك لا يخطر بسهولة على بال رجل وخاصة عندما يكون رائداً أو حائزاً على رتبة غالية أخرى من رتب رجال الأمن، أي انه مطبوع بالنظام العسكري الصارم. فتطبخ النساء طعامهن (عندما يظل الأهل على صلة بهن ويمدونهن بما يلزم لذلك، ذلك ان المرأة عادة تتعرض للإهمال من قبل أسرتها عندما تسجن، ويتم التخلي عنها نهائياً في أحيان كثيرة) مما يعطي للسجن طابعاً أليفاً وحميماً. وتحاول المديرة التخفيف عنهن بتأمين الشومبوان والمحارم الورقية والفوط الصحية والسجائر (برغم أن السجائر مضرة بالصحة، فهي العزاء المتبقي للبعض منهن) أي بعض الضروريات التي لا تؤمنها سجون الدولة. وقد نستنتج من ذلك ان من الأفضل أن تكون السجون صغيرة الحجم وان تتم إدارتها على نمط البيوت وان يكثر من العنصر النسائي، خاصة كمرشدات اجتماعيات ونفسانيات.

في أنواع الجرائم:

الجدول رقم ٤٩:
مقارنة لنسب بعض الجرائم لدى الجنسين

أنواع الجرائم	٪ نساء	٪ رجال
سرقة	٢٣,٤	٤٢,٦
اغتصاب/زنا	٢٣,٤	٢
مخدرات	٨,٥	١٩,١
تزوير	١٠,٦	٧,١
قتل	٢١,٢	٩,٥
سياسة	٦,٣	٥,١
مختلف	٦,٣	١٤,٣
المجموع	١٠٠	٩٩,٩



إن ملاحظة النسب المئوية للجرائم وإجراء مقارنة بين جرائم النساء وجرائم الرجال، تجعلاننا ندرك مدى الاختلاف في توزع أنواع الجرائم بين الجنسين: ففي حين تشكل السرقة أعلى نسبة من جرائم الرجال ٦٣ , ٤٢٪ نجد أن نسبتها عند النساء تبلغ ٤ , ٢٣٪. وبينما تشكل جرائم الشرف عند المرأة نسبة ٤ , ٢٣٪ فهي تبلغ عند الرجل ١٣ , ٢٪ فقط، أي ان المرأة تزني وتمارس الفحشاء، ببساطة كما تسرق، بينما يبدو الرجل اكثر انضباطاً على هذا المستوى. من الملفت كذلك أن ٢٨ , ٢١٪ من جرائم النساء متعلقة بالقتل أو بمحاولة القتل، بينما تبلغ هذه النسبة عند الرجال (وبعد حرب أهلية دامت ١٧عاماً) ٥٦ , ٩٪. يمكن التفكير هنا بوجود تمايز بين الجنسين قد تسمح دراسة معمقة لحالاته بفهم أسبابه وأولوياته. لكن مع ذلك يمكننا إيراد بعض التفسيرات المبدئية حول الموضوع؛ إذ ربما يعود الاختلاف في أنواع الجرائم المرتكبة إلى الرقابة الاجتماعية الصارمة على المرأة فيما يتعلق بالجنس من ناحية، وإلى استخدام هذه الرقابة والأعراف والتقاليد التي تدين المرأة مسبقاً، كسلاح يستخدمه الرجل بسهولة ويلقى آذاناً صاغية ومستعدة للتصديق، بدليل أن ثلاثاً من اصل عشر متهمات بالزنى والدعارة يتهمن الزوج بتلفيق التهمة بداعي طلاق زوجته والتزوج من أخرى (تفقد المرأة بهذه الحالة حقوقها الشرعية) وفي إحدى الحالات يرفض الزوج تطليق زوجته فيتهمها بالزنى، وفي حالتين كان الصديق هو الذي اتهم المرأة التي يريد أن يجرها إلى الدعارة. وفي حالتين أخريين لم تستطع المرأة أن تخبر أي شيء عن سبب تهمتها بل قطعت الحديث. تبقى حالتان يظهر موقف المرأة فيهما ضعيفاً، الأولى عندما يكون زوجها في السجن فتقول انها تعمل في التجارة لتعيل أولادها، والثانية عندما تكون هي وزوجها في حالة هجر، أي عندما تقرر هي هجر زوجها. هذا ملخص وضع السيدات السجينات بتهمة الدعارة والزنى بحسب أقوالهن.

أما في ما يتعلق بجرائم القتل أو محاولته، فنلاحظ أن أربعاً من السجينات متهمات بقتل الزوج واثنتين بقتل ابن الزوج، وهذا بحد ذاته دلالة على نوعية وموضع الضغط الذي تتعرض له المرأة كي تقوم بمثل هذه الجرائم، هي التي يشكل انحرافها نسبة منخفضة في هذا الميدان.

الخلفية الاجتماعية للجنسين من السجناء:

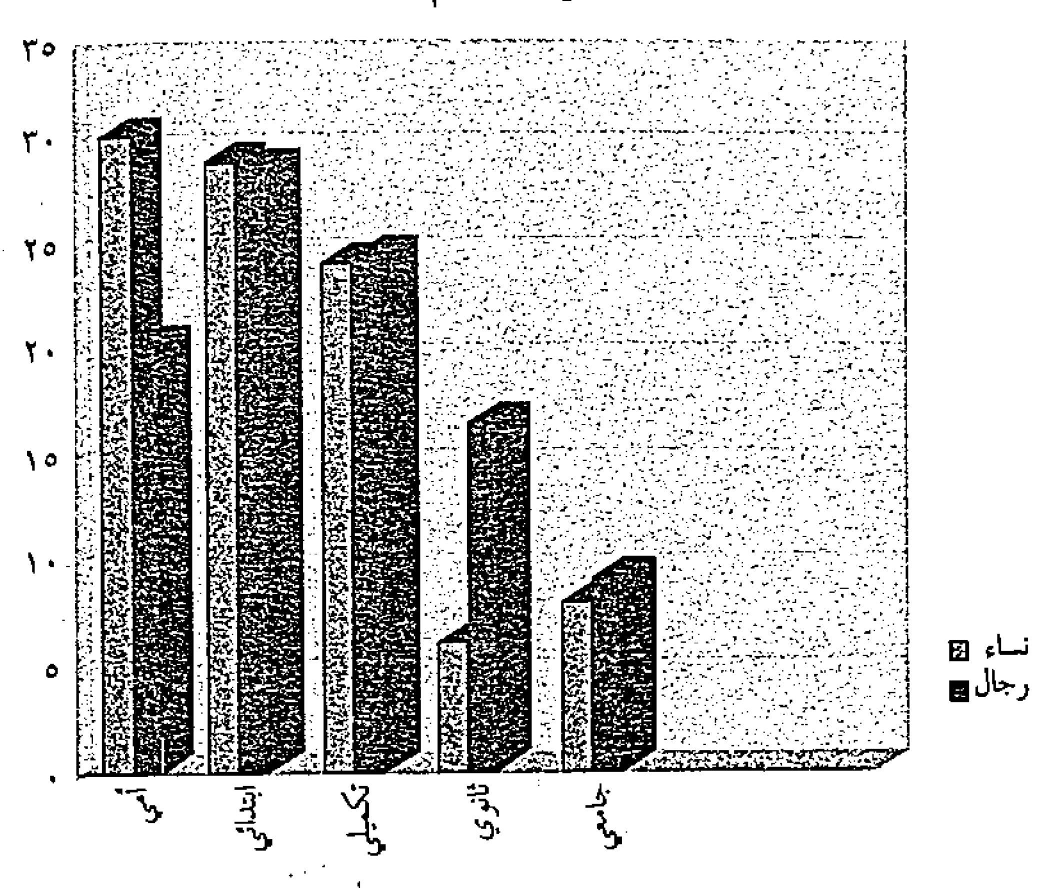
مستوى التعليم

في ما يتعلق بالمستوى العلمي للسجينات وللسجناء نلاحظ فرقاً واضحاً بين نسبة الأميين ونسبة الأميات. فنسبة السجينات الأميات تبلغ ٣١,٩٢٪ بينما تبلغ نسبة السجناء الأميين٣٣,١٨٪. لكن مقارنة هذه الارقام بالنسب العامة بالامية على مستوى لبنان وهي على التوالي ١٦٪ للنساء و ٧,٢٪ للرجال ويبلغ متوسطها ١١,٦٪ (بحسب دراسات احصائية باشراف غاسباريان، ١٩٩٧) مما يعني هشاشة أكيدة عند الأميات وعند من تلقوا تعليماً بسيطاً من الجنسين. لكن الفروقات ذات الدلالة تخف فيما يخص المستويات الأخرى (انظر الجدول رقم ٥٠). والأمر الأكيد هو ان أصحاب الحرف البسيطة والأميين هم اكثر تعرضاً للانحراف، المعلن على الأقل، من أصحاب المستويات العلمية العالية أو أصحاب الأعمال الذهنية أو الذين ينتمون إلى الفئات العليا.

الجدول رقم ٥٠:
مستوى التعليم

	رجال	نساء
أمي	١٨,٣٣	٣١,٩٢
ابتدائي	٢٩,٤٨	٢٧,٦٦
تكميلي	٢٥,٩	٢٥,٣٥
ثانوي	١٦,٣٣	٦,٣٨
جامعي	٩,٦	٨,٥١
المجموع	٩٩.٦٤	١٠٠

مستوى التعليم



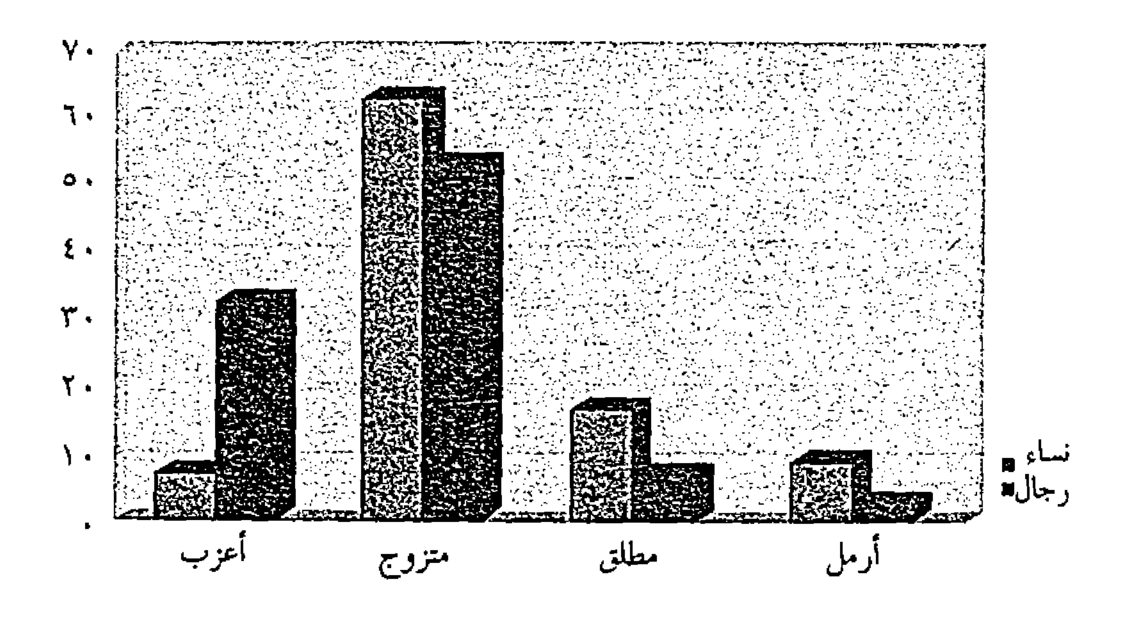
الحالة المدنية

أما في ما يتعلق بالحالة المدنية وعلاقتها بالانحراف فنلاحظ ان نسبة السجناء غير المتزوجين أعلى من نسبة السجينات غير المتزوجات بكثير، إذ هي ٢٦ , ٣٤٪ عند السجناء و٥١ , ٨٪ عند السجينات، مما يعني أن الفتاة العازبة في بلادنا اقل تعرضاً للانحراف من الرجال الذين يكونون في وضعية مشابهة، وان الشاب العازب وفي مقتبل العمر كثير التعرض له.
أما بعد الزواج فتظهر المرأة هشاشة اكبر، إذ تبلغ نسبة السجينات المتزوجات ٨٣ , ٦٣٪ بينما تبلغ نسبة السجناء المتزوجين ٩٨ , ٥٤٪.
كذلك هو الأمر بالنسبة إلى المطلقة والأرملة اللتين تزداد احتمالات تعرضهما للانحراف اكثر كثيراً من الرجل إذ تبلغ نسبة السجينات المطلقات والأرامل ٦٦ , ٢٧٪ بينما هي عند السجناء ٧٥ , ١٠٪، أي أنها تزيد عن الضعف عند النساء (أنظر الجدول رقم ٥١).

الجدول رقم ٥١:

الحالة المدنية

	رجال	نساء
عازب	٣٤,٢٦	٨,٥
متزوج	٥٤,٨٩	٦٣,٣٨
مطلق/متزوج ثانية	٢	٦,٦٧
مطلق	٥,٥٧	١٠,٣٥
أرمل	٣,١٩	١٠,٦٤
المجموع	١٠٠	٩٩,٩٩



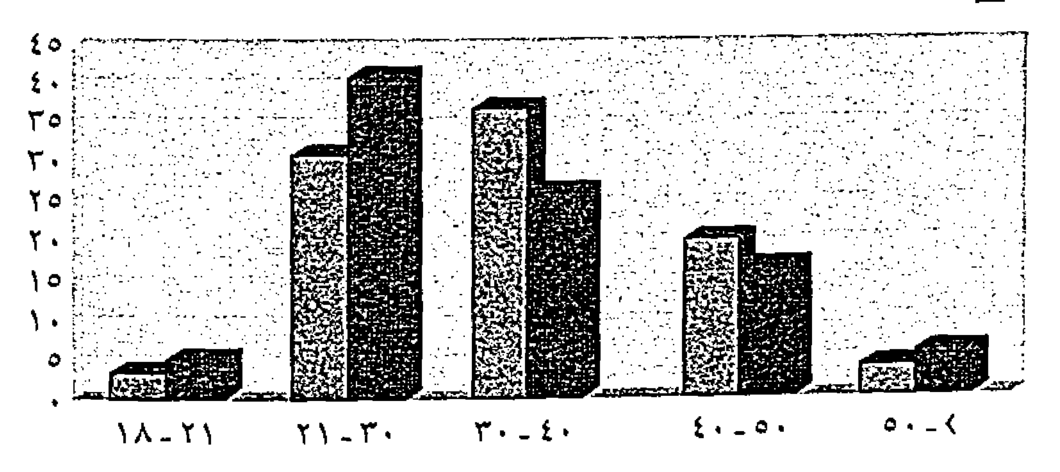
العمر

بالنسبة إلى العمر نلاحظ ان سن ذروة الانحراف عند المرأة هو ٣٥ عاماً بينما هو عند الرجل يتراوح بين الـ ٢٠ عاماً والـ ٢٥ عاماً .وتبلغ نسبة الرجال المسجونين بين العشرين والثلاثين من العمر ٤٤,٢٢٪ بينما تبلغ النسبة عند النساء المسجونات ٣١,١٩٪. يعني ذلك ان سن الهشاشة عند الرجل تكون أبكر مما هي عند المرأة، وان سن الهشاشة عند المرأة تكون

بعد الثلاثين إذ تبلغ النسبة ٣١,٣٨٪، خصوصاً عند اللواتي يعانين من الترمل أو الطلاق أو الزواج التعيس أو الحياة الأسرية الصعبة. وهذا يشير إلى الترابط بين العمر والحالة المدنية (انظر الجدول رقم ٥٢).

جدول رقم ٥٢:
العمر

	رجال	نساء
١٨-٢١	٦,٨٧	٤,٢٥
٢١-٣٠	٤٢,٢٦	٣١,٩١
٣٠-٤٠	٢٦,٤٦	٣٨,٣١
٤٠ - ٥٠	١٧,٢	٢١,٢٨
٥٠-<	١٧,٢١	٤,٢٥
المجموع	٩٩,٩٨	١٠٠



عدد الاطفال

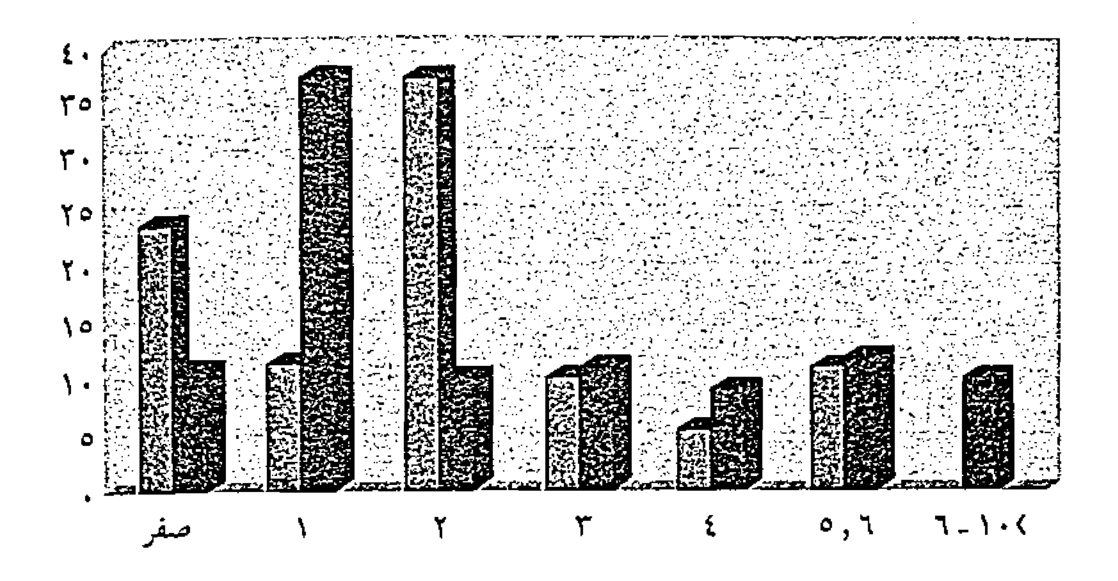
أما من حيث أثر حجم الأسرة، لجهة **عدد الأولاد**، فيبدو أن المرأة صاحبة الأسرة الأقل عدداً معرضة للانحراف بنسبة أعلى من الرجل في نفس الوضعية إذ تتجمع معظم السجينات في المستويات الثلاثة الأولى (حوالي الـ٧٠٪) أي لديهن ٣ أولاد أو اقل. ومن اللافت هنا ان حوالى الـ٤٠٪ منهن أمهات لولدين اثنين فقط. مما يعني اختلاف وضعيتهن عن متوسطات الأسر التقليدية بالمقاييس اللبنانية؛ كذلك الأمر بالنسبة إلى الرجال (حوالى الـ٢٤٪ أصحاب أسر مكونة من طفلين). الملاحظة الأكيدة بالنسبة إلى الجنسين هي أن معيلي الأسر الكبيرة اقل تعرضاً للانحراف من أصحاب الأسر الصغيرة. ملاحظة أخيرة هي عدم وجود أي سجينة أم لأكثر من ٥ أطفال (انظر الجدول رقم ٥٣).

الجدول رقم ٥٣:

عدد الاطفال

	رجال ٪	نساء ٪
صفر	١٢,٥	١٩,١٤
١	١٧,٦١	١٢,٧٦
٢	٢٣,٨٦	٣٨,٢٩
٣	١١,٩٣	١٠,٦٣
٤	٩,٦٥	٦,٣٨
٥,٦	١٣,٦٣	١٢,٧٦
٦-١٠<	١٠,٧٨	٠
المجموع	٩٩,٩٦	٩٩,٩٦



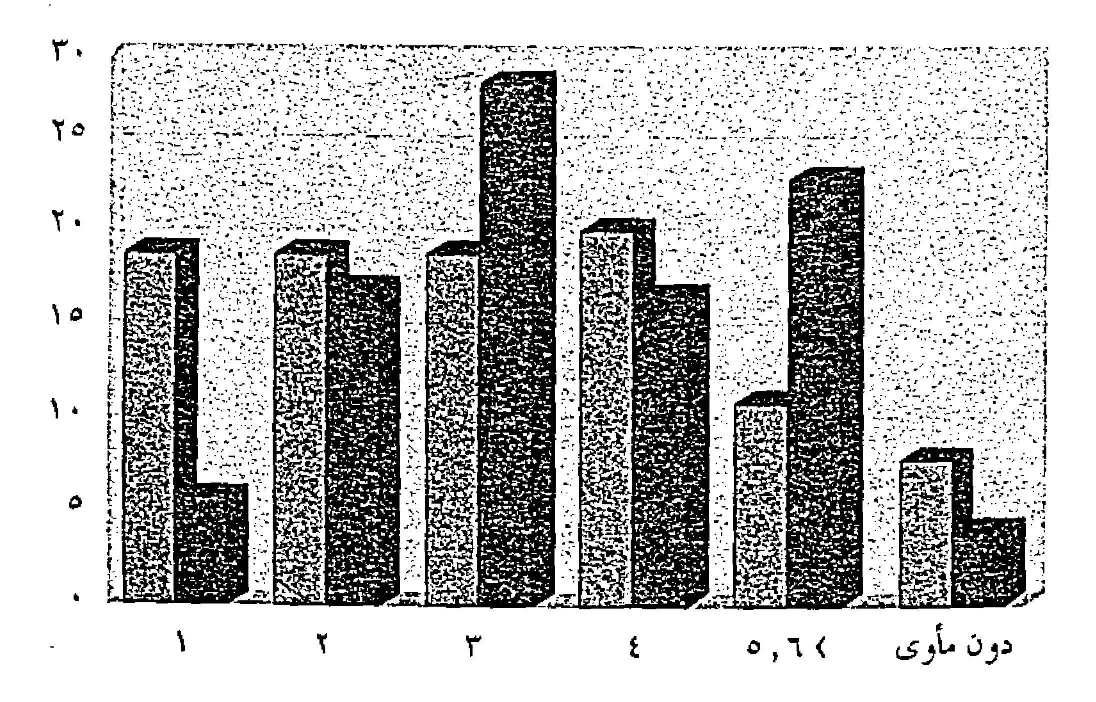


عدد غرف المنزل

بالنسبة إلى **عدد غرف المنزل** الذي يدل على الوضع الاقتصادي للأسرة من الملاحظ ان حوالى الـ ٤٠٪ من السجينات يعشن في بيوت من غرفة واحدة أو غرفتين، مقابل حوالى ٢٤,٥٪ فقط من المساجين. يعني ذلك ان نسبة النساء المنحرفات اللواتي يعانين من الظروف السكنية السيئة اكثر ارتفاعاً مما هي عند الرجال. كذلك في ما يتعلق بمن لا منزل لهم إذ يشكل عدد النساء ضعف عدد الرجال (١٥,٨٪ مقابل ١٢,٤٪). كما نلاحظ ان معظم السجناء من الجنسين يسكنون في بيوت من ٣ غرف أو أقل: ٤٥,٥٧٪ عند النساء و٥٣,٧٥٪ عند الرجال (انظر الجدول رقم ٥٤).

الجدول رقم ٥٤:
عدد غرف المنزل

عدد الغرف	رجال ٪	نساء ٪
١	٦,٨٧	١٩,١٥
٢	١٧,٨٦	١٩,١٥
٣	٢٩,٢	١٩,١٥
٤	١٨,٢١	٢١,٢٨
٥-٦<	٢٣,٧	١٢,٧٦
دون مأوى	٤,١٢	٨,٥١
المجموع	٩٩,٩٦	١٠٠



نوع العمل

أما في ما يتعلق بالعمل، فمن الملاحظ ان اكبر نسبة مطلقة من السجينات تتكون من ربات البيوت وتبلغ ٩١ , ٣١٪ ، وهذا الأمر يعد طبيعياً في بلد لا تشكل فيه المرأة العاملة سوى ٧ , ٢٠٪ من القوى العاملة عامة (بحسب إحصاء دراسة وزارة الشؤون الاجتماعية ١٩٩٧).

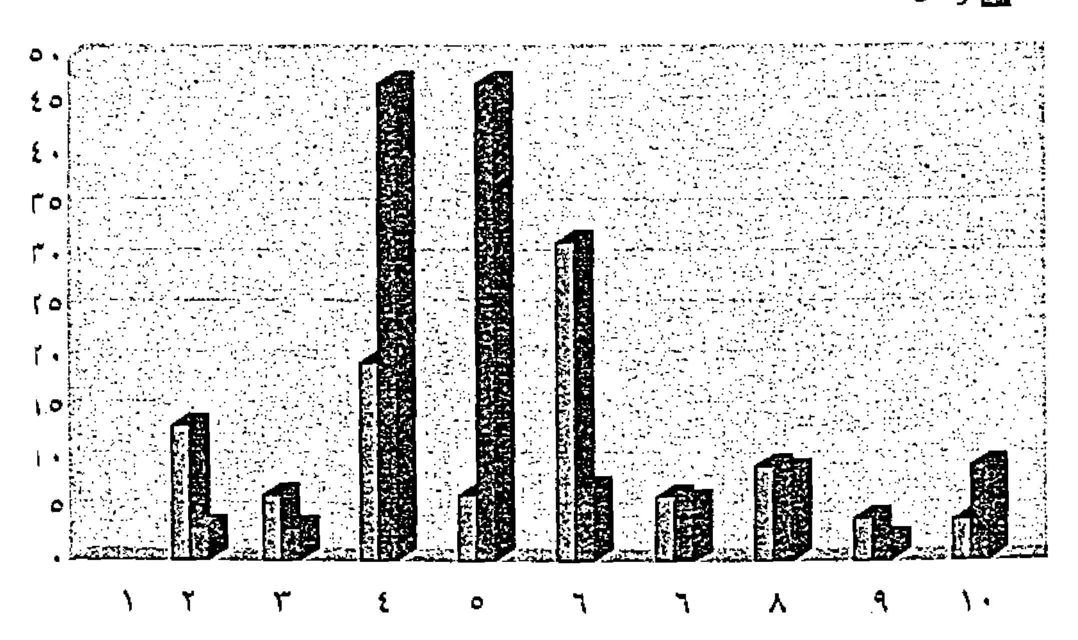
لكن نسبة الـ ٩١ , ٣١٪ من ربات البيوت السجينات تعني ان ٦٨٪ من السجينات هن من النساء العاملات. وهذه سمة مناقضة للسمة السائدة في المجتمع، ذلك ان ربات البيوت يبلغن بمعنى آخر نسبة تفوق الـ٧٥٪ من مجمل النساء اللبنانيات (هذا إذا أغفلنا الرقم الدقيق للعاطلات عن العمل).

ذلك يجعلنا نقدم افتراضاً يقول إن المرأة العاملة تتعرّض أكثر من غيرها للانحراف، خصوصاً التي تمارس مهنة مصنفة في الفئات الدنيا: عاملة تنظيفات ٨ , ١٤٪ ، مربية وطباخة ٣ , ٦٪ ، خياطة ٨ , ١٤٪ ، أي حوالى الـ ٣٥ ٪ من السجينات. وتمثل الموظفة الصغيرة نسبة ١٩ , ٣١٪ منهن. أما اكبر نسبة من السجناء فتتكون من أصحاب الحرف الصغيرة، وتشكل هذه النسبة ٠١ , ٤٧٪، فيما يتوزع الباقي على القطاعات الأخرى. من هنا يمكن القول ان معظم السجناء والسجينات هم من أصحاب المهن اليدوية البسيطة والدنيا (انظر الجدول والرسم البياني رقم ٥٥).

الجدول رقم ٥٥:

توزيع العمل بحسب الجندر

رجال	رجال ٪	نساء	نساء ٪
عامل زراعي	٢,٣٩	عاملة منزل	١٤,٨٩
عامل	٢,٣٩	عناية اطفال/ مطبخ	٦,٣٨
حرفي	٤٧,٠١	خياطة	١٤,٨٩
موظف صغير	٤٧,٣٦	بائعة/ عاملة مطعم	٦,٣٨
موظف	٧,٥٧	ربة المنزل	٣١,٩١
عمل حر	٥,٩٨	ممرضة	٦,٣٨
تجارة	١٠,٣٨	موظفة	١١,٩٥
سائق	٢	تجارة	٤,٢٥
مختلف	١٤,٣٤	مختلف	٤,٢٥
مجموع	٩٩,٩٩	مجموع	٩٩,٧١



يظهر هذا الجدول ان اكثر من ٢٠٪ من النساء يعملن في اعمال الخدمة المنزلية المتدنية اجتماعياً، مقابل اقل من ٥٪ من الرجال في اعمال مقابلة لها. بينما تتركز اعداد الرجال، اكثر من ٥٠٪، في الحرف والوظائف الصغيرة.

هل هناك من تمايز؟

إن الاستنتاجات الأولية التي يمكن التوصل إليها من خلال دراسة هذه العينة المحدودة (التي لا نتعامل معها على انها قوانين عامة بالطبع) والتي تمثل رغم ذلك نسبة تقترب من ٥٠٪ من عدد السجينات اللواتي وجدن في سجون الدولة في العام ١٩٩٥، وحوالى الـ ٨٪ من السجناء الرجال الذين وجدوا في سجن بيروت في العام ١٩٩٦، تجعلنا نقر بوجود تمايز في وضعية كل من الرجل والمرأة على مستوى الجريمة والعقاب، وكذلك بوجود تشابه أيضاً؛ إذ نلاحظ هشاشة اكبر عند المنتمين إلى الفئات الدنيا من الجنسين. ولن أدخل هنا في مسألة تعرض الأكثر حرماناً للعقاب أو تفلت الأكثر قدرة وسطوة من هذا العقاب، فهي نقطة أثرناها في الفصل المخصص للعقاب. وسوف أبقي نقاشي هنا ضمن الإطار الجندري الذي وضعته لنفسي. إذن يتعرض الأكثر فقراً للانحراف وللعقاب الذي يليه (راجع جداول المهن والأعمال التي يمارسونها رقم ٥٥)، كذلك يكون أكثر تعرضاً للانحراف من يعيشون في بيوت تتكون من ثلاث غرف أوأقل مما يعني ظروفاً معيشية غير مريحة. كما نلاحظ أن الأكثر تعرضاً للانحراف من الرجال ومن النساء هم أصحاب أسر صغيرة معظمهم آباء وأمهات لولدين (النسبة الأكبر) أو اقل من ذلك. قد يعني ذلك ان الفقر وضيق المنزل هما المسببان الوحيدان للانحراف. ولكن مغريات الحياة الحديثة والاستهلاكية الضاغطة هي أيضاً من المسببات الرئيسية إذ هي تزيد من المتطلبات التي يستحيل إشباعها إلا باللجوء إلى الحلول الملتوية. وتبين الأرقام ان المرأة العاملة اكثر تعرضاً من غير العاملة، وهي غالباً ما تكون دون أولاد أو أماً لولدين فقط وتعمل عملاً مهنياً ويدوياً بسيطاً. ولا داعي لأن تتسبب هذه القراءة في تخوف من يطالب بأن تعمل المرأة وان تستقل مادياً، إذ إن نسبة الانحراف عند النساء عامة أقل بكثير من نسبة العاملات منهن. غير أن ذلك يشير إلى أمر هام، وهو ان خروج المرأة

إلى العام وتعرضها لضغط الحياة الحديثة ولمغرياتها ولقمعها في الوقت نفسه قد يسبّبان الانحراف عند النساء الضعيفات وغير المتعلمات واللواتي يعانين من أوضاع أسرية مضطربة (طلاق – ترمل – مشاكل أسرية...) وهذه سمة العصر، المدن الكبيرة والمكتظة تتسبب في زيادة الانحرافات على انواعها.

كما يشمل التمايز بين الجنسين سن الانحراف وأنواع الجرائم أو الجنح وأسباب الانحراف واختلاف العقاب أيضاً.

تشير قمة سن الانحراف عند المرأة (٣٥ عاماً - جدول ٥٢ وجدول ٥١) إلى ان المرأة المتزوجة والأكبر في السن هي الأكثر تعرضاً للانحراف، بينما تراوح هذه القمة عند الرجل ما بين ٢١ عاماً و٢٥ عاماً. وقد يؤكد ذلك بعض الاتجاهات البحثية التي تجد ان العشرة السيئة هي من مسببات الانحراف عند الرجل، بينما تكون الأوضاع المعيشية والعلاقات الأسرية عند المرأة هي التي تسبب الانحراف(٩).

والتمايز المهم على مستوى العقاب يتعلق بالرقابة التي تمارس على المرأة اجتماعياً من حيث سلوكها الأخلاقي بشكل واضح وصريح وذي دلالة، وهي تتعرض للرقابة الصارمة حتى عند اشتداد الحرب، بحيث أنه عندما يخف عدد المسجونين الرجال لا يقابل ذلك انخفاض مماثل عند النساء، وهذا دائماً بحسب النسب المئوية وليس بحسب الرقم المطلق.

ومن السهل رمي المرأة بتهمة أخلاقية وتوقيفها دون الأخذ بعين الاعتبار للنتائج المترتبة اجتماعياً على ذلك، وهذا طبيعي في بلد تكون فيه من تعرضت للاغتصاب مذنبة بينما يكون المعتدي بريئاً!

لذلك برزت الملاحظة المتعلقة بنوع جرائم المرأة التي يشكّل القتل من بينها نسبة الربع تقريباً، وخصوصاً قتل الزوج أو ابن الزوج (٦٠٪). ان النساء اللواتي يعانين القمع ويتقبلنه معظم الأحيان، لا يتورعن عن ارتكاب جريمة قتل عندما يردن التعبير عن الرفض، هن اللواتي نادراً ما يعبرن بواسطة العنف.

يمكن أن نستنتج مما سبق، ان المرأة المجرمة هي امرأة فقيرة غير متعلمة، عاملة، متزوجة أو مطلقة أو أرملة، متهمة في أخلاقها (٢٣٪ من

(٩) Liska, A.E. *op. cit.*

الجرائم) أو قامت بجريمة ضد الرجل (٢٣٪ أيضاً)، وهي دون اطفال او أمّ لولدين على الأكثر. أمّا الرجل المجرم فهو عموماً رجل فقير وغير متزوج، وإذا كان متزوجاً فهو أب لطفلين يعمل عملاً يدوياً، وتهمته الأولى السرقة (٦, ٤٢٪).

يعكس ذلك تمييزاً ضد المرأة، خصوصاً في ما يتعلق بقوانين الأحوال الشخصية التي تضيق عليها من حيث الرقابة على نشاطها الجنسي، إذ يسهل رمي أي امرأة بتهمة الزنا ومعاقبتها، بينما يمكن لشريكها الإفلات من العقاب وبحماية من القانون. كذلك لا يمكن للمرأة ان تحصل على الطلاق بسهولة عندما تساء معاملتها أو تهضم حقوقها، مما يفسّر لجوء المرأة إلى الانحراف بسبب العلاقات الأسرية المضطربة.

ذلك يعني أن المرأة ليست مواطنة كاملة الحقوق والواجبات، بل هي مواطنة من الدرجة ثانية فيما يتعلق بأهليتها على مستوى قوانين الأحوال الشخصية خصوصاً.

قد لا يعني ما سبق ضرورة البحث عن اثر الجندر من خلال التماس مختلف وأسئلة مختلفة بالضرورة، لكن من الواضح أن أسباب الانحراف تتأثر أحياناً بالجنس/ النوع ، وأنه بإمكاننا البحث عن اثر الجندر قبل السجن وبعده، وان ذلك كله شديد الارتباط في لبنان بالقيم الاجتماعية وبالخلفية الثقافية التي تلقي بظلال ثقيلة على مسألة الجندر.

* * *

خلاصة

أمكنة تضيق بأهلها

إقفال سجن بيروت

بعد حوالى العام من انتهاء عملي الميداني في سجن بيروت، تم إقفاله. حصل ذلك (بحسب معلومات شفهية) في تموز ١٩٩٧.

ها قد أقفل أخيراً هذا السجن الأثري، الذي ضم في حناياه، وعلى امتداد سنوات وسنوات، أجزاء من حيوات متعددة ومتنوعة؛ ضم قصصاً صغيرة ربما، لكن خوفاً كبيراً وأحزاناً ومشاعرعارمة تختزن الرفض والمرارة والندم مع الكثير من القلق وشعور طاغ باللاجدوى و الفراغ.

مهما حصل لذلك البناء هناك، أو لقطعة الارض التي قد يصبحها والتي ستكون ذات قيمة عقارية مرتفعة، سوف أظل أفكر، كلما مررت بالقرب منه، بجميع من قابلت. وسوف أذكر دائماً البعض منهم بشكل خاص والذين أثروا بي وصاروا جزءاً من ذاكرتي. وسوف تظل تخطر على بالي، الاوقات التي أخذت نتفاً من وجودي وجعلته موسوماً بوجوه وكلمات وبعض صور. وجودي الذي اختلط مع نتف من وجود البعض من نزلائه الكثر.

إنتفاضة في سجن رومية؟

كنت في طور الإعداد والمراجعة للقسم الثاني من كتابي هذا، القسم المتعلق بالإحصاءات والأرقام، عندما طالعتنا الصحف يوم الخميس في ٩ نيسان ١٩٩٨ بعناوين صفحاتها الاولى: «سجناء رومية ينتفضون»[١]. و«أول وأوسع تمرد في لبنان لـ١٦٠٠ سجين يطالبون بتحسين أوضاعهم... وبالعفو»، وعنوان آخر: «كيف اخترق العصاة نظام سجن رومية»[٢]...

---

(١) السفير، ١٩٩٨/٥/٩.
(٢) النهار، ١٩٩٨/٥/٩.

أما عنوان مقال جريدة الحياة عن الموضوع وفي التاريخ نفسه، فهو يشير إلى أن الموقوفين «يطالبون بالعفو وتسريع المحاكمة... والشرارة إحراق أحدهم... والمر (وزير الداخلية) يعد برفع المطالب إلى الحكومة».

وفتح ملف السجون وبقيت التحقيقات الصحافية متابعة لمدة تزيد عن الشهر، حيث تمت بعض المقابلات مع سجناء سابقين ونقل عينات عن معيشة السجناء ظروف سجنهم.

ماذا كانت مطالب السجناء؟

١ ـ العفو العام أسوة بالعفو الذي لحق جزءاً من جرائم المخدرات.

٢ ـ عدم التوقيف الاعتباطي.

٣ ـ عدم المماطلة في المحاكمة وتسريع الجلسات.

٤ ـ إنهاء التحقيق الاولي في مدة لا تتجاوز الشهرين للموقوف وتحويل الملف إلى المحكمة.

٥ ـ تسريع نقل البريد من المحاكم لإعطاء الحكم إلى السجون بالنسبة إلى إيصال خلاصات الأحكام للقلم العدلي وتبليغها إلى صاحب العلاقة، أي السجين.

٦ ـ جعل سنة الحبس تسعة أشهر أسوة بمحيطنا الاقليمي على الاقل، ونحن في لبنان دولة سويسرا الشرق التي تخلّفت بسبب الحروب والكوارث والملمّات التي حدثت وعصفت بالدولة، نرجو لها الخلاص لتعود وتتبوأ مركزها في مقدم الدول المتقدمة.

٧ ـ تأمين صندوق بريد لدفع الغرامات في حرم السجن، لأن بعض الاهالي يضطرون إلى النزول إلى البريد الخارجي ما يؤخر وصول الرسائل. وبعض السجناء لا أهل لهم ليزوروهم أو يدافعوا عنهم وتحديداً الاجانب.

٨ ـ دراسة وضع السجناء الاجانب والسودانيين تحديداً، (خاصة الموقوفين بتهمة دخول لبنان خلسة)، علماً أنهم يحملون وثائق من الأمم المتحدة.

٩ ـ وضع السجناء الأجانب عموماً.

١٠ ـ يرجى منح قائد سرية السجون، الصلاحيات التامة مع الامكانات لتأمين حاجات السجناء داخل السجن المباحة قانونياً.

١١ ـ طلب لقاء مع لجنة حقوق الإنسان الدولية ولجنة حقوق الإنسان في المجلس النيابي.

١٢ ـ أعلن بعدها الموقوف الحلاق في نهاية كلمته أن الموقوفين سيبدأون اليوم إضراباً عن الطعام، وسيستمرون في حال العصيان حتى تحقيق مطالبهم.

إستمرت الكتابة الصحافية والندوات والاجتماعات الإدارية لفترة زمنية محدودة؛ ومن ثم طوي الموضوع إعلامياً.

يضمّ سجن رومية[1] ٣٠٠٠ سجين من أصل ٥٠٠٠ سجين في لبنان، أريد له أن يكون سجناً نموذجياً فوضعت تصاميم بنائه عام ١٩٦٢ واستقبل أول سجين عام ١٩٧٢.

يتكون سجن رومية بحسب تقرير مراقب السجون[2] من مجموعة من ١٤ بناء متشابهاً يجمع بينها جسم مركزي وهو لم ينته بناؤه بعد. خصص بناء واحد فقط للمساجين والأبنية الأخرى مخصصة للجيش. إذن لا تستخدم من طاقة سجن رومية الذي بني كسجن إلا الجزء الضئيل، نظراً لعدم تخصيصه لهدفه الاصلي. لذا يعاني هذا السجن من الاكتظاظ الشديد ويضم بحسب تقديرات اخرى[3] ٢٨٣٧ سجيناً موزعين على ثلاثة مبان متصلة فيما بينها، بينهم ١٥٣٢ موقوفاً (أنظر جدول رقم: ٤-٥-٦).

كان إنطباعي بعد أن زرت سجن رومية في العام ١٩٩٣ هو الاندهاش من الضجة التي ترتفع كطنين خلية نحل عملاقة، منذ البرهة التي يتم بها عبور باب الفناء الذي جعل لنزهة السجناء اليومية. إنه سجن ضخم، ثقيل الوطأة يفرض على زائره إحساساً بالضعف والضآلة من جراء تعدد ابوابه الحديدية الثقيلة وتعدد حراسه وفجاجتهم. بحيث يفرض على الزائر انضباطاً ذاتياً يسببه شعوره بفقدان فردانيته وبانضمامه الى ما يشبه القطيع غير المتمايز؛ إذ يصبح جزءاً من آلة ضخمة ضاجة تفرض معاييرها وشروطها.

---

(١) النهار، ١٩٩٧/١١/٧.

(٢) *Enfants en prison*: Rapport d'observation sur les conditions de la détention des mineurs dans 51 pays. Ed. Observatoire international des prisons, Lyon, 1998, 468 p.

(٣) السفير، ١٩٩٨/٥/٩.

لا أريد أن أدعي أنني كنت أنتظر حدوث هذا العصيان أو الثورة المصغرة في سجن رومية. لكنني عندما أردت أن أتعرف على من هم في السجن بعد حرب أهلية جعلت العنف روتيناً مملاً وجزءاً من يومياتنا العادية. وجدت أطفالاً وأصحاب جنح وجنايات عادية أكثر مما وجدت من انتظرت وجودهم فعلاً. في لبنان الخارج من الحرب الاهلية، يعيش السجناء حالة من الاحساس بالظلم، ففي الحرب حصل انتهاك لجميع القيم والمحرمات، ومن هم في السجن لا يشعرون أنفسهم اكثر «ذنباً» ممن هم خارجه. من هنا الشعور بالمرارة بحيث أن البعض استوقفني بالقوة كي يقول لي أنه سوف ينتقم عند خروجه من السجن، وإن هذا السجن لن يصلحه وأنه سوف يكرر فعلته، أو يرتكبها إذا ما كان يزعم البراءة.

قد يكون هذا «كلام إنفعال»، لكنه يعبر عن مشكلة حقيقية، بحيث يفقد السجن وظيفته الاولى المفترضة، أي الاصلاح. الاصلاح هي الوظيفة النظرية للسجن عبر إعادة تأهيل السجين. لكن لا تثار هذه المسالة في لبنان إلا في الندوات والمحاضرات من قبل علماء أجتماع أو حقوقيين، وهي كما لاحظنا غائبة عن القانون الاساسي الذي ينظم السجن. لكن عملياً لم يكن السجن يوماً للإصلاح فعلاً وتجمع الدراسات على ذلك، فيما عدا التجارب التي تقوم بها السويد والبلدان المنخفضة والتي تعتمد على فكرة التكفير عن الذنب بالعمل مجاناً في المؤسسات العامة، بحيث يكون «العقاب» مناسبة لإعادة دمج السجين اجتماعياً بدل عزله.

ان نظرة الى المطالب التي أوردها الموقوفون تشير الى انها متعلقة بالروتين الاداري وبطريقة التوقيف ومدته الطويلة وتشير إلى الصعوبات المادية التي يعاني منها السجناء وذووهم (مطلب البريد المحلي) وانقطاعهم عن الجمعيات الأهلية وتلك المتعلقة بحقوق الانسان بشكل خاص. والشعور بالظلم بسبب قوانين العفو الاستنسابية والتي تطال فئات دون غيرها. بالمقابل لم يشر السجناء إلى ظروف سجنهم المعيشية السيئة في السجن والتي أفاضت الصحف في وصفها. من المعروف ان السجون في لبنان في وضع سيئ بسبب التقشف الذي يمارس في معظم قطاعات الدولة (ما عدا البناء و الإعمار)، ما ينعكس على المساجين من عدة نواح.

المسبّب الأصلي «للانتفاضة» (كما أفاضت به الصحف) هو سوء معاملة بعض افراد قوى الأمن للسجناء، واعتبار السجين موضوعاً لممارسة سلطة متفلتة من أي ضابط، ففي حيثيات الأحداث أن الشرارة بدأت عندما علم المساجين ان ضابطاً أحرق زميلاً لهم هو الياس الشامي، أثناء التحقيق معه، فاشتعل السجن صراخاً واحتجاجاً. ما أقدم عليه الضابط كان إباحة إحراق العضو الجنسي للسجين لأنه رأى في التهمة المنسوبة إليه ما يسمح له باجراء مماثل.

بدأ الاحتجاج في قسم الموقوفين الذين لم يحاكموا بعد ليمتد و يشمل كل القاعات والغرف. ثم أحرق بعض المساجين فرشه وأغطيته وبعضهم الآخر جرح يديه بسكين...

مسألتان مرتبطتان تتفاعلان لزيادة مشكلة السجون وتفاقمها: الاكتظاظ الشديد في السجون وعدم القيام بأي محاولة للتخفيف منه أو لتحسين شروط السجن وإعداد الجهاز البشري الملائم. المسألة الثانية تتعلق بأعداد الموقوفين التي تكاد تعادل أعداد المحكومين وتفوقها أحياناً، وتركهم في السجن دون محاكمة لسنوات.

لم أستطع أن أعرف بدقة أعداد المسجونين قبل الحرب، لغياب الدقة أصلاً عن كل ما يتعلق بالمعلومات في لبنان. لكن التقديرات تورد إرتفاع أعداد المسجونين تباعاً في الأعوام الماضية ويناهز الآن الـ٥ آلاف سجين، ظلوا في الامكنة نفسها تقريباً ولم تلحظ أبنية جديدة قادرة على استيعاب كل هذه الاعداد المتزايدة، أو على الاقل إخلاء الأمكنة المخصصة لهم.

ان أسرع طريقة للتخلص من الاكتظاظ الراهن هي إطلاق سراح المتهمين الموقوفين بكفالة مع ضمان مراقبتهم إلى أن يصدر الحكم بحقهم. خاصة في القضايا التي لا تشكل خطراً على أمن وسيادة الدولة أو على حياة الاشخاص. فالمتهم بريء إلى أن تثبت إدانته.

الطرق الاخرى لحل مشكلة السجون تتطلب الروية والتخطيط السريع في الوقت نفسه، لتهيئة سجون «محتشمة»، أي تراعي الشروط الانسانية البديهية. إذ كيف بإمكان السجين في مؤسسة عقابية أن يعطي براهين إستثنائية على تكيفه الاجتماعي فيما هو يقضي عقوبته في شروط تمنع عن هي نفسها إمكانية التكيف؟ الا إذا كان الأمر يتعلق فقط بتنفيذ العقوبة التي تهدف إلى فرض الخضوع المطلق، بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى.

ما يساعد على تخطي هذه العقبات، الاقتناع بفكرة بديهية من الناحية النفسية، وهي أن السجناء ليسوا سوى كائنات إنسانية بالدرجة الاولى؛ حينها يصبح الحديث عن الإصلاح ممكناً.

تتطلب معالجة أوضاع السجون الأخذ بعين الاعتبار لبعض الأمور البسيطة، أولها الابتعاد عن القمع و التعسف وبذل الجهد من أجل:

- تهيئة أبنية جديدة ومناسبة وتوزيعها على المحافظات كي لا يبتعد السجين كثيراً عن محيطه الطبيعي، وكي لا يتكبد الأهل الكثير من المصاريف التي تمنعهم أحياناً من زيارة السجين وتتسبب بانقطاعه عن أسرته.
- مراعاة إمكانية السجون على الاستيعاب ومراعاة حجمها، فكلما كانت أصغر حجماً كلما كانت العلاقات والتبادلات في داخلها أكثر إنسانية.
- الإسراع بتأمين وإعداد جهاز إداري مدني ومتخصص في الوقت نفسه، يراعى فيه إدخال مرشدين ومرشدات، إجتماعيين ونفسانيين وتربويين؛ على أن يكون التعامل مع السجناء من اختصاصهم فقط، ويخصص جهاز الأمن لاعمال الحراسة وما شابه.
- تأمين شروط وتجهيزات صحية مقبولة وتأمين المواد اللازمة والضرورية لنظافة المريض.
- تأمين طبابة جيدة وفعلية وتخصيص أماكن للقراءة وللتريض وللترفيه.
- إنشاء مكتبات وصالات تلفزة وسينما ومتابعة صحفية تسمح ببقاء السجين على علاقة مع العالم الخارجي.
- السماح لمن لديه القدرة أو باستطاعته القيام بعمل او مهنة أو إختصاص أن يقوم به، وهو ما يسمح به قانون السجون المادة ٥٩.
- تأمين أعمال مجدية ومجزية لمن ليس لديه عمل.
- متابعة حالات أسر السجناء المحتاجة إلى المساعدة والدعم، كي لا تزداد أعداد الجانحين في كل مرة يراد فيها معاقبة فرد واحد وليس محيطه أيضاً.
- أخيراً تفعيل القضاء، وهو ما أورده السجناء في قائمة مطالبهم، نظراً للظلم الذي قد يتسبب به. لذا لا بد من الإسراع في تفعيل القضاء

والعمل على توسيع الجهاز القضائي ومراقبة تطبيق القوانين لجهة شروط التوقيف ومدته.

لم أكن أود إنهاء بحثي بإيراد النصائح، لكنها بضعة أفكار تسببت بها انتفاضة رومية، علماً ان السجن لم يؤدِ وظيفة الإصلاح في تاريخه الطويل بدليل انطلاق مشاريع الإصلاح منذ تأسيس أول سجن بحسب ما يذهب إليه فوكو في كتابه المراقبة والعقاب: «وهو، (أي السجن) خطر عندما لا يكون غير ذي فائدة. مع ذلك لا «نرى» بأي شيء يمكن استبداله. إنه الحل الكريه الذي لا يمكن اقتصاده ...» (ص ٢٣٤).

آملين ان تعي السلطة ذاتها، لأنها كلما فعلت ذلك، كلما صارت أكثر لطفاً!

المراجع العربية

- أنطونيني، ف: **عنف الانسان**، ترجمة نخلة فريفر، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٩.
- أرندت، حنة: **في العنف**، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقي، ١٩٩٢.
- باكوس، ل. فيشي، ب: **الناجون من التعذيب**، منظمة التمريض الدنمركية، مركز أبحاث وإعادة تأهيل ضحايا التعذيب في كوبنهاجن، ١٩٩٣.
- العوجي، م: **التأهيل الإجتماعي**، دار بحسون، بيروت، ١٩٩٣
- رباح، غ: **ظاهرة الإجرام في حرب السنتين**، منشورات دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩
- روزنثال، ف: **مفهوم الحرية في الإسلام**، ترجمة السيد، ر. و زيادة، م، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٧٨.
- **كساندر**: مجلة شهرية توثيقية تصدر عن Idrel، بيروت، لبنان.
- **ذاكرة لبنان**: كتاب سنوي توثيقي يصدر عن Idrel، بيروت، لبنان.
- التير، م: **السجن كمؤسسة إجتماعية**، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٧٨.
- ضاهر، ف: **الدفاع الإجتماعي ومكافحة الجريمة**. مؤسسة بحسون، بيروت، ١٩٩٤.
- الحسين، ق: **الفساد و السلطة**. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧.
- هروود، ب، ج: **تاريخ التعذيب**، ترجمة ممدوح عدوان، دار الجندي، دمشق، ١٩٩٨.
- أبحاث الندوة العلمية الأولى: **السجون ومزاياها وعيوبها من وجهة**

النظر الاصلاحية، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب؛ الرياض، ١٩٨٤، الطبعة الثانية.

- **الأحداث في لبنان**: عن إتحاد حماية الطفولة، بمساهمة من منظمة الأمم المتحدة للطفولة، يونيسف، بيروت، دون سنة نشر.

- الدليل: **تفعيل القواعد الدنيا لمعاملة المساجين**، إصدارات المنظمة الدولية للإصلاح الجنائي، لندن، باريس، ١٩٩٧.

المراجع الأجنبية

- Actes - Les Cahiers de Vaucresson - n° 45/46: *La prison autrement.*

- Annales de Vaucresson: *Images, imagos, imagerie, imaginaires.* n°. 25 - 1986/2. Ministère de la Justice - CNRS. Vaucresson.

- Annales de Vaucresson: *Politique de prévention et action sociale.* n° 24 - 1986/1. Ministère de la Justice - CNRS. Vaucresson.

- Annales de Vaucresson: n° 28 - 1988.

- Ariès. Ph: *L'enfant et la vie familiale sous l'ancien régime:* Seuil. paris, 1973.

- Ariès Ph. Duby (sous direction): *Histoire de la vie privée.* 5 tomes - Seuil. Paris, 1985 - 1987.

- Arendt. H: *La crise de la culture.* Gallimard. Paris, 1972.

- Arendt. H: *Le système totalitaire.* Seuil. Paris, 1972.

- Badinter. R: *La prison républicaine.* Fayard. Paris, 1992.

- Badr-El-Din.A: *Action Oriented Research on Youth Crime.* An International Perspective, Arab States. UNSDRJ, pub. n° 27 - Rome. Nov. 1986.

- Baguet. Hallaq Joudo: *Lumière sur Saïda.* Desclée de Brouwer - Paris, 1994.

- Basaglia. F: *L'institution en négation.* Seuil. Paris, 1970.

- Basaglia. F: (sous direction). *Les criminels de paix.* PUF. Paris, 1980.

- Betteltheim. B: *Le cœur conscient.* Laffont. Paris, 1972.

- Besette. J.R: *Sociologie du crime.* PUF. Paris, 1982.

- Bailly - JAF - Pagella: *Séquelles psychologiques de la torture.* Nervure: Journal de psychiatrie, Tome II n° Dec. 1989.

- Bourdieu, P: *La misère du monde* - Seuil. Paris, 1993.

- Canguilhem: *Le normal et le pathologique.* PUF. paris, 1975.

- Claval, P: *Les Mythes fondateurs des sciences sociales,* PUF. Paris, 1980. p. 26.

- Chidiac, L.M, Khahi.A, Messarra.A: *La Génération de la relève.* Pub, du Bureau pédagogique des Saints-Cœurs. Beyrouth, 1989.

- Chazal et Chazal: *L'Enfance et la jeunesse délinquante.* PUF. Paris, 1993.

- *Délinquances des jeunes - Questions politiques et problèmes de recherches.* Actes des cinquièmes journées Internationales, volume 2, Vaucresson, mai 1985.

- Devereux. G: *De l'angoisse à la Méthode.* Flammarion. Paris, 1980.

- Dodge. K.A. Bates, J.F, Pette/it. G.S: *Méchanisms in the cycle of violence:* in American Association of the advencement of science, 12 déc. 1990.

- Dubet. F: la Galère. *Jeunes en survie.* Fayard. paris, 1987.

- Durkheime. E: *Les règles de la méthode sociologique.* PUF. Paris, 1956. p. 84.

- Durkheim, E: *De la division du travail social.* Alcan. 1902. p. 52.

- Durkheim, E: *Le suicide.* PUF. Paris, 1981. p. 380.

- Erikson. Kait: *Everything in its path.* publ. by Simon & Schuster, New york, 1976.

- Fize. M: *Les Bandes - l'«entre-soi» adolescent.* Desclée de Brouwer. Paris, 1993.

- Foucault. M: *Histoire de la folie à l'âge classique.* Gallimard, Paris, 1972.

- Foucault. M: *Surveiller et punir.* Gallimard, Paris, 1975.

- Girard - R: *La violence et le sacré.* Grasset, Paris, 1972.

- Giddens, A: *Sociology* (Polity Press, Cambridge), 1989.

- Hall. E.T: *La Dimension Cahée.* Seuil. Paris, 1971.

- Khoury - Y: *La femme libanaise témoin de la guerre: mission de la ligue des États arabes à Paris.* Collogue - oct., 1987.

- Joxe. A: *Voyage aux sources de la guerre.* PUF. Paris, 1991.

- Hochemann. J: *Pour une psychiatrie communautaire.* Seuil. Paris, 1971.

- Lagache. D: *Le Psychologue et le criminel.* œuvres-II, 1947-1952. PUF. Paris, 1979.

- Labaki. P., Abou Rjayli. K: *Bilan des guerres du Liban.* L'Harmatin. Paris, 1993.

- *Mental Health.* April 83, sans auteur.

- Neitzche: *La généologie de la morale.* Gallimard, Paris, 1971.

- Pequignot. F: *Encyclopedia Universalis,* pp. 919-921.

- Pluymaekers. Sous la direction: *Familles, institution et approche systémique.* Esfed. Paris, 1989.

- Réfugiés: *Les traumatismes de l'exil.* Ligue des sociétés de la Croix rouge et Croissant rouge. Rédaction: Mllsege D.

- Reich. W: *Psychologie de masse du fachisme.* Payot. Paris, 1972.

- Tomkiewicz: Finder. Marhin. Zeiller: *La prison c'est dehors.* Delachaux et Niestlé. Paris. 1979.

- Van Ussel. J: *Histoire de la répression sexuelle.* Laffont. Paris, 1972.

- Veyne. P: *Comment on écrit l'Histoire.* Seuil. Paris, 1978. pp. 204-205.



مصطلحات مستخدمة في السجن

قروانة: حصة الطعام التي يقدمها السجن الى السجين .

اليطق: المكان الذي يجلس عليه السجين او مطرحه، وهو حرامه مطوياً أربع طيات .

تعليق بلانكو: رافعة ذات سلسلة حديدية يعلق بها المراد تعذيبه بعد ربطه من قدميه .

فلقة: الضرب على الارجل بعد تعليق الشخص من رجليه على نوع من مثلث حديدي .

فروج: تعليق الشخص من يديه ومن رجليه على الآلة نفسها والضرب عليه مع تقليبه .

يكسّروا حشيش: يدخنوا الحشيش .

حرق على الصليب: تسخين الحشيش .

صاروخ: طريقة في تعاطي المخدرات .

ابرة: تناوله بواسطة الابرة .

النوم على التدعيس: النوم قرب الحمام أو في وسط الغرفة .

الميدان: وسط الزنزانة .

تسييف: مكان النوم في السجن، والمقصود ان الشخص يمتلك مكاناً ضيقاً بحيث لا يقدر أن ينام إلا على جنبه .

طيّر ماء: ذهب إلى الحمام .

يدقّ احدهم بآخر: يحاول التحرّش به جنسياً .

خبطها عليّ: رمى الغلط علي، جعلني المذنب .

القَلِقْ: من يسبب الازعاج الدائم في الزنزانة .

قلقلجية ـ مشكلجية : يتسببون بالمشاكل .

استمارة حول السجين

الاسم: ....
اسم الأب: .... وعمره: ....
اسم الأم: .... وعمرها: ....

عمل الأب:

زراعي	صناعي	حرفي	موظف بسيط	موظف	عمل حر	مختلف
☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

عمل وثقافة الأم:

ربة منزل	عاملة	أمية	متعلمة	مختلف	
☐	☐	☐	☐	☐	....
١	٢	٣	٤	٥	

العمر ☐ عدد الاخوة ☐ عدد الاولاد ☐ عدد غرف المنزل ☐

الحالة المدنية:

أعزب	متزوج	مطلق	أرمل	مختلف
☐	☐	☐	☐	☐
١	٢	٣	٤	٥

المستوى العلمي للسجين:

أمي	ابتدائي	تكميلي	ثانوي	جامعي	مختلف
☐	☐	☐	☐	☐	☐
١	٢	٣	٤	٥	٦

العمل:

زراعي	صناعي	حرفي	موظف بسيط	موظف	عمل حرّ	مختلف
□	□	□	□	□	□	□
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

الدين:

سني	شيعي	درزي	ماروني	كاثوليك	اورثوذكس	مختلف
□	□	□	□	□	□	□
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

السكن الدائم: ....

السكن المؤقت: ....

نوع الجنحة او الجرم: ....

نوع الحكم: ....

تاريخ الحكم: .... ومدته: ....

اسم الزوجة: .... وعمرها: ....

عمل وثقافة الزوجة:

ربة منزل	عاملة	امية	متعلمة	مختلف	
□	□	□	□	□	....
١	٢	٣	٤	٥	

دين الزوجة:

سني	شيعي	درزي	ماروني	كاثوليك	اورثوذكس	مختلف
□	□	□	□	□	□	□
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

زمن السجن لازمنيّ، رتيب يستعيد نفسه دون كلل. إنه متشابه لا يتجدد ولا ينتهي. تضيق المساحة في السجن، ويتقطع الوقت في تلك المساحة المجمّدة والتي يتلاصق فيها السجناء راسين في أماكنهم القليلة. نشاط السجين أو دوام يومه مكوّن مما لا نحسب له حساباً عند تعداد نشاطنا اليومي نحن الذين خارج السجن. لأن هذا النشاط بديهي لدرجة لا تُذكر ضمن مهامّ يومنا: إنه النشاط المتعلق بالحياة شبه النباتية أو بالحياة بأقلّ معانيها في حياتنا العادية ونتحاشى الإشارة إليها؛ بالحياة البيولوجية الصرف التي نتجاهل وجودها.

منى فياض:

أستاذة في علم النفس في الجامعة اللبنانية.

لها كتابات ودراسات عدة في الحقل الاجتماعي والثقافي، من مؤلفاتها:

- **الطفل المتخلف عقلياً في المحيط الأسري والثقافي.**
- **العلم في نقد العلم.**

ISBN 2-84289-115-5